

عز الدين شكري فشير

جريمة في الجامعة

رواية

دار الشروق

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.



أحداث هذه الرواية وشخصياتها خيالية لا علاقة لها
بالواقع

(فيما عدا كل الأحداث والشخصيات الحقيقية)

الفصل الأول

الأساتذة المحترمون

كانت الجامعة الأمريكية هادئة كعادتها عصر كل يوم خميس. مبانيها الفخمة التي تجمع بين الطراز العربي القديم والخطوط العصرية الأنيقة ساكنة في جلال يليق بسمعتها الطيبة. أشعة شمس يونيو الحارة تسطع في الممرات والأفنية الواسعة التي تفصل بين المباني، لا يقلل من حدتها الأشجار والحدائق الزاهية التي تملأ المكان. الرابعة والنصف عصراً، انتهت المحاضرات ومعظم الطلبة والأساتذة يسرعون إلى المحطة للحاق بالأتوبيسات التي تغادر في الخامسة. القلائل الذين أتوا بسياراتهم في طريقهم للمواقف المخصصة لهم بجوار البوابات، يأملون في الإفلات من ساعة الزحام الوشيكة. موظفو الجامعة يترددون بين مغادرة مكاتبهم قبل انتهاء مواعيد العمل الرسمية من أجل اللحاق بالأتوبيسات الخامسة وبين التمسك بمظهر الالتزام الوظيفي والتأخر في العودة إلى منازلهم. هذا هو الأسبوع الأخير من الفصل الدراسي، والجميع دخل بالفعل في روح نهاية العام وبدء الإجازة الصيفية المرتقبة.

في هذه الساعة من كل خميس يكون أستاذ القانون الزائر مروان المفتي جالساً في مكتبه ينظر من النافذة إلى مباني الجامعة الممتدة حتى الأفق. يحب هذه المباني،

ويحب أنه هنا، يعمل في هذا المكان الذي حلم دومًا بالانتماء إليه. ويحب هذا الهدوء الذي يكسو الجامعة في نهاية يوم الخميس. ينظر من النافذة ويحاول استجماع شجاعته والاتصال بلبني الألفي مساعدة رئيسة الجامعة ليدعوها للعشاء معه يوم السبت، أو أي يوم. لبني تستلطفه، لا شك في هذا. لكنه لا يعرف إن كان هذا جزءًا من لطفها العام، من الصداقة التي نشأت بينهما، أم إعجابًا خاصًا ينتظر خطوة منه. هو مغرم بها، منذ نادى عليه قبل أن يدخل اجتماعه الأول برئيسة الجامعة وقالت له أن يعدل ياقة الجاكت. لم يسمعها جيدًا أو لم يفهمها فقامت وعدلت بيدها ياقة جاكته المرفوعة خلف رأسه وقالت له أن ينظر في المرأة في المستقبل قبل المجيء للقاء رئيسة الجامعة. ثم ابتسمت بأمومة غير مبررة ووضعت يدها على صدره لثانية وعادت لعملها دون أن تنظر له، وكأن هذا ما تفعله كل يوم في المكتب. مروان نجول، ربما نتيجة تربية أمه الصارمة في طنطا، ربما لأنه كبر بلا إخوة ذكور يرشدونه، وربما لأنه يشعر دائمًا بالغربة وسط الناس. لم يكن يشعر بهذه الغربة في كاليفورنيا التي أقام بها لخمس سنوات وهو يدرس للحصول على الدكتوراه، وهو أمر يستغربه مروان نفسه؛ فلماذا يشعر ابن طنطا بالغربة في مصر ولا يشعر بها في كاليفورنيا؟ ربما لأن كل الناس غرباء هناك. جاء للتدريس بالجامعة الأمريكية لمدة عام كأستاذ زائر، رغم معارضة أمه وأخته الوحيدة اللتين استقرتا بكاليفورنيا أثناء وجوده هناك، واللتين نصحتاه بالبقاء في أمريكا والبحث عن عمل فيها. أمه باعت كل ما تملك وأخذت أخته الطالبة لمواصلة دراستها هناك

معلنة أن مصر لم تعد تصلح للعيشة. حين ناقشها في ذلك قالت إن من بقي في مصر هو من لم يستطع مغادرتها وأنها تريد إعطاء أخته فرصة للحياة والنمو وتحقيق نفسها بدل من الدفن الذي ينتظرها بمصر. وجد كلماتها قاسية أكثر مما ينبغي، وبعد مناقشات عقيمة قال إنه يحترم اختيارها لكنه يريد العودة واستكشاف فرص الحياة بمصر؛ مجرد سنة، تجربة. ردت بالمثل: هي الأخرى تحترم قراره وتذكره أن البيت مفتوح في كاليفورنيا. هكذا جاء إلى القاهرة، والآن يوشك العام على الانتهاء وهو لا يعرف بعد ماذا سيفعل: هل يحاول البقاء هنا أم يعود لكاليفورنيا ويبحث عن وظيفة هناك. في كل حال فإن لبني الألفي هي الوحيدة التي شعر معها بألفة منذ جاء إلى هذه الجامعة. وعبر السنة التي قضاها في القسم توطدت علاقتهما خلال الاجتماعات واللجان الكثيرة التي شارك فيها. تناولوا قهوة في ساحة الجامعة كثيراً، وغداء خفيفاً أربع مرات. حدثته عن عملها وزملائها وحياتها وحدثها عن مثل هذا، لكنه توقف دائماً عند الحد الفاصل بين الصداقة والإعجاب الخاص. حتى في نظراته لها؛ عند حد معين يحول عينيه عنها وينظر إلى أي شيء آخر؛ شجرة، باب، قطعة، أي شيء، كيلا يضطر للاختيار بين تبني نظرة صديقة محايدة تضعه في خانة الأصدقاء أو نظرة إعجاب خاصة تعرضه للخطر. فروان يخاف ألا يكون غرامه بها متبادلاً. هو في منتصف الثلاثينيات، طويل، وسيم، جذاب يبشرته السمراء ونظرة المكر البريء التي تكسو وجهه، ومهذب الطبع. الطلبة يحبونه، معظم من يلتقي به يحبه، خاصة النساء، لكنه لا يعرف هذا. وكل ما يعتريه حين يفكر

في دعوة لبنى للخروج معه هو أنها سترفضه وحينها يفقدها بالكامل، كحبيبة محتملة وكصديقة مقربة. قصة قديمة معادة، وهو يعرف هذا لكنه يظل خائفاً. وهكذا، كل خميس، يجلس في مكتبه بعد المحاضرة الأخيرة وهو يخطط عطلة نهاية الأسبوع ويحاول استجماع شجاعته ودعوتها للقائه خارج الجامعة على العشاء، وفي النهاية لا يجزؤ.

في هذه الساعة من كل يوم خميس تكون أستاذة الدراسات الثقافية يارا رفي جالسة في مكتبها بالجامعة شبه غائبة عن الوعي. حقيبتها ملقاة أمامها على سطح المكتب، نصف مفتوحة، ومحتوياتها مبعثرة حولها. بجوار الحقيبة تليفونها المحمول وعدة كتب وأوراق مطلوب قراءتها، ثم الكمبيوتر الخاص بالجامعة مغطى بطبقة من الغبار، ثم جهاز التليفون الثابت الذي لم يعد أحد يستخدمه، وبين الحقيبة والكمبيوتر كيس شفاف صغير مفتوح كان يحتوي على الهيروين الذي حقنت به نفسها. تظل جالسة على مقعدها مسترخية، دون حركة، هائمة في رؤاها، فيها نصف مفتوح وعيناها مغلقتان وذراعاها تتدليان بجوارها. يبدو جسمها أكثر ضالة من المعتاد وهي في هذه الحالة، كأنها طفلة يمكن حملها. وجهها أكثر بياضاً من المعتاد، ربما بسبب فقدانه للبريق الذي تكسبه إياه نظرة عينيها المتقدمة. شعرها الأسود زاد خفة، وبعضه متساقط على كتفيها الضيقتين، وذلك رغم القصة القصيرة التي تبنتها منذ بلغت الأربعين للحفاظ على ما تبقى منه. حواجبها الرفيعة وأحمر الشفاه القاني المرسوم بحرص يتنافيان وتعبير الغياب المرسم على وجهها الآن وقطرات

اللعاب التي تسيل من فمها المفتوح إلى ذقنها الدقيقة. تظل هكذا، بلا حراك حتى قرابة السادسة. عندها تفيق شيئاً فشيئاً، وتبدأ في استجماع نفسها وأشياءها كي تبدأ برنامجها لعطلة نهاية الأسبوع.

في هذه الساعة من كل خميس يكون الدكتور تميم نسيبة، رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط، وصل إلى بيته بالمعادي وتناول غداءه ويجلس في شرفة المنزل يحتسي شيئاً بالنعناع أعدته له زوجته. الدكتور نسيبة لا يعطي محاضرات يوم الخميس، ويغادر القسم في حوالي الثانية بحيث يكون في منزله بحلول الثالثة. يأخذ دشاً بارداً، صيفاً أو شتاءً، ويرتدي ملابس مريحة مناسبة للبقاء بالمنزل، ثم يتناول غداءه مع زوجته ويقص عليها ما دار بالجامعة خلال اليوم، ويعقب ذلك جلسة الشاي في الشرفة المطلة على حديقة البيت الصغيرة. في الماضي كان على ولديه المشاركة في هذا الطقس أياً كانت التزاماتهما، لكنهما رحلا من البيت وعادا إلى كندا التي تريا فيها. الدكتور نسيبة في العقد السابع، ويكبر زوجته بحوالي عشرين عاماً لكنه ما زال يحتفظ بجاذبيته القديمة. شعر أبيض خفيف وعيون زرقاء وبشرة ممعنة في البياض مع قامة طويلة انحنت قليلاً مع العمر. طول حياته يسمع تعليقات على لونه الأبيض من زملائه الكنديين، كونه من أصول خليجية ولا يشبه الصورة النمطية للمهاجرين العرب. لا أحد يعرف بالضبط متى غادر الجزيرة العربية ولا في أي ظروف. لكن الأقاويل تشير إلى دوره في تنظيم ثوري قومي عربي ألقى القبض على جميع أعضائه في السبعينيات وأبعدوا

خارج المملكة. هكذا حصل على حق اللجوء في كندا ودرس بها حتى حصل على الدكتوراه. حين جاء إلى مصر للتدريس بالجامعة الأمريكية انفصل عن زوجته الكندية وتزوج بطالبة قابلها في أول فصل درسه؛ تلك التي تعد الشاي عصر كل خميس، ثم تأخذ بيده إلى الفراش حيث ينام قليلاً، قرابة ساعة. بعد ذلك يبدآن معاً برنامج عطلة نهاية الأسبوع.

في هذه الساعة من كل خميس تكون تهاني التلاي، أستاذة التنمية، تتبأ لبء ترتييات العشاء الأسبوعي الذي تنظمه في منزلها لبعض الشخصيات الهامة. تهاني التلاي ولدت في أسيوط، وتحب أن تقول عن نفسها أنها صعيدية، لكن الحقيقة أن أبويها من كفر الشيخ، كانا في أسيوط عام ولادتها بسبب العمل - فالأب كان قائداً لوحدة عسكرية هناك ولحقت به الأم لخدمته. غادرت تهاني أسيوط مع أبويها وهي في الثالثة من عمرها، لكنها تقول إن هذه الأعوام الثلاثة شكلت وجدانها وطبعته «بطابع مصري جنوبي صلب كالجرانيت». درست بجامعة عين شمس، ولم يمكنها مجموعها المتوسط من الحصول على وظيفة معيدة بالجامعة كما كانت تحلم، فعملت مساعدة باحث في عدد من مراكز الدراسات وواصلت دراستها العليا حتى حصلت على الدكتوراه من تشيكوسلوفاكيا. إنشاء قسم للعلوم السياسية بجامعة حلوان هو الذي أتاح لها فرصة تحقيق حلمها القديم والالتحاق بالسلك الجامعي. وظلت تعمل هناك حتى التقت بالدكتور تميم نسيبة في إحدى الندوات وحدثته عن «حلمها القديم بالالتحاق

بالجامعة الأمريكية». لم يكن هذا حقيقياً، فهي لم تفكر قط في العمل بهذه الجامعة، لكنها التفتت ووجدت أمامها فرصة فانتهزتها. ظلت على علاقة بالدكتور نسبية، أو بالأدق ظلت تطارده لعدة سنوات حتى وافق على قيامها بتدريس مادة في القسم. بذلت قصارى جهدها في تدريس هذه المادة، وجندت كل معارفها ومعارف أبيها حتى تمكنت من انتزاع عقد للتدريس بالجامعة لمدة عام، ثم تجديده، وظلت ثابر حتى توجت جهودها بالتثبيت في الجامعة.

الأهم من انتقالها للعمل في الجامعة الأمريكية هو شبكة العلاقات التي أنشأتها خلال سنوات عملها. فقد نجحت تهاني التلالي في بناء شبكة علاقات طيبة بكل من له حيثية في البلد. وهي ترعى شبكة علاقاتها هذه بدأب ومثابرة ودقة يحسدها عليها الجميع، بمكالمات تليفونية ومعايدات ودعوات للعشاء والغداء والرحلات الداخلية والخارجية إلى تنظيم الندوات والمؤتمرات والمشروعات البحثية ودعوة البعض للمشاركة فيها. إن كنت قد تعرفت عليها في أي مناسبة ولو عابرة، فستلقى اتصالاً منها من حين لآخر؛ مرتين في العام إن لم تكن مهماً ومرة كل شهر وربما أكثر إن تزايدت أهميتك لأي سبب. العاملون بمؤسسات الدولة يحتلون أهمية خاصة، سواء كانت هذه المؤسسات سيادية يثير ذكرها الرهبة لدى السامعين أو وزارات وهيئات عادية كالتعليم والري والحكم المحلي. كلهم لهم أهمية خاصة في كتاب تهاني، فدائماً ما يأتي يوم وتحتاج أحدهم في مساعدة أو خدمة أو معلومة؛ كلهم

لهم أدوار مختلفة في دفع مستقبل تهاني التلالي المهني.

لا أحد يعرف على وجه التحديد كيف تحافظ على كل هذه العلاقات؛ يقول خصومها في الجامعة إن لديها تطبيقًا على التليفون تضع فيه بيانات الناس وتعطي كلاً منهم درجة - من نجمة إلى خمس - ويتولى التطبيق جدولة الاتصال بهم. لكن من يعرفون تهاني جيداً يعلمون أنها دأبت على ذلك من قبل اختراع التليفونات المحمولة وربما الحاسب الآلي نفسه. على أية حال، عصر الخميس هو الوقت الذي تعد فيه تهاني عشاءها الأهم، والذي لا يدعى إليه إلا هؤلاء الذين حصلوا على درجة أهمية توازي أربع نجوم على الأقل. وهو ما يأخذ كل تركيزها؛ نوع الطعام، ترتيب البيت، وجود موسيقى من عدمه. وأهم من ذلك كله نوع الملابس التي سترتديها. ليس هذا مهماً فقط باعتبارها امرأة في الخمسين تهتم بالحفاظ على جمال مظهرها، وليس فقط لضرورة اختيار ملابس تقلل من أثر البدانة التي استسلمت لها بعد سنوات من المحاولات المضنية - والفاشلة - لفقدان الوزن. لكن أيضاً للتماهي مع الوسط الذي ينتمي إليه المدعوون: تأبير أو فستان أنيق ومحافظ إن كانوا من مسؤولي الدولة أو مجتمع الأعمال أو الدبلوماسيين الأجانب، فستان أنيق لكن أكثر تحرراً وأقل رسمية إن كانوا من الوسط الفني، وملابس «تقليدية» بكلمة مطرز أو عباءة أو ما شابه ذلك إن كان المدعوون من الكتاب والناشطين والعاملين في المنظمات غير الحكومية. هذا ما تفعله تهاني في ذلك الوقت كل خميس.

في هذه الساعة كل خميس يكون ياسر العرابوي، أستاذ العلوم السياسية الأمريكي - السوري، في منزله القريب من ميدان الجيزة. وضب جدولته بحيث يدرس الاثنين والأربعاء، في حين يخصص يوم الخميس لنشاطه السياسي. عصر الخميس يأتيه عدد من الشباب الذين جندهم لعقد جلسة جديدة من اجتماعات «نادي الفكر النقدي» الذي أنشأه منذ سنوات؛ يناقشون ورقة قدمها أحد الأعضاء حول قضية نثير اهتمامهم أو يرى ياسر أنهم يحتاجون لفهمها. في البداية كان يجتمع بهؤلاء الشباب في مكتبة الجامعة، بل وفكر في إعطاء النادي صفة رسمية كأحد النشاطات الطلابية. لكنه سرعان ما اكتشف اهتمام إدارة أمن الجامعة بهذه الاجتماعات. الحقيقة أنه لم يكتشف شيئاً، بل حذرته سرّاً صديقه السابقة لبنى الألفي. كذلك مكنه عقد هذه الاجتماعات في بيته من دعوة شباب من جامعات أخرى لا يمكنهم دخول حرم الجامعة الأمريكية. ولأن هؤلاء الشباب من الذكور والإناث، ومن أعمار متقاربة، ومعظمهم يصاحب بعضه بعضاً، فإنهم بدوا لبوابي العمارة وكأنهم يأتون للدكتور ياسر في زيارات اجتماعية. وبالطبع فإن البقشيش السخي الذي يغدقه ياسر عليهما قد ساعدهما على ترسيخ هذا الانطباع. لكن حتى لو اكتشفوا حقيقة ما يدور في هذه الجلسات فليس على ياسر غبار. هو لا ينظم هؤلاء الطلبة في أي عمل سياسي، بل لا ينظمهم في أي عمل على الإطلاق. كل ما يفعلونه هو مناقشة بعض النصوص التي يتفقون على قراءتها، مجرد مناقشات لا يتبعها أي عمل. لا

يدعوهم للانخراط في حزب أو جماعة، ولا تنظيم إضراب أو احتجاج، ولا عمل أي شيء. فياسر يؤمن بأن الكلمة هي البدء والمنتهى؛ «لا شيء خارج الخطاب» كما يكرر على مسامع طلبته ومريديه. ومن ثم فإن الصراع اللفظي، الصراع حول تمثيل الأشياء وصورها وتعبيراتها، أهم بكثير من الأشياء «والتي لا وجود لها خارج تعبيرنا عنها» كما يؤكد لمستمعيه دومًا.

الحقيقة أيضًا أن البوابين ليسوا مخطئين تمامًا، فهذه اللقاءات مزيج من النشاط السياسي والاجتماعي؛ على هامشها يناقش ياسر أحد المشاركين في مشكلاته الشخصية، يصلح المتخاصمين أو يخاصم المتصالحين، ومن وقت لآخر يمهّد لإقامة علاقة خاصة مع إحدى المشاركات. ياسر العرباوي ليس زير نساء كما يتهمه خصومه، فهو لا يقيم علاقة أبدًا مع أكثر من امرأة في نفس الوقت، على الأقل رسميًا. هو بالأدق مدمن للحب؛ لا يمكنه الحياة دون امرأة. وفي نفس الوقت لديه خوف مرضي من الارتباط؛ فهما كانت المرأة جميلة أو ذكية أو مثيرة للاهتمام فهو يضجر منها مع الوقت - طال ذلك أو قصر. ومن ثم انتهى به الأمر - سريعًا - إلى تبني نموذج «العاشق المتسلسل»؛ واحدة تلي الأخرى. ولأنه لا يستطيع الحياة دون امرأة، ولو لأسبوع، فإنه لا يترك من يصاحبها حتى تكون أخرى قد ظهرت واستقرت في حياته كمكانية وشيكة التحقق. وهو ما يؤدي إلى مواقف محرّجة في نهاية كل علاقة حيث تدرك المتروكة قريبًا أنه ينصرف عنها بينما ينفي ذلك. ويظل ينصرف عنها

وينفي ذلك حتى تكون المرأة الأخرى جاهزة تمامًا وعندها يصارح الأولى بأن مشاعره تغيرت، ويتركها. وخلال أسبوع يكون قد نام مع الأخرى. تتم هذه العملية بشكل تلقائي إلى درجة أن ياسر نفسه لا يلاحظها. تتم أيضًا بشكل متكرر. الذي يدهش الجميع ليس سلوك العاشق المتسلسل من جانب ياسر العرباوي، بل انجذاب كل هذا العدد من النساء إليه. فظهره لا يوحى بذلك إطلاقًا: يميل للقصر والسمنة، مع كرش واضح وشبه صلح، ولا يحسن اختيار ملابسه، أو حتى يغيرها بما يكفي. باختصار ليس النوع الذي يستوقف النساء عادة. ربما الذي يجذبهن إليه كونه أستاذهن في الجامعة أو نادي الفكر النقدي، ربما لا يترك لهن كثير وقت ليتفكرن في الأمر قبل وقوعه. في كل حال، فإن عصر الخميس يكون هادئًا لدى الدكتور العرباوي، لا يملأه سوى مناقشة فكرية ما أو مسألة شخصية تتعلق ببداية علاقة أو إخراج نهايتها.

في هذه الساعة من كل خميس تكون أحلام سيف مع صديقتها وزميلها معاذ عاكف جالسين في أتوبيس الجامعة المتوجه إلى العجوزة. هي نائمة من الإجهاد، ورأسها مستقر على مسند المقعد يترنخ مع أول مطب ويسقط على كتفه. يجفل معاذ تلقائيًا ويعيد رأسها إلى مسند المقعد، لكنه يعود ويسقط على كتفه من جديد مع المطب التالي. وهو يحاول القراءة رغم شعوره بالحرج واهتزازات الأتوبيس والمطبات والتوقف المفاجئ وغثيان الطريق وإزعاج الصوت العالي للطالب الجالس خلفه والذي لا يكف عن الحديث ولو لإعطاء محدثه فرصة الرد. بعد

حوالي عشرين دقيقة من المحاولات الفاشلة، وشعر أحلام المهوش الذي يرتطم بوجهه، يستسلم معاذ ويغلق الكتاب، ويبدأ في الاستماع لحلقة جديدة من البودكاست المفضل لديه. يستمع ونصف عقله منصرف إلى التفكير في العام القادم، وما إذا كان سيستمر في دراسة الماجستير هنا أم سيحصل على منحة من إحدى المؤسسات التي قدم بها لتمويل دراسته بأمريكا. وماذا سيحدث لتلك النائمة على كتفه عندئذ؟ ينظر إليها: وجهها يبدو أكثر امتلاءً وهي نائمة، وشفتاها أكثر اكتنازاً. صدرها يعلو ويهبط بانتظام ويترجع نهذاها بفعل اهتزاز الأتوبيس وتنفسها. يشعر معاذ بالخرج من جسمها، ويفضل ملابسها الفضفاضة على تلك التي ترسم ملامحه. لكنه لا يقول لها ذلك، يدرك أن هذا قد يجرح مشاعرها. لا يعرف مصدر الخرج، وما إذا كان مرتبطاً بنشأته الدينية المتزمتة أم بعلاقته بجسمه هو نفسه. معاذ لم يكن يوماً شاباً رياضياً بل كان دائماً نحيلًا أقرب للهزال، رغم محاولاته تنمية عضلاته خلال المعسكرات الصيفية التي كان يرسله إليها أبواه. في الجامعة تصالح مع فكرة نخافته، وربى لحيه مذبذبة صغيرة أكسبته طلة متميزة لا تخلو من جاذبية. أحلام تجده جذاباً، تقول ذلك عادة، وأخريات أكبر منه سنًا بمن فيهم بعض الأساتذة. ولسبب ما فإن إطراء النساء الأكبر يسعده بشكل خاص.

أحلام ليست نائمة تمامًا، بل تروح وتجيء بين النوم واليقظة. هي لا تحب الأتوبيس؛ اهتزازاته تقلب معدتها، وتفضل قيادة سيارتها الصغيرة رغم إعطائها المتكررة.

لكن معاذ لا يحب الركوب إلى جوارها؛ يتحجج بأعطال سيارتها لكنها تعرف أن هناك شيئاً يضايقه في كون السيارة ملكها هي وكونه لا يملك سيارة. وهي تحب قربها، والجلوس معه لساعة ونصف كل يوم في هذا الأتوبيس المترنخ أقرب ما تحصل عليه من قرب. تستغرب صديقاتها من انجذابها لهذا الشاب النحيل المتدين الذي يهتم بالكتب أكثر مما يهتم بالناس والحياة. لكنهن لا يفهمن، هن الآتيات من البيوت المستقرة في أحياء الطبقة المتوسطة العليا في القاهرة وعواصم الخليج، لا يفهمن مدى جاذبية صلابة معاذ الداخلية وإيمانه العميق بالقضايا التي يدافع عنها. ربما لو كن قد أتين من مخيم مثلها، ربما لو كان أبوهن فلسطينياً وأمن لبنانية ونشأن بلا حقوق في البلد الذي يعشن فيه، وبلا بلد يعدن إليه، ربما فهمن. لكن معاذ يريد السفر، العام القادم، وإلى أمريكا! طبعاً هي لا تريد ذلك، لا لنفسها ولا له. تريد البقاء هنا أو العودة إلى لبنان والنضال ضد كل هذا الظلم المحيط. هناك مليون طريقة لفعل ذلك، والفعل دائماً أفضل من الكلام. هذا كلام معاذ نفسه، هذا ما جذبها إليه في المقام الأول، ولهذا فهي لا تفهم لماذا يريد الآن تأجيل الفعل وقضاء سنوات إضافية في دراسة الكلام، وفي أمريكا دون كل البلاد! كيف تقنعه بتغيير الخطط، أو كيف تجبره على ذلك. هذا هو السؤال الذي لا يغيب عن رأسها. يرتطم رأس أحلام مرة أخرى بخد معاذ فيعيد تفكيره إلى أحلام وما سيفعله بشأنها إن سافر في العام القادم، ثم يطرد الفكرة من رأسه بحجة التركيز مع البودكاست، ويواصل الحلم بالسفر.

في هذه الساعة من كل خميس يكون إبراهيم ناجي جالساً في موقعه المعتاد المعروف باسم «الخن»، وقد جهز كل «التذاكر» التي طلبها منه زبائنه، مع تذكرتين أو ثلاث إضافية من باب الاحتياط. فإبراهيم الذي لا يؤمن بالتخطيط ولا النظام ولا المواعيد يلتزم بطلبات زبائنه التزاماً حديدياً، ربما يكون هذا التزامه الرئيسي في الحياة - إضافة لالتزامه بالألا يغضب المصدر الذي يمدّه بكل هذه المخدرات بجودة مرتفعة وأسعار معقولة وأمان تام. وهو التزام تملّيه ضرورات الحياة، فصحيح أن إبراهيم مُعفى من مصروفات الجامعة - حيث كانت أمه موظفة بالمكتبة على مدى عقود، وبفضل صلاتها بإدارة الجامعة أمنت له إعفاءً من المصروفات تجددته كل عام بعد تقاعدها. لكنه في نفس الوقت يعتمد على دخله من هذه التجارة للوفاء باحتياجاته الأخرى. فمعاش الأم ضئيل ولا يمكنه تمويل إجازاته بالساحل والجونة والسخنة، أو تجديد سيارته كل ثلاث سنوات، أو تمويل الحفلات التي يقيمها لأصدقائه، وغير ذلك من متطلبات حياته النشطة. إبراهيم فراشة اجتماعية، لا يستمتع بأي شيء وحده. ومن ثم يلتصق دوماً بأصحاب، ذكور وإناث وعابرين للجنس ومتنوعين وغيرهم ممن يستفيدون من كرمه ويشاطرونه الأوقات اللطيفة. ربما لهذا لا تستمر علاقات إبراهيم طويلاً، فلا أحد يستطيع تحمل الوجود المستمر لكل هذا العدد من «المقربين». بعد فترة قصيرة يتضح لمن يصاحبه ألا فرق بين العلاقة الحميمة وغير الحميمة، فكل أصحاب ناجي حميمون بشكل ما، وكلهم غير حميمين بشكل آخر.

وهكذا تذوي علاقاته الحميمة دون أن تنتهي؛ تنصهر في شبكة واسعة من الصداقات التي ليست باهتة تماماً لكنها ليست مقربة أيضاً، مثل حياته كلها. هذه الشبكة هي التي جعلت أغلبية من الطلبة تنتخبه عضواً في الاتحاد. لكن هذه الفراشة الاجتماعية تتحول - في ساعات «العمل» - إلى شبه آلة حديدية، لا مجال فيها للعواطف أو الفوضى أو الخلط. حتى شكله يختلف: شارب القصير المضحك وذقنه نصف الحليقة وجسمه الممتلئ يتحول إلى هيئة أكثر تماسكاً وانتصاباً، وتيقظ عيناه وتنتقلان بسرعة من مدخل الخن إلى ساحة الجامعة - ليس هذا هو إبراهيم ناجي المتكئ على أريكة شبه غائب عن الوعي الذي تلقاه في المساء. جلسة الخن هذه مخصصة لزيائته من الطلبة، وتستمر حتى السادسة والنصف بالضبط، والدفع فيها نقداً. بعدها مباشرة يأخذ أتوبيس الجامعة لتوصيل طلبات الأساتذة والعاملين بإدارة الجامعة الذين يفضلون تلقيها في بيوتهم لا في مكاتبهم.

في هذه الساعة من كل خميس تكون لبني الألفي جالسة في مكتبها أمام الكمبيوتر ترد على الإيميلات التي تراكت منذ الصباح. فمذ التحقت بمكتب رئيسة الجامعة الجديدة، روبرتا هوارد، وهي ملتزمة بالرد على جميع الرسائل في نهاية اليوم؛ تأجيلها لليوم التالي يزيد حجم المشكلة ويغضب الأساتذة والعاملين، والرد قبل نهاية اليوم يؤدي إلى مزيد من الردود، وبالتالي يزيد العبء. الرد بين الخامسة والسادسة والنصف هو الحل الأمثل، بعدها تكون الطرق أقل ازدحاماً وبالتالي تصل إلى منزلها في

الزمالك في نصف الوقت الذي كانت ستفقه لو غادرت في الخامسة. من ناحية أخرى، فإن بقاءها في المكتب هذه المدة يتيح لها تواصلًا أفضل مع رئيسة الجامعة دون المقاطعات التي لا تنتهي خلال ساعات العمل. روبرتا التي لا تغادر قبل الساعة تقدر تفاني لبنى والتزامها، وهو تقدير ساهم في جعلها المستشارة غير الرسمية - والأكثر قربًا - لرئيسة الجامعة. فلبني ليست مجرد مساعدة إدارية، بل هي خريجة متفوقة من قسم دراسات الشرق الأوسط. وحصلت بعد ذلك على ماجستير في دراسات التنمية من جامعة هارفارد. ومن ثم استغربت روبرتا أن تجدها تعمل مساعدة إدارية. وبالإضافة إلى ذكائها ومعرفتها بدهاليز الجامعة، فإن هذه المؤهلات جعلت هذه الفتاة ذات الملامح الرقيقة والطباع الهادئة والصوت المنخفض مستشارة مثالية لرئيسة قوية الشخصية وحاسمة ولا تعرف الكثير عن الجامعة أو مصر أو المنطقة كلها. لم تعينها مستشارة رسميًا تجنبًا لإثارة الأحقاد - بناء على نصيحة لبنى نفسها، لكنها أصبحت تلعب هذا الدور بلا منازع. تسألها روبرتا أحيانًا عن طموحها المهني لكن لبنى لا تعرف، حقيقة لا تعرف، لا طموحها المهني ولا الشخصي. في الوقت الحالي هي تعيش من يوم ليوم، من أسبوع لأسبوع. وهذه الساعة ونصف التي تقضيها في المكتب بعد الخامسة ثم قليل مقابل تقدير روبرتا وما يضمنه لها من حماية. هذا هو أكثر ما يهمها في هذه الوظيفة - إضافة إلى المرتب. وهو أكثر ما افتقدته خلال السنوات الماضية حين عجزت القواعد واللوائح والنظم الخاصة بالجامعة عن حمايتها من اقتراس الآخرين لها. هذه

العلاقة الشخصية بروبرتاً هي التي أنقذتها من براثنهم، ومن ثم يسعدنا البقاء في المكتب في هذه الساعة وفي أي ساعة. ثم ماذا ستفعل إن ذهبت إلى البيت مبكرة؟

إذن في هذه الساعة من كل خميس يكون قسم دراسات الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية هادئاً تماماً. لكن ليس هذا الأسبوع. فالיום لم يذهب أحد من هؤلاء إلى مكانه المعتاد، بل تجمعوا عند مكتب نايلة أبو ذكري - المديرة الإدارية للقسم - لتسلم مفاتيح غرفهم بمساكن الجامعة والتي يفترض أن يقضوا بها عطلة نهاية الأسبوع. فلديهم اجتماعهم السنوي الذي يمتد ليومين - «انتجاع» كما يصر د. ياسر على تسميته ترجمة لمصطلح retreat: «من فعل نجع وانتجع». هذا «الانتجاع» السنوي يجمع كل أعضاء هيئة التدريس بالقسم إضافة إلى إبراهيم ناجي وأحلام سيف ممثلين عن اتحاد الطلبة، ومعاذ عاكف ممثلاً لطلبة الدراسات العليا. وهذا العام، على غير العادة، ستشارك رئيسة الجامعة شخصياً في جلساته.

عادة ما يكون «الانتجاع» مناسبة ممتدة للكلام الفارغ، يهرب منها الجميع لكنهم مضطرون لها بحكم قواعد الإدارة الحديثة. فنظرياً يفترض أن يوفر لهم الفرصة لمناقشة معمقة للمسائل التي لا تتسع اجتماعات القسم الدورية لمناقشتها، مثل أولويات القسم وهوية البرامج التي يقدمها ورسالته وعلاقتها برسالة الجامعة ككل، وما يتفرع عن ذلك من قضايا عملية مثل تعيين الأساتذة والمنح المقدمة للطلبة ومعايير القبول بها. قد تبدو هذه المسائل غير ذات

أهمية لغير الجامعيين، لكنها العناصر الأساسية التي تشكل حياة أعضاء هيئة التدريس، ولذا تحتدم حولها الآراء والصراعات. فلا يتفق اثنان من أعضاء هيئة التدريس على إجابة واحدة لأي من هذه الأسئلة، وحين تبدأ المناقشات تتحول بسرعة إلى مونولوجات يستمع خلالها الباقيون بأدب ونفاد صبر يسيطرون عليه بالكاد حتى يأتي دورهم ليبدأوا مونولوجاتهم التي يستمع لها الآخرون بأدب ونفاد صبر وهكذا حتى ينتهي الوقت المخصص للنقاش. عندها يضع رئيس القسم الأمر للتصويت، ويقر ما كان يزعم تنفيذه من البداية، عادة بالتعاون مع حليفته يارا رفيقي وتهاني التلاي (الطالبة والمديرة الإدارية ليس لهم حق التصويت). ومع الوقت، يفهم الجميع قواعد اللعبة ويدركون أن الاجتماع كله لا فائدة منه سوى تمرير القرارات المتفق عليها مسبقاً بين تميم وحلفائه. ومن ثم يسعون إلى اختصاره لأقصر وقت ممكن، أو تفاديه برمته.

هذه هي العادة، لكن الوضع هذه المرة مختلف. فالقسم على وشك الانفجار؛ وهذا «الانتجاع» هو الساحة التي يفترض حدوث ذلك فيها.

* * *

السبب في ذلك الانفجار الوشيك يعود إلى التغييرات التي تسعى الرئيسة الجديدة للجامعة لإدخالها، هذا ما يراه البعض على أية حال. آخرون يرون أن السبب هو تميم نسيبة وسنوات طويلة من إدارة القسم وكأنه عزبة أهله.

آخرون يرون أن السبب لا هذا ولا ذاك، وأن كليهما عرض لمشكلة أكبر تعاني منها الجامعة ككل منذ سنوات وتفجرت الآن لأسباب لا علاقة لها بالأشخاص المعنيين. وسواء كان هذا أو ذاك، فإن تعيين روبرتا كان الشرارة التي أشعلت الصراع الذي قاد إلى هذا الخميس المشؤم.

فند الإعلان عن اختيار روبرتا هوارد رئيسة جديدة للجامعة وأعضاء هيئة التدريس في حالة صدمة. فروبرتا ليست أستاذة جامعية - بل لم تدرس في حياتها بعد حصولها على بكالوريوس الفيزياء وهي في العشرين، ولا خبرة لها أو معرفة بمصر أو المنطقة العربية برمتها. حياتها المهنية تتراوح بين العمل كسفيرة في دول غير ذات أهمية في آسيا وأمريكا اللاتينية وعضوية مجالس إدارة شركات كبرى. لا أحد يعرف على وجه التحديد كنه خبرتها ومهاراتها التي تؤهلها لرئاسة جامعة. لكن يبدو أن علاقاتها بأوساط الدبلوماسية والأعمال في واشنطن هي التي دفعت مجلس إدارة الجامعة لاختيارها لهذا المنصب المرموق. بدا مجلس الإدارة سعيداً بهذا الاختيار، وقال رئيسه في الاحتفال المهيّب الذي نظمه بهذه المناسبة أن روبرتا هوارد تتمتع باتصالات واسعة عبر العالم، خاصة في آسيا الصاعدة وأمريكا اللاتينية الواعدة، وهي مناطق لم تهتم بها الجامعة من قبل، وبالتالي فإن قيادة السيدة هوارد للجامعة ستفتح أمامها آفاقاً جديدة للتعليم والتوسع. لم ير أعضاء هيئة التدريس في هذا الكلام ما يستوجب الاحتفاء، بل على العكس. أومأوا برؤوسهم خلال كلمة رئيس مجلس الإدارة، ثم صفقوا بفتور بعد كلمة رئيسة الجامعة الجديدة

وعادوا إلى مكاتبهم وهم يتبادلون النظرات المستنكرة. وخلال الأسابيع التالية تتوقع الجميع في مراكزهم تحسباً لما ستفعله هذه الرئيسة التي لا تفهم لا في الشؤون الجامعية ولا في شؤون المنطقة العربية، والتي يبدو أن جهلها المزدوج هذا قد أهلها لقيادة الجامعة الأمريكية الأكبر بها!

لم تخيب روبرتا ظن منتقديها، وبسرعة. في أول اجتماع لها مع العمداء ورؤساء الأقسام قالت إن لديها ثلاث أولويات: رفع جودة التعليم، تحديث إدارة الجامعة، والاهتمام بالتنوع الثقافي. لم يلفت هذا الكلام نظر أحد في البداية، لكنها حين دخلت في التفاصيل تكهرب الجو بسرعة. فقد اتضح أن رفع جودة التعليم ليس مجرد تكرار للكلام الذي قاله كل رئيس جامعة قبلها، بل يشير إلى تغييرات محددة في طريقة التعليم. مثلاً أشارت إلى ضرورة وضع معايير موحدة لكيفية التدريس بالجامعة، وما يتضمنه كل كورس، ولقياس استيعاب الطلبة وتقييم أدائهم وفقاً لمؤشرات موضوعية واضحة يمكن قياسها ومراجعتها بحيث لا يعتمد التقييم على انطباعات الأساتذة وتفضيلاتهم. كما أشارت إلى ضرورة وضع الطلبة في محور اهتمام الجامعة، سواء بإرشادهم في اختياراتهم الدراسية أو بمرافقتهم خلال العملية التعليمية وخلق آليات لتحديد الصعوبات التي يواجهونها في كل مادة وتوفير وسائل لمساعدتهم في التغلب عليها. انزعج الأساتذة بشدة لأن هذا يعني تدخل إدارة الجامعة في عملهم بشكل مباشر، وتقليص سلطاتهم إزاء الطلبة. لم تتوقف روبرتا عند هذا،

بل أعلنت نيتها تدعيم «مركز مهارات التدريس» التابع للجامعة وتنظيم دورات تدريبية إجبارية لجميع الأساتذة بغض النظر عن خبرتهم السابقة بالتدريس. عند هذا الحد أصبح انزعاج الحاضرين مسموعاً في القاعة، لكن روبرتا مضت قدماً دون اهتمام بردود الفعل.

تطرقت إلى التنوع الثقافي مشيرة إلى غنى الميراث الثقافي الذي تمثله الجامعة بتركيبتها الفريدة بين عناصر الثقافة الغربية والمصرية والعربية والإسلامية. وأعربت عن عزمها دفع هذا التنوع والاهتمام بحمايته وإغنائه بل ووضع الثقافة المصرية العربية الإسلامية في موضع الصدارة. حتى هنا لم يهتم أحد أو حتى يسمع ما تقول. لكن اهتمام الحاضرين زاد حين تطرقت إلى التفاصيل. بدأت بضرورة نفي الصورة التقليدية للجامعة الأمريكية كأداة لفرض الهيمنة الثقافية الغربية، ثم أردفت بالتأكيد على إدراكها لكون أسس الثقافة الغربية - العقلانية والفردية والانعقاد الإنساني - تختلف عن أسس الثقافة العربية، وأن محاولة فرض هذه الأسس على الشباب المصري والعربي بالجامعة هو محور غربي حول الذات ونوع من الاستشراق البغيض يبلغ مرتبة الاستعمار الثقافي. ومن ثم ضرورة إعادة النظر في مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانيات بالجامعة بحيث تعكس الرؤى العربية الإسلامية للقضايا الرئيسية، مثل الحرية وحقوق الإنسان والمرأة وعلاقة الدين بالسلطات العامة والديمقراطية والعلاقات الدولية، جنباً إلى جنب مع الرؤى الغربية. مرة أخرى، سرت في القاعة حالة من البلبلة الممزوجة بالصدمة، وبدأ الجميع ينصت باهتمام أكبر

بعدها تطرقت لأولويتها الثالثة، تحديث الإدارة، وهو مثل رفع جودة التعليم، والتنوع الثقافي عادة ما يمر في أحاديث رؤساء الجامعة الجدد دون أن يثير شيئاً لدى السامعين سوى الملل. أما الآن فقد فهم الجميع أن ما تقوله روبرتا هوارد مختلف. قالت إنها تنوي تسوية أوضاع العاملين بالجامعة لضمان المساواة والشفافية، وحين ران صمت على القاعة أضافت أن ذلك يعني أمرين: توحيد الأجور بين شاغلي الوظائف المتشابهة بحيث يتقاضى كل الأساتذة الذين يدرّسون في نفس المجال ولديهم سنوات خبرة متساوية نفس الأجر، وهو ما سيعني رفع رواتب البعض وخفض رواتب آخرين، وذلك بغض النظر عن العقود السارية. الأمر الثاني هو تحديد مدة رئاسة الأقسام وعمادة الكليات بخمس سنوات بحيث لا يتولى أي شخص مثل هذا المنصب لأكثر من فترتين خلال مدة عمله بالجامعة. كان هذا انقلاباً، لا أقل. لو كانت روبرتا هوارد قد ألفت بقبلة غاز في القاعة لما اختلف الأثر كثيراً.

أول من تحدث كان د. عبد الرحمن صدقي، القائم بأعمال عميد العمداء - البروفوست كما يسمون وظيفته بالإنجليزية. رحب برئيسة الجامعة وشكرها على اهتمامها بمشاركة خططها و«أحلامها» مع ممثلي هيئة التدريس، وأثنى على الأهداف النبيلة التي حددتها في كلمتها، مؤكداً على ضرورة تعاون الجميع من أجل وضعها موضع التنفيذ. ثم صمت. المتحدث التالي أضاف أن هذا التعاون

بدوره يتطلب الحوار بين الجميع بحيث تجد كل الأطراف لنفسها مصلحة في تحقيق هذه الإصلاحات، مؤكداً أنه بدون ذلك فإن بيروقراطية الجامعة قادرة على إفشال أي مشروعات للتغيير. المتحدث الثالث ذكر رئيسة الجامعة بأن ترجمة أي أهداف لقرارات يتم من خلال لجان وهيئات الجامعة بحيث تأتي معبرة عن رؤية هيئة التدريس ككل. ولم يفت على المتحدث الرابع التأكيد على طول المدى الزمني المطلوب لتنفيذ هذه الأهداف، وحثية تدرجها أخذاً في الاعتبار الأوضاع التعاقدية والقانونية السائدة واللوائح السارية واستحالة تغيير كل هذا دون الدخول في متاهات قد تفوق مثالبها فوائد الإصلاح نفسه. وهكذا تحدث عمداء الكليات الواحد تلو الآخر، فأعادوا صياغة مقترحات روبرتا هوارد بهدف إفراغها من مضمونها. ظلت هي جالسة تبسم وتكتب ملاحظات أثناء مداخلاتهم حتى انتهوا ثم أخذت الكلمة مرة أخرى وأعادت التأكيد على مضمون ما قالته، واصفة إياها بالقرارات لا المقترحات، وموضحة أنها كلها قرارات ذات طابع استثنائي ولن تخضع للمشاورات الجامعية المعتادة أو تدخل في أنفاق اللجان القادرة على قتل أي فكرة، مضيفة أنها سترسل لهم هذه القرارات بعد صياغتها في الشكل القانوني السليم بالتعاون مع الشؤون القانونية والمالية والموارد البشرية، مصحوبة بالجدول الزمني للتنفيذ. صمتت، وران على القاعة صمت شامل هذه المرة.

هنا، وعلى غير عادته في مثل هذه الاجتماعات، طلب تيم نسيبة الكلمة. قال - بإنجليزته السليمة المشوبة بلكنة

خليجية - إن لديه ثلاثة تعليقات. الأول أن هناك تناقضاً بين الأهداف الثلاثة التي ذكرتها السيدة هوارد: فاحترام التنوع الثقافي يعني أيضاً قبول الثقافة الخاصة بالجامعة بما في ذلك تقاليدھا الإدارية والتعليمية، وهي أمور تستند لكون الجامعة مؤسسة تعليمية لا شركة أو سفارة. الجامعة، كما ستكتشف السيدة هوارد، تدار من قبل لجان تضم الأساتذة والطلبة، لا من قبل رئيس الجامعة، لأن الأستاذ هو محور الحياة الجامعية الرئيسي، لا الإداري. الرغبة في فرض نظم إدارة الشركات أو وزارات الخارجية على الجامعة وتجاهل تقاليدھا ونظمھا وثقافتھا المزدوجة كجامعة دولية ومصرية معاً لا يستوي إطلاقاً مع احترام التنوع الثقافي. صمت لحظة ليتأكد من وقع كلامه على السامعين ثم استكمل. ثانياً أن التغييرات الإدارية التي تحدث عنها السيدة هوارد تتعارض والتزامات الجامعة القانونية إزاء أعضاء هيئة التدريس، وهو ما يعرض الجامعة للملاحقة القانونية في مصر وفي الخارج. مرة أخرى صمت لتكبير الأثر الدرامي ونظر إلى زملائه قبل أن يستأنف. ثالثاً وأخيراً فإن كل هذه التغييرات وما سيتولد عنها من صراعات سيضر بالمناخ التعليمي وبسمعة الجامعة في مصر والمنطقة، وهي أمور لا غنى عنها لاستقرار الجامعة، ففي نهاية المطاف هذه جامعة ضيفة على الحكومة والشعب المصري، وتسعى إلى اجتذاب الطلبة العرب، وبالتالي لا تستطيع مواصلة عملھا بنجاح إن تدهورت صورتھا لديھما. وكل الحاضرين في هذا الاجتماع، بل كل العاملين بالجامعة، لديهم صلات قوية في مصر والمنطقة. صمت تيمم لحظة ثم ختم قائلاً إنه لهذه الأسباب الثلاثة

يدعو السيدة هوارد لمراجعة نفسها كي لا تفتح على نفسها وعلى الجامعة باباً لا تستطيع إغلاقه. عقت روبرتا، وهي تواصل الابتسام، بأنها تأخذ علماً بهذه التعليقات لكنها تختلف جذرياً معها ومع الفكر الذي يكمن وراءها.

وهكذا بدأت الحرب الباردة بين روبرتا هوارد، مدعومة بتأييد مجلس الإدارة وكبار المديرين ومن اختار الانحياز إلى مشروعها من العمداء ورؤساء الأقسام وأعضاء هيئة التدريس وبعض الطلبة، وبين هؤلاء الذين صمموا على المقاومة، وبين الجانبين د. عبد الرحمن صدي الذي يحاول حفظ التوازن بين الجميع والحيلولة دون انفجار الجامعة - وأيضاً تحويل وظيفته من قائم بأعمال البروفوست إلى بروفوست كامل الصلاحية. دارت الحرب على جميع الجبهات، داخل مجالس الجامعة ولجانها وهيئاتها كما في وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام، وبالطبع في الاتصالات الخاصة داخل وخارج الجامعة. وبدأت مجموعات من الأساتذة والعاملين في التشاور مع محامين لملاحقة إدارة الجامعة قضائياً.

ثم وصلت الحرب الباردة إلى قسم دراسات الشرق الأوسط صباح هذا الخميس المشؤم. ففي التاسعة، أرسلت رئيسة الجامعة قراراً بإعفاء تميم نسيبة من رئاسة القسم، ودعت أعضاء هيئة التدريس به لاختيار رئيس جديد قادر على إدخال الإصلاحات المطلوبة. فهم تميم أن روبرتا أرادت حصاره في هذا الوقت الضيق بحيث يكون «الانتجاع» - الذي يلتئم في السادسة مساءً نفس هذا اليوم

- مناسبة الإطاحة به وثبتت من يخلفه فقرر التصرف بسرعة. كان تميم مصدوماً مما اعتبره حماقة روبرتا. فلم يتوقع أن تصل رغبتها في المواجهة إلى هذا الحد. خلال الأسابيع الماضية كان حريصاً كل الحرص على احترام الحدود التقليدية للحرب الباردة بين إدارة الجامعة وأعضاء هيئة التدريس. نعم يحاربان بعضهما البعض لكن وفق قواعد متعارف عليها. فكلالهما يحتاج الآخر؛ تميم لا يمكنه إدارة القسم دون تعاون رئيسة الجامعة وهي الأخرى لا تستطيع السيطرة على الجامعة دون تعاون رؤساء الأقسام. داخل هذا الإطار هناك الكثير من الشد والجذب؛ لا يتوقع تميم أن تستجيب لكل طلباته ولا يجب عليها توقع استجابته لكل طلباتها. بل إنه لا يستطيع الاستجابة لكل طلباتها حتى لو أراد وإلا فقد مصداقيته أمام أعضاء القسم، مدرسين وموظفين وطلبة. تميم يحفظ هذه اللعبة عن ظهر قلب، بل ويتقنها. هكذا استطاع ترويض رؤساء الجامعة الذين سبقوها وهكذا استقر الأمر له في رئاسة القسم طيلة هذه السنوات. والآن تأتي هذه الحقا بهذا التصرف الأرعن!

هو لا يريد المواجهة، فقد علمته خبرته الطويلة أن كل المواجهات خاسرة. القابض على السلطة له اليد العليا في أول المطاف وآخره؛ قد تضعف سيطرته تحت الضغط، وقد يبدي بعض التراجع، لكن لديه من وسائل القوة ما يمكنه من الانتصار في نهاية الأمر. تعلم هذا الدرس قديماً، حين اضطر إلى مغادرة المدينة التي تربى فيها وأحبها والاستقرار في بلاد باردة لا يعرف فيها أحداً. وتعلمه

مراراً وتكراراً بعد ذلك في كل مواجهة مع المسكين بزمam السلطة. لا يعني هذا الخضوع، فهو عادة ما ينضم لكل من ينازع السلطة سيطرتها، لكنه يعني الحرص في إدارة الصراع مع المسكين بالسلطة. تتم ينضم للمحتجين، أي محتجين، لكنه يبقى الصراع داخل المنطقة التي يستطيع السيطرة عليها، ويظل يتحين الفرصة لعقد صفقة مربحة له. لا يشاطره المحتجون هذه الحكمة دائماً، بل غالباً ما يصرون على دفع الصراع حتى حده الأقصى ورفض أي مساومة. لكنهم أحرار فيما يفعلون. هو يتصارع لتحسين موقفه، لا لإثبات موقف. الموقف يكفي لإثباته كلمة، لا يحتاج لأعمال انتحارية. أدار تتم حربه مع روبرتا وفقاً لهذه الحكمة، لكنها اليوم تدفع الأمور خارج السياق، إلى منطقة لا يسيطر عليها أحد. حتى هي لن تستطيع السيطرة على مجريات الأمور بعد ذلك؛ فدفعها للحرب إلى هذا الحد سيدفعه بالضرورة للرد بحدة مماثلة لا يمكنها معها الانتصار، وهو ما سيدفعها للرد بالمثل، وهكذا. في النهاية لن ينتصر أحد، وهذه هي الحماقة بعينها.

اتصل بها تليفونياً في محاولة أخيرة لإفهامها أن دفع الأمور إلى هذه الدرجة لن يفيد لكنها لم ترد على اتصاله، بل أرسلت له رسالة شفوية عن طريق مساعدتها لبنى تعتذر عن تلقي الاتصال لانشغالها وتقول إنها ستراه في «الانتجاع». قال لها تتم إن هناك أمراً هاماً ينبغي حسمه قبل «الانتجاع» لتفادي أزمة لا داعي لها، فردت لبنى بهتذيب السكرتيرات المحايد أنها ستعاود المحاولة، ثم اتصلت به بعد ربع ساعة لتكرر مضمون ما قالته روبرتا من قبل.

هي الحرب إذن، قال لنفسه ذلك وهو يفكر في خطة سريعة للتحرك. تميم واثق من صلابة موقفه بالقسم. فهو أقدم أعضاء هيئة التدريس به، بل إنه هو الذي عين أو شارك في تعيين بقية الأساتذة وأشرف على ترقيةاتهم عبر السنوات بما جعله في مرتبة أستاذهم جميعاً. وهو الذي شكل ملاح القسم وحياته عبر أكثر من عشرين عاماً تولى خلالها رئاسته، ويعاد انتخابه كل مرة تُذكر فيها نايلة أبو ذكري - المديرية الإدارية - انتهاء مدة رئاسته وضرورة تنظيم انتخابات جديدة. والأهم من ذلك كله أنه يقف في جانب التقاليد الجامعية الراسخة التي ترفض تدخلات الإدارة في الشؤون التعليمية وتضع استقلال هيئة التدريس فوق أي اعتبار. فلا أحد سيقبل بقيام رئيسة الجامعة بعزل رئيس قسم، أيّاً كان، لأن ذلك يرسي سابقة تصيب استقلال جميع الأقسام في مقتل. وبالتالي فحتى لو كان هناك في القسم من يريد تغييره، فلن يوافق على قيام روبرتا بفرض هذا التغيير، وإلا عرض هذا الشخص نفسه للتغيير فيما بعد بنفس الطريقة.

ومن ثم دعا أعضاء القسم إلى اجتماع عاجل عند الظهيرة لتنظيم المقاومة الجماعية ضد هذا التدخل السافر. المدعوون هم المجموعة الأساسية في القسم: الأساتذتان المثبتان - يارا رفقي وتهاني التلاي، والأستاذ المعين الذي ينتظر التثبيت منذ سنوات - ياسر العرباوي، والأستاذ الزائر مروان المفتي، وممثلو اتحاد الطلبة. بقية من يدرّسون بالقسم غير مثبتين، بل غير معينين بالجامعة من أصله؛ يأتون لتدريس مادة ويرحلون، وبالتالي لا صوت لهم في

إدارة شئون القسم. ولهذا توسع تميم في الاعتماد عليهم في التدريس بدلاً من زيادة عدد الأساتذة المعينين. كما حرص أيضاً على إقصاء المدرسين من غير ذوي الأصل العربي بدعوى أنهم لا يفهمون المنطقة العربية جيداً؛ «استشراقون أو جهلة أو الاثنان معاً». لكن خصومه يقولون إنه يخاف منهم؛ من معرفتهم الأعمق بالعلوم الاجتماعية ومن قوة اتصالاتهم التي تجعلهم يستعصون على الانقياد. مروان في موقف فريد، فقد دُعي إلى التدريس بالقسم رغم أنف تميم الذي حاول استبعاده. الذي حدث أن روبرتا هوارد - التي كانت على وشك تولي منصب رئيسة الجامعة - قابلت مروان بالصدفة في مؤتمر أكاديمي في واشنطن شارك فيه بحث مشتق من رسالته للدكتوراه. أعجبت روبرتا بالباحث الشاب وبعمله الذي قدمه، ولما سألت عنه أساتذته قالوا جميعاً أشياء مشجعة عن قدراته البحثية وخبرته كمدرس مساعد، فعرضت عليه روبرتا المجيء إلى الجامعة بالقاهرة لمدة عام على سبيل التجربة، ووافق هو على الفور. تميم لم يعجبه هذا وحاول منع مروان من المجيء، لكنه في النهاية رضى كيلا يدخل في مواجهة مع رئيسة الجامعة الجديدة. بقية الأساتذة - أي هؤلاء الذين أبقاهم تميم بالقسم - كلهم من أصول عربية. ومع إتقان الجميع للغة العربية فإن الاجتماعات تدور بالإنجليزية باعتبارها لغة الجامعة. تظهر اللغة العربية - العامية المصرية أو مزيج منها ومن اللهجات العربية الأخرى - فقط في الأحاديث الجانبية، أو في قفشات ساخرة، أما الباقي فيدور باللغة الرسمية للجامعة.

حضر الجميع، وبدأ تميم الاجتماع بشرح ملابسات القرار الذي أرسلته روبرتا وتفاصيل ما دار في اجتماعها الأول برؤساء الأقسام والعمداء ثم ملخص الحرب الباردة التي تدور في الجامعة منذ ذلك الوقت. بعد ذلك اقترح قيام القسم بإرسال مذكرة لرئيسة الجامعة تحمل تجديداً للثقة فيه رئيساً للقسم ورفضاً لتدخل إدارة الجامعة في شئونه، بحيث يبدأ «الانتجاع» في المساء وهو رئيس للقسم ويتم تجديد انتخابه ثم اتخاذ القرارات الخاصة بالقسم كما هو مخطط ودون تدخل من روبرتا. وطلب من ممثلي الطلبة الحاضرين التشاور مع زملائهم في الاتحاد لإرسال مذكرة مماثلة، ونشر الرسالتين في جريدة الجامعة، لخلق رأي عام مؤيد. لكن تميم كان مخطئاً في حساباته.

فالحقيقة أن التغييرات التي اقترحتها روبرتا لاقت تأييداً من جانب بعض زملائه. وأول هؤلاء كانت تهاني التلاي التي أعربت عن اعتقادها بأن مشروعات رئيسة الجامعة تشكل فرصة للقسم، وكيف أن اهتمامها بدعم رؤى منبثقة من الثقافة المصرية والعربية هو بالضبط ما تعمل عليه منذ سنوات وتحاول لفت النظر إليه لكن إدارة الجامعة القديمة، بنظرتها التقليدية، بل والاستعمارية البيضاء، كانت غير قادرة على فهم ما تقول:

- هذه فرصة، ولا يجب تضييعها بسبب شكليات.

ثم أضافت أن عملها المتعلق بقضايا التنمية سيستفيد من اهتمام روبرتا بالتنوع الثقافي حيث يمكنه المساعدة

في إعطاء المصريين والعرب صوتاً أقوى ومساحة أكبر في دراسة التنمية وفهم متطلباتها. قالت تهاني هذا لكنها حرصت في نفس الوقت على النظر لتيم أثناء حديثها والتأكيد على ضرورة حماية استقلال القسم، سائلة إياه عما إذا كان هناك حل ثالث يتفادى كلاً من الصدام مع رئيسة الجامعة والإذعان لها.

ياسر العرباوي، الذي يحتل موقع المعارضة الأبدية في هذه الاجتماعات، قال إن المشكلة أكبر من مسألة رئاسة القسم:

- المشكلة في الهياكل السلطوية التي تقوم عليها الحوكمة داخل الجامعة، فلا يمكن الفصل بين تدخل رئيسة الجامعة في شئون القسم وبين التهميش الذي يمارس إزاء الأساتذة غير المثبتين أو العنف الهيكلي الذي يمارس إزاء الطلبة في قاعات المحاضرات وإزاء الموظفين والعمال الذين لا يتمتعون بالحماية - مثل عمال النظافة والحدائق والأمن من ذوي العقود المؤقتة.

مروان المفتي سأل تيم عن موقف بقية الهيئات، مثل «مجلس شيوخ» الجامعة ومجلس العمداء، مقترحاً التنسيق معهم. ثم أردف أنه قد يكون من الحكمة ألا يقتصر موقف القسم على رفض التدخلات من قبل الإدارة، وإنما أيضاً طرح رؤية للإصلاح تلتزم بها رئاسة القسم بغض النظر عن شخصية شاغل المنصب. أما ممثلو الطلبة الذين كانوا يراقبون كل هذا بمزيج من التسلي والتشفي،

فقالوا إنهم سيرفعون الأمر لرئاسة الاتحاد، وتساءلوا عما تعنيه رئاسة الجامعة بوضع معايير موضوعية لتقييم الطلبة ودورهم في وضع هذه المعايير، وما إن كانت رئاسة الجامعة قد تطرقت إلى مسألة تجريد المصروفات الدراسية التي يطالبون بها منذ سنوات. كان ضغط تيم يرتفع شيئاً فشيئاً وهو يستمع إلى هذه المداخلات، لكن ما لم يتوقعه هورد أقرب الأساتذة له، يارا رفيقي.

بدأت يارا حديثها بابتسامة ساخرة موجهة إلى ممثلي الطلبة، معلقة بأن همهم دوماً على جيوبهم، وسألتهن عن سبب معارضتهن لخطط روبرتا التي تسعى لوضع معايير موضوعية لتقييم الطلبة، وما إذا كان ذلك خوفاً من حرمانهم من الحصول على درجات لا يستحقونها، سواء من خلال استغلال وضعهم كأعضاء في اتحاد الطلبة أو للأسباب الأخرى «التي يعرفونها جيداً». ظلت تنقل بصرها بين ممثلي الطلبة الثلاثة ثم سألتهم إن كان قد خطر ببالهم يوماً الاهتمام بالمحتوى التعليمي لدراساتهم «ولو من باب التغيير»:

- أنت يا معاذ مثلاً، كيف تظن أن أيّاً من الجامعات المحترمة التي قدمت طلبات التحاق بها يمكنها قبولك؟ أم أنك تعول على أصدقاء يأسر في هذه الجامعات لقبولك باعتبارك ثورياً أنت الآخر؟

....

- وأنت يا آنسة، ماذا ستفعلين العام القادم حين تتخرجين دون أن تفقه شيئا فيما يفترض أنك درستة؟ هل تظنين أنك ستجدين عملاً في مجالك وأنت تجهلين هذا المجال إلى هذه الدرجة؟ أم تنوين مواصلة الالتصاق بمعاذ كالعثة حتى حين يترك لك البلد كلها ويسافر؟

... -

- طبعاً ناجي ليس لديه مشكلة لأنه لن يتخرج ويقطع عيشه!

صمتت يارا لحظة ثم وجهت نظرها إلى مروان وسألته في تهكم عن سر اهتمامه بالموضوع ككل، وهو أستاذ زائر لا ناقة له ولا جمل في الجامعة:

- أم أن هذه سبوبة لتجد موطئ قدم للبقاء؟ هل وعدك تميم بالتعيين؟ أشك. ولو وعدك لا تصدقه؛ فهو حاول منع استقدامك أصلاً. ولو تريد رأيي بصراحة سأقول لك ما سبق وقلته عشر مرات: ارجع إلى أمريكا وانقذ نفسك، فإزال أملك فرصة أن تصبح أستاذاً بحق وحقيق. صحيح أنك كما يقول تميم عنك «مش عارف الله وين حاطك»، لكن جامعات أمريكا مليئة بأمثالك وبالتالي ستكون سذاجتك أقل ضرراً عليك مما عليه الحال هنا.

أمسكت بزجاجة الماء الموضوعة أمامها وصبت لنفسها كوباً وهي تنقل نظرها إلى ياسر:

- دكتور «هارفي وينستين» هنا قلق طبعاً؛ لازم تعارض قرارات روبرتا، تخيل ماذا سيحدث لك إن شعرت ضحاياك بالأمان وتكلمن؟

رشفت بعض الماء ونقلت نظرها بين تهاني وتميم ثم هزت رأسها بشدة وقالت - بالعربية - وكأنها تحدث نفسها بصوت عالٍ:

- أما صحيح مجموعة معرصين.

ران صمت مطبق وتفادى الجميع الرد. قطعت يارا الصمت بإعلانها رفض إرسال المذكرة التي اقترحها تميم، ووبخت الحاضرين جميعاً على قصر نظرهم، ساخرة من حجة «تدخل رئيسة الجامعة في شئون القسم». صمتت لحظة إضافية كأنها تفكر فيما ستقوله ثم سألت في تحدٍ:

- أظنون أنفسكم أساتذة جامعيين حقيقيين؟ لا، وتخافون فعلاً على استقلالكم؟ منذ متى؟ أنتم هنا بطريق الخطأ، كلكم. الدكتور تميم فرحان بكوم الزبالة الذي كومه لنفسه وجلس فوقه لعشرين عاماً ولا يريد النزول من عليه ولو استدعى الأمر إحراق القسم كله. والدكتورة تهاني تشاور عقلها على أمل أن تزيج تميم وتجلس مكانه على نفس كوم الزبالة. على جثتي. والله إن فكرتم في الموضوع لوجدتم أن اهتمام روبرتا بتغيير نظام الإدارة قد يكون أفضل ما حدث للجامعة ولكم. وقد يكون فرصة تطورون أنفسكم وربما مع الوقت تصبحون «أشباه جامعيين»، وهذا غاية

لم ينبس أحد بينت شفة. فأضافت يارا:

- انا ناقشت روبرتا في مشروعاتها للتغيير، وهي مشروعات مهمة ومطلوبة ومجلس الإدارة كله يساندها، وبالتالي لن يقف في وجهها أحد. فعليكم الاختيار: إما أن تنضموا إلى قافلة التغيير أو أن تعملوا رجال وترفصوا لكن يجب أن تعلموا أن هذا الرفض سيؤدي بكم في النهاية إلى فقدان وظائفكم. أنتم طبعاً لا علاقة لكم بالرجولة، ومن ثم لا داعي للتظاهر بالرفض لأنكم في الآخر ستلحسون كلامكم حين تدركون عواقبه. الانضمام إلى قافلة التغيير أنسب لكم، وهو يتطلب تغيير تميم بأستاذ يمكنه التعاون مع روبرتا. ولو نظرتم إلى بعضكم لفهمتم أنه لا أحد هنا سواي قادر على ذلك. فاختصروا الوقت لأن هذا هو الخيار الوحيد: إما أن تعملوا فيها رجال وتطحنكم روبرتا، أو تركبوا الموجة وتتركوني أقود هذا القسم لعلني أنقذه وأنقذكم.

صمتت وعادت بكرسيها إلى الراء إعلناً بنهاية حديثها. نظر تميم أمامه متحاشياً رؤيتها، وظل صامتاً لحظة ثم سأل ببطء إن كان أحد يعرف ما إذا كانت مشروعات روبرتا للتطوير تشمل برامج إعادة تأهيل للأساتذة مدمني الكحول والمخدرات والجنس مع الطلبة. انتفضت يارا واقفة وقالت بصوت عالٍ، وبالعامة:

- ك** يا تميم، لك*** جميعاً، واحد واحد

ثم حملت حقيبتها وغادرت القاعة. خلال كل ذلك لم تنبس نايلة أبو ذكري بكلمة واحدة، وركزت اهتمامها كله على تدوين الملاحظات وكأنها تخفي نفسها في الورق.

انتظر تميم لحظات ثم دعا الحاضرين لإنهاء الاجتماع على أن تُستكمل مناقشة هذه الأمور في «الانتجاع». وكتب رسالة إلى روبرتا يعلمها بذلك، فردت عليه بأنها تنوي المشاركة. لم يرد تميم، لكنه أبلغ بقية أعضاء القسم. وهكذا، عاد الجميع إلى مشاغلهم في هذا الخميس العاصف وهم يتحسبون - أو يدبرون - للقاءهم الذي سيبدأ في تمام السادسة والذي سيشهد ولا ريب اقتتالاً بين جميع الأطراف يحدد شكل حياتهم في الجامعة لسنوات طويلة.

لكن شيئاً من هذا لن يحدث: «الانتجاع» لن يلتئم والاقتتال لن يتم - لأن كارثة أكبر كانت على وشك الوقوع. واسم هذه الكارثة يارا رفقي.

الفصل الثاني

مسرح الجريمة

نايلة أبو ذكري هي التي اكتشفت الجثة.

لم تظهر يارا عند بدء «الانتجاع» في السادسة. نظر تميم إلى بقية أعضاء القسم ثم طلب من نايلة الاتصال بالأستاذة الغائبة. لم ترد يارا على تليفونها المحمول ولا على تليفون الغرفة أو المكتب. ظلت نايلة تحاول دون فائدة وفي السادسة والربع توجهت إلى غرفتها للبحث عنها. رغم الدق المتواصل على الباب والنداء عليها لم تلتق إجابة. وضعت أذنها على الباب لعدة دقائق لكنها لم تسمع أي صوت. عندها ذهبت إلى مكتبها. وعند وصولها إلى تلك النقطة في الممر التي ترى منها زجاج الباب أدركت فوراً أن مصيبة قد وقعت. وقفت نايلة أمام الباب تنظر إلى المكتب وقد انعقد لسانها بل وتوقف عقلها نفسه عن التفكير. كانت يارا جالسة خلف مكتبها، ونصفها الأعلى ملقى على المكتب كأنها نائمة عليه، عارٍ إلا من حمالة صدرها، وذراعها اليمنى ممددة على سطح المكتب بإهمال والثانية مختفية وراءه. خد يارا الأيسر ملتصق بسطح المكتب ونظرة فارغة تطل من عينها اليمنى، بينما فيها المفتوح يسيل منه الدم. صرخت نايلة صرخة مدوية وهي تعود إلى الورا ملتاعة ثم أخرجت تليفونها من جيبتها،

وبدأت تحاول الاتصال لكنها لم تستطع رؤية الأرقام والأسماء. غامت شاشة التليفون ثم تداخلت الأشياء كلها أمامها، وتهاوت على الأرض.

الهرج والمرج الذي أعقب ذلك لم تشهده الجامعة من قبل. خلال دقائق كان أعضاء القسم كلهم عند مكتب يارا، ثم انضمت لهم لبنى مساعدة رئيسة الجامعة. جلس تميم على الأرض يحاول إفاقة نائلة، في حين انشغل بدران أبوسرة - مدير إدارة الأمن - بإخراج الأساتذة الذين دفعهم الفضول إلى دخول مكتب يارا، طالباً منهم عدم تلويث «مشرح الجريمة»، ثم أوقف اثنين من حراس الأمن على الباب وأمرهما ألا يفتحاها قبل وصول الشرطة، وألا يسمحا لأحد بالتصوير. جاءت رئيسة الجامعة مسرعة وانشغلت بالحوار مع تميم، في حين توافد آخرون من مسؤولي الجامعة والأساتذة والعاملين والطلبة ممن كانوا لا يزالون بحرم الجامعة حتى أصبح الممر مكتظاً بمن فيه. عند هذا الحد طلب بدران من الجميع الانصراف وإخلاء المكان. كانت نائلة لا تزال جالسة على الأرض أمام الباب والحشود ترتطم بها فأخذ تميم بيدها وسندها حتى قامت ثم سار بها إلى مكتبها وتبعهما أعضاء القسم حيث تجمعوا في صالة القسم صامتين في انتظار ما تسفر عنه الأمور.

* * *

وصلت دورية النجدة بعد حوالي نصف ساعة، في

السابعة بالضبط. مشهد ضابط الشرطة بزيه الأبيض وهو يتقدم الدورية وسط مباني الجامعة الهادئة أنهى أي إحساس بالعادية في مساء هذا الخميس الصيفي. ران صمت شامل على ساحات الجامعة وتوقف الجميع عما كانوا يفعلونه وهم يرقبون الدورية تتقدم ببطء نحو مبنى «الدراسات الاجتماعية والإنسانية» الذي يقع فيه القسم. سار بجوار ضابط الشرطة شخص آخر يرتدي ملابس مدنية، متوسط الطول، أسمر، ويميل إلى البدانة، وتبدو عليه الأهمية. استنتج الجميع أنه ضابط المباحث، يتبعهما اثنان من العساكر المتجهمين، وفي نهاية الموكب شخص ثالث يرتدي ملابس مدنية ويتلفت حوله باستمرار، استنتج الجميع أنه مخبر. قابلهم بدران وتميم عند المدخل الرئيسي للمبنى.

- أنا الرائد عصام شكري، ضابط المباحث، ودول زملائي من الدورية. أنا اللي هاعمل التحقيق.

قال ذلك وعلى وجهه ابتسامة عريضة لا تليق بالموقف. رد كل من تميم وبدران الابتسامة بهزة من رأسيهما، وعرفا الضابطين بأنفسهما:

- أنا بدران أبو سرّة، مدير الأمن.

- حضرتك في مقام لوا يعني، بس ملكي.

- يعني، هنا مفيش ملكي وميري.

- طبعاً يا باشا، وإلا ما كنتش حضرتك تبقى لابس كوتشي.

نظر بدران إلى حذائه الرياضي في ارتباك. ثم قدم تميم نفسه:

- أنا تميم نسيبة رئيس القسم.

- هههه، إيه الحكاية يا بهوات، رئيس قسم ومدير أمن، أنا جيت الداخلية ولا إيه؟

لم يرد تميم سوى بهزة رأس إضافية ووجه بيده الضابطين نحو السلم المؤدي إلى قسم دراسات الشرق الأوسط حيث كانت تنتظرهم روبرتا هوارد المصحوبة بلبني. مد عصام يده لروبرتتا مسلماً:

- أنا الرائد عصام شكري، ضابط المباحث، ودول زملائي من الدورية. أنا اللي هاعمل التحقيق.

بدا أن روبرتا قد فوجئت فمدت يدها للسلام بسرعة قائلة - بالإنجليزية:

- مرحباً، عفواً، كنت أظن أن الرجال لا يسلمون على النساء باليد في ثقافتكم. أشكركم على المجيء بهذه السرعة. عادة لا تأتي النجدة هنا إلا بعد ساعات، على ما أسمع.

نظر عصام لها وهو يحافظ على ابتسامته العريضة كأنه ينتظر أن تقول المزيد ولما ظلت صامته أخذ يومئ وابتسامته تتلاشى تدريجياً، ففهمت لبني ومالت عليه وترجمت له كلام روبرتا. فاستأنف الابتسام مرة أخرى وواصل الإيماء بحرارة أكثر. أردفت روبرتا:

- نحن حريصون على إتمام التحقيق بأفضل وأسرع السبل، وسأضع إمكانيات الجامعة كلها رهن إشارتكم. إن احتجتم أي شيء، أي شيء، لا تتردد في إخباري - في أي وقت. لبني تعرف أين تجدني!

سلمت عليه ورحلت عائدة إلى مكتبها تتبعها لبني التي قالت لعصام إنها ستعاود الاتصال به بعد قليل. استوقفها عصام وسألها لماذا ترتدي روبرتا ثياباً ثقيلاً هكذا في حر يونية. نظرت له باستنكار ولم تجب بل استدارت ولحقت بروبرتا. ظل عصام ينتظر لحظة ثم هز كتفيه واستأنف السير مع بدران وتميم نحو مسرح الجريمة.

عند مكتب يارا بدأ عصام في إجراء اتصالات بالتليفون. اتصل أولاً بالقيادات الأمنية لإبلاغهم بالوضع، واستأذنهم في الحصول على مساعدة «الأدلة الجنائية» والتواصل مع الطب الشرعي والنيابة لتسريع وتسهيل التحقيق. ضابط الشرطة ذو الزي الأبيض كان أيضاً على التليفون يبلغ قياداته، وتليفون كل منهما لا يتوقف عن الرنين وسط مكالمتهما؛ ينظر كل منهما إلى الشاشة وسط المحادثة ويواصل الحديث كأنه كان يسمع ما قاله

الطرف الآخر. بدران أيضاً على التليفون مع من يعرفهم من القيادات الأمنية يطلب دعمهم لتسريع التحقيق وإبقاء الصحافة بعيدة ولو لعدة أيام.

عادت لبنى بعد قليل ووقفت بجوار عصام. توقف عن الاتصال ومال عليها وسألها إن كانت تستطيع تدبير قفازات طبية للدين والقدمين. نظرت له مندهشة ثم سألت:

- هو حضرتك جاي مسرح جريمة من غير جواناتيات؟

- هو حضرتك بتشتغل في الداخلية؟

- لا باشتغل في مكتب رئيسة الجامعة.

- طيب مش رئيسة الجامعة قالت إنها تضع إمكانيات الجامعة رهن إشارتي؟ آدي إشارة أهي، اتفضلي شوفيلي جوز جواناتيات!

- حاضر، مش عايز ساندوتشات بالمرة؟

نظر لها ولم يرد. لا يحمل قفازات بالطبع، أين تظن هذه الآتسة اللطيفة نفسها، في حلقة «سي إس آي»؟ القسم نفسه لا يوجد به قفازات؛ هذه أشياء لا يستخدمها سوى ضباط الأدلة الجنائية، وهؤلاء لا ينتقلون لموقع الحادث إلا في القضايا الكبرى. لكن - وهذا هو المهم - هذه

قضية كبرى، وهو المسئول عنها. لأول مرة منذ بدأ خدمته لديه قضية كبرى؛ قضية رأي عام مثلها قالت له قياداته. لأول مرة يتحدث مع هذا العدد من القيادات. لا يظن أنهم كانوا حتى يعرفون اسمه. تؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون اسمه، لكن الوضع تغير يابريز. بعد سنوات من الخدمة في مناطق غربية ونائية ذات إمكانيات محدودة وقضايا ما يعلم بها إلا ربنا، فجأة حادث مهم، ومؤسسة دولية، وشخصيات كبيرة، وأكد الصحافة والتلفزيونات والبلد كلها ستتابع، وهو في قلب هذه المعركة. كان عنده حق أبوه عندما قال له إن نقله إلى قسم القاهرة الجديدة سيكون فاتحة خير عليه.

لكنه أيضاً قلق، لنفس الأسباب التي تجعله متحمساً. صحيح أنه حقق في قضايا قتل من قبل، لكنها كانت قضايا صغيرة مقارنة بهذه، قتل بسبب الثأر أو الخيانة الزوجية أو الطمع في الميراث أو ضرب أفضى إلى الموت. لم يتعامل مرة واحدة مع مصلحة الأدلة الجنائية أو يحقق في قضية كل العيون عليها هكذا. رئيس المباحث قال له على التلفون ألا يلبس شيئاً قبل وصول فريق الأدلة الجنائية. القيادات الأمنية التي اتصل بها أو اتصلت به نصحته ببذل أقصى الجهد والحرص الشديد على تفادي أي خطأ، وأن «يمشي حسب الكآب» لأن العين ستكون عليه وهو الذي سيتحمل النتيجة إن حدث تقصير أو تجاوز. لحسن الحظ فإن لعصام صديقاً يعمل بالأدلة الجنائية، دفعته. اتصل به وطلب نصيحته في التعامل مع مسرح الجريمة. شرح له صديقه ما يجب فعله، ثم طلب

منه اقترح اسمه لقيادة الفريق الذي سترسله المصلحة
بحيث يعملان معاً. فعل عصام ذلك بسرعة. هذه خدمة
متبادلة. سيستفيد صديقه من العمل على قضية كبيرة
كهذه، وفي نفس الوقت يساعده بدلاً من أن يتنمر عليه
أو يعوق عمله.

لم يتصل عصام بوكيل النيابة إلا بعد إتمام اتصالاته
كلها وعودة لبنى بالقفزات، وذلك ليعطي نفسه وقتاً
كافياً للمعينة منفرداً قبل وصوله. لكنه وجد الوكيل على
علم بالفعل بالحادث وعلى وشك التحرك. لحسن حظه
فإن وكيل النيابة كان في زيارة عائلية بالمريوطية ومن
ثم سيتأخر. ابتسم عصام منتصراً وهو يضع في قدميه
القفزات التي تشبه الأكياس البلاستيك التي يرتديها
الأطباء في غرف العمليات ويهم بفتح باب المكتب.
كان قد مر نصف ساعة على وصوله. ألقى بنظره على
الفوضى التي تسوده وبدأ يأخذ صوراً كثيرة - بتليفونه
المحمول - لمحتويات المكتب قبل أن يدخله. أطلقت لبنى
برأسها:

- حضرتك بتصور بالتليفون؟ مفيش عندكم كاميرا
متخصصة؟

نظر لها عصام مستفزاً لكنه استكمل ما يفعله وهو يرد
بهدهوء:

- انتِ شكلك هتعبيني معاكِ يا آنسة. من فضلك خليكِ

ثم نادى على العسكري الواقف خارج المكتب وأمره بإخلاء الممر. توقف فجأة وكأنه تذكر شيئاً. نادى:

- يا آنسة! مين اللي موجود في المبنى؟

- دلوقت؟ مفيش حد تقريباً.

- خلال الساعتين اللي فاتوا؟

- غالباً ما كانش في غير أعضاء القسم عشان عندهم انتجاع.

- عندهم إيه؟

- انتجاع؛ retreat يعني.

- يعني أعضاء القسم دول موجودين دلوقت في المبنى؟

- موجودين في قاعة القسم في آخر الممر، ولو حد مشي هيكون في مساكن الطلبة.

- بيعمل إيه في مساكن الطلبة؟

- ما هم واخدين غرف هناك عشان الانتجاع.

نظر لها دون أن يرد ثم توقف عن التصوير واتصل بمدير أمن الجامعة واستأذنه في إبقاء أعضاء القسم بالجامعة حتى يتحدث معهم، وسأله إن كان لديه بيان بمن دخل وخرج من حرم الجامعة اليوم. ضحك بدران وقال إنه أغلق كل بوابات الجامعة منذ علمه بالجريمة. كما أن الجامعة لديها أجهزة سكاثر عند البوابات تسجل محتويات كل ما يدخل الجامعة ويخرج منها. فسأله عصام إن كان يمكنه مراجعة حركة الدخول والخروج وموافاته بأي شيء ذي قيمة. فوعده بدران بإرسال ما يجده في الغد. ثم سأله إن كان يريد إبقاء بوابات الجامعة مغلقة، فقال عصام إنه يريد الحديث إلى من كانوا بالمبنى خلال الساعتين الماضيتين وقائمة بياناتهم، أما بقية من كانوا بالجامعة فيمكنهم الرحيل مع التدقيق في تفتيشهم وتسجيل بياناتهم. تردد بدران قليلاً ثم سأل إن كان يريد عمل المحضر في مركز الشرطة أم يمكن عمله في الجامعة. سكت عصام قليلاً ثم أجاب بأنه سيقدر حين يتحدث إليهم. فهم بدران أنه يريد مشاورة قياداته فلم يلح واتفقا على الحديث عند نهاية المعاينة.

بدأ عصام المعاينة في الساعة والنصف بالضبط. أكثر ما لفت نظره في المكان هو حجم العنف. الضحية ضئيلة الجسم، تلقت طلقة في الرأس، واضح أنها استقرت في الجمجمة. كما تلقت طعنة في بطنها لا تزال تنزف. وعلى رقبته علامات خنق وكدمات في الوجه. ثم هناك قيصها المخلوع ملقى بإهمال في زاوية بالمكتب. بجوار رأس الضحية هناك زجاجة نبيذ مفتوحة لكنها شبه ممتلئة،

وبقايا نبذ في كأس مكسورة وملقى الجزء الأكبر منها على سطح المكتب وبجوارها بقع تبدو أنها بقايا نبذ أيضاً. قرب وجهه من زجاجة النبذ ليرى نوعها والتقط لها صورة. الجزء المكسور من الكأس على الأرض. على الأرض أيضاً وجد مسدس «حلوان ٩ مل» كأنه وقع من يد الضحية بعد أن أطلقت النار على نفسها. لكن بجوار المسدس وجد نظارة شمس رجالي ماركة «ريبان». بحث عن السكين الذي طُعن به فلم يجد له أثراً. نظر في الجزء الظاهر من حقيبتها ولم يجده. لا يفترض لمس أي شيء بمسرح الجريمة أو تحريكه قبل وصول النيابة أو الأدلة الجنائية لكن عصام لا يستطيع مقاومة فضوله. تناول كتاباً من أحد الرفوف وبحرص وسع فتحة الحقيبة ونظر داخلها: لا يوجد سكين، لكن يوجد نظارة شمس حريمي. ألقى بجوار المقعد الجالسة عليه ونظر إلى بطنها: واضح أنها طُعن بسكين صغير نسبياً، عند معدتها، وهذه الطعنة هي مصدر الدم الذي فقدته، وهناك ما يبدو أنه جزء صغير من أحشائها على حافة مكان الطعن. ثم هناك آثار دماء على أماكن متفرقة في المكتب ككل، وآثار حذاء ملطخة بالدماء على السجادة. لكن أين السكين أو الآلة الحادة التي طُعن به؟ لا أثر لها.

انتهى عصام من المعاينة بعد نصف ساعة، في الثامنة تحديداً. ثم خرج مشدداً التعليمات للعساكر ألا يتحركوا من أمام المكتب. أوامراً دون تعليق في حين تحدث عصام مع المخبر على حدة وطلب منه التأكد من التقيد بالتعليمات. وصل تميم وبدران في هذه اللحظة ومعهما

وكيل النيابة وخبير الأدلة الجنائية. تبادل عصام والخبير سلاماً حاراً ثم سلم على وكيل النيابة بتحفظ. كانت الساعة تشارف على الثامنة والرابع مساءً، فطلب عصام من المخبر التوجه لشراء طعام للعساكر وله، وهم بوضع يده في جيبه لكن تمم أمسك بها قائلاً:

- عيب يا حضرة الضابط؛ أنتم ضيوف الجامعة. أنا بعت أجيب لنا كلنا؛ ده أقل واجب.

شكره عصام متظاهراً بالاعتراض، وكرر وكيل النيابة الشكر بشكل آلي ثم طلب من خبير الأدلة الجنائية مرافقته كي يبدأ المعاينة، في حين سار تميم وبدران مع عصام باتجاه قسم دراسات الشرق الأوسط للقاء أعضائه المنتظرين هناك. اتصل عصام في الطريق بضابط الدورية الذي كان قد عاد إلى قسم الشرطة واطمأن منه على قرب وصول خدمة الحراسة المقررة لحماية مسرح الجريمة.

وضعت روبرتا قاعة الاجتماعات بقسم دراسات الشرق الأوسط تحت تصرف الرائد عصام، وأضافت أنها ستخصص لهم أيضاً القاعة الصغيرة الملحقة بها، للصلاة. ردد عصام آخر كلمة ترجمتها لبنى:

- الصلاة!

- أيوه.

- صلاة إيه؟

- الصلوات الخمس يا سيادة الرائد.

- صلوات خمس إيه يا أستاذة، احنا جاين نحقق في جريمة قتل ولا جاين نصلي.

ابتسم تميم للرائد في تواطؤ وقال بالعربية:

- معلش، هي فاهمة إنها كده بتحترم التقاليد.

رد عصام بتعبير محايد:

- آه طبعاً احترام التقاليد مهم.

قطعت روبرتا الحوار طالبة الحديث إلى عصام على انفراد، فغادر الباقون عدا لبنى التي بقيت للترجمة. قالت روبرتا إنها تريد مناقشة عصام في رؤيته للتحريات التي ينوي القيام بها. لم يقل عصام كثيراً، فهو لا يحب مناقشة عمله مع أحد، كما أنه ليس لديه «رؤية للتحريات». سيستجوب الحاضرين، ثم يبحث في ملف القتيلة، ويرى ما يسفر عنه ذلك.

قالت روبرتا:

- يبدو أنك تفترض أن هذه جريمة قتل لا انتحار.

- نعم، مسرح الجريمة وحالة الجثة يشيرون إلى ذلك.

صمت روبرتا قليلاً، ثم سأله إن كان هناك أي مساعدة تستطيع تقديمها. سألها عصام إن كان لدى الجامعة ملفات عن الأساتذة فأومأت بالإيجاب:

- ويمكنك الاطلاع عليها في أي وقت لدى البروفوست، د. عبد الرحمن صدقي. ولبنى هنا يمكنها مساعدتك في التواصل معه. بالمناسبة، لنجعل لبنى حلقة الوصل بينك وبين كل مؤسسات الجامعة. أنا أفهم أن لك علاقة جيدة مع بدران أبو سرّة مدير الأمن، وهو أفضل شخص نتواصل معه فيما يتعلق بالجوانب الأمنية ولا شك. لكن يمكنك الاعتماد على لبنى للتواصل مع بقية مؤسسات الجامعة.

توقفت لبنى عن الترجمة وبدأت تناقش روبرتا في ذلك، لكن روبرتا كانت قد حزمت أمرها. ستعطيها تفرغاً من مهامها الأخرى لحين نهاية التحقيق. عليها مرافقة الضابط في كل ما يفعله ومساعدته قدر الإمكان، سواء بالترجمة أو بتيسير اتصالاته مع العاملين بالجامعة أو توفير أي وثائق أو معلومات يحتاجها. وفي نفس الوقت حماية الجامعة والحيلولة دون تسرب أي أخبار قد تضر بسمعتها، وطبعاً إبقاء روبرتا على علم بكل التطورات.

قال عصام لرئيسة الجامعة إنه يود توجيه بعض الأسئلة لها بشكل رسمي، لاستيفاء المحضر، فأومأت بالموافقة. وبدأ عصام توجيه الأسئلة - من خلال لبنى:

- ما مدى معرفتك بالقتيلة؟

- لم نتح لي الفرصة الكافية لمعرفة عن قرب، لكن في المرات المعدودة التي تحدثنا فيها عن مستقبل القسم وجدتها ذكية وواعية بتاريخ القسم والجامعة والتحديات التي تواجهها. لكنها طبعاً كانت تواجه تحديات شخصية.

- ماذا تقصدين بتحديات شخصية؟

- كان لديها مشاكل في الماضي.

- هل يمكنك ذكر أمثلة محددة؟

- مشاكل مع بعض الطلبة وبعض الزملاء، ومشاكل شخصية.

نظر إلى لبني:

- هي مش ناوية ترد على أم السؤال؟ من فضلك قولي لها عاوزين إجابات محددة.

ترجمت لبني ما قاله بتصرف، فردت روبرتا:

- مشاكل شخصية مثل كل إنسان؛ كان هناك أوقات كانت تشرب فيها أكثر مما ينبغي، أوقات كانت تدخن أشياء لا يحسن تدخينها، مشاكل مع هذا الطالب أو ذاك،

شكاوى من تصرفات غير لائقة، أشياء مثل هذه. ليس فيها شيء غير عادي. مثلما هي الحال في كل مؤسسة. أليس لك زملاء لديهم مشاكل مثل هذه؟

رد عصام موجهاً حديثه إلى لبنى:

- قوليلها نخيلنا في القليلة من فضلك. هل ممكن نعرف تفاصيل أكثر؟

- لا أذكر تفاصيل مشاكل كل شخص في هذه الجامعة؛ ستجد التفاصيل كلها في ملفها.

ثم وقفت روبرتا إيداناً بانتهاء الوقت الذي تريد تخصيصه لأسئلة ضابط المباحث. عندها وقف عصام بشكل شبه آلي رغم أنه كانت لديه أسئلة أخرى. كان لروبرتة هذا التأثير على من حولها. مدت يدها له مسلمة عليه وداعية إياه للاتصال بها عند الضرورة، ثم رحلت. ظلت لبنى جالسة في وسط هذا. نظر إليها عصام بعد خروج روبرتا من القاعة وسأل:

- هي على طول كده؟

- أيوه. هي مالهش في الهري.

- هري؟ دي جريمة قتل.

- انت متأكد فعلا إنها جريمة قتل؟

- بمعنى؟

- مش ممكن تكون انتحار زي ما الست بتقول؟

- انتحار إيه يا آنسة؟ في حد بيعمل في نفسه الحفلة دي
عشان ينتحر؟ ليه هتضرب نفسها بسكينة وبعدين بالنار؟
ده زي اللي انتحر بثلاث رصاصات في المخ؟

- معرفش. أنا مش طبيب شرعي. بس روبرتا نفسها
سألت.

- طيب بما إنك مش طبيب شرعي يا ريت ما تفتيش!
مش عايزين بلبله.

- بلبله!

- أيوه. اتفضلي ياللا شوفي فين أعضاء القسم.

خرجت لبنى ودخان غير مرئي يخرج من أذنيها. عادت
بعدها بثانية لتخبره بوجود الجميع خارج القاعة، فطلب
منها إدخالهم واحداً بعد الآخر. وجه عصام إلى كل منهم
نفس الأسئلة تقريباً، وردوا جميعاً نفس الردود تقريباً،
باللغة العربية الفصحى كي يعكس المحضر ما يقولونه نصاً.

- أنا مصدوم (ة)، لا أصدق أن هذا حدث بالفعل.

بدأ الجميع ردودهم على أسئلة عصام بهذه الجملة.

- كانت زميلة عزيزة.

قالوا جميعاً هذه الجملة أيضاً، فيما عدا الطلبة الثلاثة الذين قالوا: « كانت دكتورة محبوبة ».

- لا ليس لها أعداء.

قالوا جميعاً هذا.

- لا أبداً، لم أسمع صوت إطلاق نار.

قالوا جميعاً هذا أيضاً.

- نحن في جامعة، ليس هناك عداءات حقيقية؛ هناك خلافات بين الأساتذة وبعضهم، بين الأساتذة والطلبة، بين الأساتذة وإدارة الجامعة، لكنها كلها خلافات تتعلق بالتعليم وطريقة تقديمه، وربما خلافات حول طريقة إدارة الجامعة، لكن لا شيء يمكن أن يؤدي إلى القتل!

قال مروان ذلك وكأنه يكلم نفسه.

- لا أتصور وجود بعد سياسي في الموضوع؛ يارا أستاذة دراسات ثقافية ولا شيء مما تدرسه أو تكتب عنه يثير

اهتمام أحد في المجال العام، ربما لا يثير اهتمام أحد على الإطلاق!

قال ياسر العرابوي ذلك.

- لا، لا يمكنني التفكير في أي سبب، لا شيء على الإطلاق، لا أستطيع أن أفهم هذا! لا أستطيع التصديق!

قالت تهاني التلاي هذا قبل أن تسأل عصام إن كان يحتاج إلى أي مساعدة من قيادات الداخلية الذين وصفتهم بأنهم جميعاً «أصدقاء وزملاء أفاضل!».

- يارا أستاذة قديمة بالقسم، ومن عائلة محترمة. لا، لا يمكنني التفكير في أي سبب يدعو أحداً لقتلها.

قال تميم هذا والحزن يكسو ملامحه.

- لا، لا أتصور أن أحداً من القسم يمكن أن يقترب جريمة قتل.

قالت نائلة أبو ذكري هذا وهي شاردة.

* * *

أنهى عصام محضر المعاينة وأصبح جاهزاً لإرساله للقسم لقيده في دفتر القضايا ثم إرساله إلى النيابة. كانت

القيادات الأمنية قد توافقت على استجواب الحاضرين في مقر الجامعة حيث يقيمون. هذا أفضل للجميع، فمن ناحية تشعر إدارة الجامعة بأن الجهات الأمنية تصون احترامها، وهو أمر هام ليس فقط لتعاونها مع التحقيق، ولكن أيضاً لحساسية وضع الجامعة. من ناحية أخرى، فإن ذلك أسهل. فقد اتفق الضابط عصام مع بدران ومع رئيسة الجامعة على استبقاء المشاركين في الانتخاب بمساكن الجامعة حتى يوم الأحد بحيث يمكن مساءلتهم مع تقدم التحقيق وفي ضوء ما تكشف عنه التحريات. خاصة أنه سيبدأ هذه التحريات بالبحث في ملفاتها ومراسلاتها وغير ذلك من المصادر الموجودة بالجامعة والتي يصعب نقلها. كما أن الجامعة تحت السيطرة بالكامل؛ لا يدخل أو يخرج منها شيء أو أحد دون علم الأمن، وإبقاء كل من كان حاضراً بالمبنى وقت الجريمة فيها أفضل ولا شك من تركهم على حريتهم. من ناحية ثالثة، وبصراحة، فإن العناية والرعاية التي يلقاها عصام ومعاونوه في الجامعة لا تقارن إطلاقاً بالوضع في القسم، يكفي التكيف.

أبلغ عصام وكيل النيابة أن المحضر جاهز وسيكون في انتظاره في المكتب حين يعود. فقال الوكيل إنه أنهى معانيته وهو أيضاً يعتقد أن هذه جريمة قتل لا انتحار. أضاف أنه ترك الخبير الجنائي يواصل عمله، وسيتوجه مباشرة إلى مكتبه لإصدار أمر بنقل الجثة للمشرحة. أبلغهم بدران بوجود سيارة إسعاف عند البوابة الرئيسية يقول سائقها إنه أتى لنقل الجثة، فأمن الوكيل على ذلك موضحاً أنه أرسل الإسعاف مبكراً لتوفير الوقت، وفور عودته إلى

المكتب سيصدر أمراً رسمياً بنقل الجثة إلى المشرحة. ثم أردف أنه تحدث مع الطبيب الشرعي وتأكد من أنه في طريقه إلى المشرحة لاستقبال الجثة. في أثناء ذلك يكون الخبير الجنائي قد أنهى عمله في مسرح الجريمة.

- دي أقصى سرعة ممكنة.

قال الوكيل. سأله بدران إن كان يمكن تفادي مسألة المشرحة هذه، فهز الوكيل رأسه نافياً:

- ما ينفعش إطلاقاً. دي واضح إنها جريمة قتل، ودي قضية كبيرة والعيون كلها علينا. وبالتالي فأفضل شيء للجميع هو استيفاء الإجراءات زي ما الكتاب بيقول تفادياً للمشاكل. لكن احنا بنحاول نسرع الأمور قدر الإمكان.

أوما عصام موافقاً وأذعن بدران وتبادل أرقام التليفونات مع وكيل النيابة للتواصل حول الموضوع إن لزم. سلم الوكيل بفتور على الضابط عصام قائلاً إنه سيلغنه عند صدور قرار النيابة في الصباح في أقرب فرصة، ورحل بصحبة بدران نحو سيارته.

سيداً عصام تحرياته بالطبع دون انتظار قرار النيابة. الحقيقة أنه سيداً الآن.

* * *

في هذه الأثناء كان أعضاء القسم قد عادوا إلى مساكن الجامعة. ساروا معاً من مكتب نايلة إلى المبنى السكني وكأنهم يتلمسون العزاء من صحتهم. انكسرت الحرارة وعلت أصوات صراخ الحقل المنتشرة في الحدائق المحيطة بالمباني. طلب منهم تميم الانضمام له في شرفة غرفته، وافق الجميع فوراً. الشرفة تطل على الحدائق الخلفية للجامعة الغارقة الآن في الظلام. بعض الأشجار والورود تبدو بلا ملامح واضحة تحت أضواء المصابيح البيضاء المتناثرة، وفي الأفق تبدو بيوت القاهرة الجديدة بعيدة وصامتة. نسمات من الهواء تنعش الجو في الشرفة. جلسوا جميعاً صامتين. مروان يتبادل رسائل قصيرة على تليفونه. تميم جالس يحتسي شايًا أعدته له تهاني. وياسر تمدد على الأريكة الوحيدة في الشرفة وعيناه تغطيهما قبعته التي لا تفارق رأسه ليل نهار. تهاني جالسة وظهرها للحديقة، تنظر إلى تميم. تميم يحدق في الفراغ ويعود إلى ضيوفه من وقت إلى آخر دون تركيز. ياسر سأل فجأة دون أن يحرك القبة من على وجهه:

- نبت نجيب الطلبة ينضموا لنا بدل ما هم قاعدين لوحدهم؟

- لا خيلنا لوحدهنا.

رد تميم دون أن يتحرك. عادوا جميعاً إلى الصمت. نظر مروان إلى تليفونه؛ رسالة أخرى (بالإنجليزية):

كيف الحال؟ ماذا يحدث عندك؟

لا شيء مهم، كلنا في الشرفة

عند تميم

بدون الطلبة طبعاً

طبعاً

الأساتذة المحترمون فقط

الأساتذة المحترمون الذين

قد يكون بينهم قاتل

هذا يصلح اسم رواية من أمريكا اللاتينية!

نعم، ربما. كيف حالك أنت؟

مغروسة مع المفتش كولومبو

لماذا لا تخلعين؟

روبرت باعتني: لبي مقابل المعلومات!

سأل مروان زملاءه:

- تفتكروا إيه اللي حصل؟

ظل ياسر صامتاً في حين رد تميم بسخرية:

- اللي حصل يا د. مروان إن زميلتنا انتحرت، أو اتقتلت، في مكتبها، وسطنا ووسط الجامعة كلها.

- واضح يا د. تميم، بس إزاي؟

- يعني إيه إزاي؟ زي ما شفت كده.

- قصدي إزاي حد يعمل كده. إزاي حد يدخل على حد مكتبه، وغالباً حد يعرفه، ويمسك حاجة وينهي حياة الشخص ده بيه. دي حاجة غريبة جداً! رفع ياسر رأسه قليلاً مزيجاً القبة من على عينيه ونظر إلى مروان وهو غير متأكد إن كان جاداً في أسئلته:

- إيه اللي غريب؟ إيه الجديد في القتل؟ التاريخ البشري كله قتل؛ في مجتمعات كاملة كان القتل وسيلتها المقبولة لتنظيم الصراع فيها. تجريم القتل ده حديث، ما حصلش إلا في آخر ٣٠٠٠ سنة! هو بس خطاب التحريم أصبح مهيمناً إلى درجة إن...

- خلي بس خطاب التحريم في حاله دلوقت؛ معظم القتل اللي في التاريخ بين ناس ما يعرفوش بعض.

- قايل كان يعرف هايل.

- ماشي يا ياسر. لو كنت عايش وقتها كنت سألت نفس السؤال.

- ما ينفعش. وقتها ما كانش فيه غيرهم الاثنين!

نظر مروان له في نفاذ صبر ثم استأنف:

- اللي قتل يارا ده يعرفها.

- أكيد.

- وغالباً حد من الجامعة.

- الله أعلم.

ردت تهاني هذه المرة ثم عادوا إلى الصمت. رن تليفون مروان رنة خافتة؛ رسالة جديدة:

كولومبو سيشلني؛ يعاملني

كأني أحد عساكره!

انتِ؟ عسكري؟ يا له من عديم النظرا

الزملاء هنا سيشلونني أيضاً

لم؟

أبدًا، يبدو أنني أنا المشكلة. أنا الغريب

هذا مؤكد

لست متأكدًا إن كان هذا مديحًا أم ذمًا

ما رأيك أنت؟ هل تريد أن تكون مثلهم؟

طيب هل يمكنك إفهام كولومبو

أني آسفة لطيفة، وخريجة هارفاردا

ربما لا يساعدك ذلك كثيرًا. لكن جديًا،

هل تحتاجين إلى شيء؟

أحتاج إلى طبخة. أحتاج إلى حضن.

سأتصل بأمي، هي تتقن ذلك.

هل تحتاج أنت إلى شيء؟

أحتاج إلى الاستيقاظ من هذا الكابوس

ههه. لا، لا أحد يمكنه مساعدتك.

اعمل حسابك أن الكابوس سيطول

نظر مروان إلى زملائه ثانية وعاود المحاولة:

- سؤالي هو هل ممكن حد يعرف ياراء، زميل أو صديق
أو طالب أو حتى حد يعرفها من بره الجامعة، يكرهها
لدرجة اللي تخليه يدخل عليها كده وجهاً لوجه ويرفع عليها
سكينة أو مسدس ويقتلها؟ مش حاجة غريبة شويتين؟

رد ياسر:

- ما هو عشان كده باقولك إن خطاب التحريم بناء
ذهني تاريخي. كل حالات القتل اللي حصلت في العالم
تؤكد إنه مهما كان الشخصين يعرفوا بعض، ممكن واحد
فيهم يقتل الثاني.

أضافت تهاني:

- غالباً يبقى صراع مصالح، أو هويات.

نظر إليهما مروان دون تعليق. عاد الصمت مرة أخرى ثم
استأنف مروان:

- يعني القاتل ده أكيد قتلها عمدًا مش صدفة. محدش
ماشي بسلاح في الجامعة. وبعدين ليه سكينه؟ مش دموية
زيادة الحكاية دي؟

ردت تهاني بسرعة:

- زيادة جدًا.

قال ياسر في نفس الوقت:

- بس هي ماتت بطلق نارى مش بالسكينة!

كسر تميم صمته:

- هي طريقة قتل غريبة في الحقيقة؛ ولىش سكينه
ومسدس؟ ايش يعني واحد مش كافي؟ ولىش مقلعها
القميص؟

أجاب ياسر:

- السكينة دي تبدو أنها statement

رد مروان بحدة:

- يعني احنا دلوقت قاعدين وفي وسطنا شخص جاب
سكينه ومسدس وراح مكتب زميلتنا وقلعها هدومها

وضربها بالسكينة عشان يعمل statement وبعدين ضربها
بالتار؟ واحنا المفروض نكمل عادي وندخل محاضرات
وندرس للطلبة علوم اجتماعية وإنسانيات؟ حقيقي الكلام
ده؟

أجاب تميم:

- هانعمل إيه يعني، الحياة لازم تستمر، أكل عيشنا.

سألت تهاني:

- لكن ليه صحيح ما سمعناش صوت ضرب النار؟

لم يرد أحد. جاء صوت رسالة أخرى على تليفون مروان؛
نظر بسرعة:

أكلت شيئاً؟

لا

أكيد تميم سيطلب لكم طعاماً

لست متأكداً. ولا أظن أن لديّ شهية للأكل

يجب أن تأكل. كلنا نحتاج إلى الطعام والماء.

هذه غرائز أساسية

ربما ليس الليلة. ليس من

عادتي الأكل وأنا متوتر

يقولون إن الحوادث تدفع الناس

إلى أشياء لا تفعلها في العادة

ربما ليس في حالي

سنرى. سأطمئن عليك لاحقاً.

ربما أحضر طعاماً

وأعزمك - إن لم أكل مع كولومبو

أحيطيني علماً بالتطورات

اتفقنا

سألت تهاني فجأة:

- بس هو ده الضابط اللي هيعمل التحقيق والتحريات؟

رد تميم:

- آه.

- بس ده صغير، شكله شاب ومعدوش خبرة.

- ده ضابط مباحث القسم اللي الجامعة تبعه.

- معلى، بس دي قضية كبيرة، حق الداخلية تبعت ضابط كبير!

قالت هذا وبدأت على الفور تعبث بتليفونها كأنها تبحث عن رقم أحد. ثم استأذنت وغادرت الشرفة والغرفة.

سأل ياسر:

- نبعت نجيب عشا؟

رد تميم:

- أنا بعت حد من الأمن.

- طيب، شكراً.

صمتوا جميعاً لعدة دقائق قطعتها عودة تهاني:

- أنا كلمت حد من قيادات الداخلية وأكد لي إن القضية هتابع على أعلى المستويات.

علق تميم:

- طيب كويس.

سأل ياسر:

- تفتكروا هيعرفوا يفتحوا تليفونها؟

ردت تهاني:

- أكيد هيكلموا الشركة ويفتحوه. يمكن يكون عندها
نسخة من المحتوى. أكيد الحاجات دي كلها بتتسجل!

ثم أردفت:

- بس تفتكروا مين له مصلحة في قتلها؟

هز مروان رأسه ورد:

- حتى لو حد عنده مصلحة، مش متصور إن حد منا
يقدر فعلاً يقتل!

أضاف تميم:

- بكره التحقيق يبين؛ مش بتقولي هيتابعوا الموضوع على
أعلى المستويات؟ وكان الجامعة أكيد هتضغط.

عقبت تهاني:

- أكيد يا دكتور، أكيد. انت تفتكر مين اللي قتلها يا ياسر؟

أنزل ياسر قبعته عن عينيه ورفع رأسه قليلاً كي يرى زملاءه جيداً وأجاب:

- عملاء الإمبريالية!

نظروا جميعاً له ولم يردوا؛ لم يكونوا موقنين إن كان جاداً أم يمزح.

* * *

جلس عصام في القاعة يتناول الطعام مع خبير الأدلة الجنائية. تبادلا بعض الملاحظات السريعة، مثل تعرضها لإطلاق النار والطعن معاً، وعلامات الخنق على رقبتهما، وجود المسدس وغياب السكين. سأله عصام عن تفسيره لوجود آثار أقدام ملطخة بالدماء على السجادة. قال الخبير إنه من الواضح تعرضها للطعن قبل إطلاق النار، وأن شخصاً ما كان في مكتبها بعد الطعن بفترة كافية لأن يكون دمها قد تجمع على الأرض وتعلق بجذائه. غالباً الذي طعنها ليس نفس الشخص الذي أطلق عليها النار، إلا لو كان قد طعنها وظن أنه قتلها ثم عاد ووجدها حية فأطلق عليها النار. سأله عصام عن رأيه في فرضية الانتحار فقال إنه

يستبعدها، لكنه سيقدر بشكل أفضل بعد تحليل الصور ومقارنة وضع المسدس على الأرض بالأوضاع التي يمكن أن يكون فيها المسدس لو كانت هي التي أطلقت النار على نفسها. ثم شرح له الخبير ما فعله في مسرح الجريمة وما وجدته من أدلة، مشيراً إلى وجود حقنة على المكتب يبدو أنها استخدمتها للتعاطي. قال إن التقرير النهائي سيستغرق وقتاً بسبب طريقة العمل في الإدارة ونقص الموارد وغياب قاعدة بيانات قومية للبصمات لكنه وعد بأن يوافيه بما يجده أولاً بأول ودون انتظار لاكتمال التقرير، سواء فيما يتعلق بالبصمات التي رفعها أو آثار الأقدام أو تحليل الدماء أو النبيذ وغير ذلك من التفاصيل. فكر عصام قليلاً ثم اتصل ببلني وطلب منها أن تسأل روبرتا إن كان من الممكن تطوع الحاضرين بإعطاء بصماتهم لخبير الأدلة قبل رحيله. طرق بدران الباب ثم أطل برأسه وأخبرهما بأن عربة الإسعاف جاهزة وأمر النيابة وصل. استأذن منه عصام في الانتظار قليلاً حتى ينهي الحديث مع الخبير الجنائي، فأوماً بدران بالموافقة وقال إنه سينتظره في الخارج. مال عصام على أذن الخبير الجنائي وهمس فيها بصوت خافت. نظر له الخبير وسأل في شك:

- معقولة؟

- زي ماباقولك كده.

- بس أنا ما اعرفش المكتب ده فين؟ وهادخل إزاي من غير ما حد يعرف.

- المكتب هيكون فاضي لمدة نص ساعة، والكارت ده يفتح كل الأبواب في الجامعة.

- جبته منين ده؟

- من البت اللي عينوها تساعدني. كان في شنطتها؛ سحبتة من غير ما تاخذ بالها. خد بس معاك اتنين معاونين عشان لو لقيت حاجة تحرزها رسمي.

- وهاعرف مكان المكتب ازاى؟

- اسأل أي حد من حراس الأمن، كلهم عارفين المكان، ومحدث هياخذ باله في الهيصه دي.

أوما انخبير الجنائي برأسه وأخذ الكارت وهم بالمغادرة.

- بس ابعثلي الكارت أما تخلص مع أي حد من معاونين، عشان أحطه في شنطة البت أو أرميه في الأرض كأنه وقع منها. ونبه على معاونين محدش يفتح بقه بكلمة، ولا حتى لحراس الأمن!

- أكيد.

قال هذا وقاما نحو الباب. فتح عصام الباب ونادى على بدران الذي كان واقفاً في نهاية الممر. سلم عليه انخبير

واستأذن مغادراً ناحية مكتب يارا ليشرف على نقل الجثمان، وطلب عصام من بدران البقاء معه للمشاركة في اجتماعه مع روبرتا فأوماً مرحباً. لحظات وجاءت روبرتا ومعها لبنى. تناقشوا مطولاً هم الثلاثة في حين ظل بدران يستمع ويومئ من حين إلى آخر، خاصة حين يتحدث روبرتا. في البداية كرر عصام طلبه الحصول على بصمات الجميع فوراً كي يأخذها الخبير معه، وترددت روبرتا في الموافقة مشيرة إلى أنها حرية شخصية للمعنيين. هي لا تمنع في إعطاء بصماتها هي، لكنها لا تستطيع إجبار الآخرين، ما دام ليس هناك أمر من النيابة. بدا وكأنها تفاوض على شيء ما. تمهل عصام ليفهم ماذا تريد بالضبط قبل الرد. عاودت إثارة فرضية الانتحار فرد عليها عصام بمثل ما قاله للبنى، ثم كرر ما قاله له الخبير الجنائي. أضاف أن هذه الحادثة ستصبح قضية رأي عام فور تسرب الخبر، وعليه توخي أكبر قدر ممكن من الحذر والتعامل مع المعطيات كما يقول الكتاب. توقفت لبنى عن الترجمة وقالت له:

- قصدك إيه «فور تسرب الخبر»؟ ما البلد كلها عرفت خلاص.

- ازاي؟

- إزاي إيه يا حضرة الضابط؟

أمسكت بليفونها وأرته الشاشة. كان الخبر في كل مكان، وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإخبارية.

- أكيد الناس الموجودة في الجامعة بعثت لأصحابها. مش
محتاجة نباهة!

نظر عصام إليها ثم إلى بدران في إحراج:

- طيب خيلنا في اللي احنا فيه.

أكمل شرح طلباته: يريد الاطلاع على ملف يارا بالجامعة،
كل شيء عنها، وكذلك ملفات كل من كان موجوداً
بالمبنى، ويريد الاطلاع على بريدها الإلكتروني. ويريد هذا
فوراً ودون انتظار الإجراءات. قالت روبرتا:

- ولماذا أفعل كل هذا؟ ما المقابل؟

- المقابل؟! قوليلها المقابل تحقيق سريع وتوصل للجاني،
إضافة لأني بكرة الصبح هاستخرج قرار من النيابة بالتحفظ
على كل الحاجات دي. بس أنا مش عايز نجري ورا
بعض وتخبوا مني الحاجات وأنا أجيبها بالنيابة وكده. مش
اتفقنا نتعاون؟

ظلت صامته لحظة أخرى، ثم قالت:

- اسمع؛ أنا لا أستطيع تخويلك حق الدخول على بيانات
الجامعة وأعضائها؛ حتى قرار النيابة لا بد أن يكون محددًا
بأشخاص معينة وبمسوغات. لكن ربما كان هناك حل
وسط.

ظل عصام صامتاً لحظتين، نظر إلى بدران لكن تعبير وجه الأخير كان محايداً. فكر لحظة ثم أضاف بتمهل:

- ماشي، ساعديني وأنا أساعدك. انت عايزة إيه؟

- لا أريد مفاجآت، هذا كل ما أريد. لا يعنيني ما تصل إليه من استنتاجات، أنت حر في ذلك، لكن يجب أن أكون مستعدة لهذه النتيجة.

- وهو كذلك، ساعديني وسأحيطك علماً بالتطورات.

تحدثت روبرتا مع لبنى بالإنجليزية لثوانٍ ثم قالت لبنى:

- أنا عندي حق الدخول على الإيميلات والملفات والكلام ده كله. فممكن أدخل على اللي انت عايزه وأقولك فيه إيه، بس أنا اللي أدخل باسمي وكلمة السر بتاعتي عشان ما يبقاش في حاجة غلط.

- وماله. أنا في كل الأحوال محتاج ترجمة.

- خلاص اتحلت.

- وهي موافقة على الكلام ده؟

وأشار إلى روبرتا. نظرت لبنى إليها ثم إليه وقالت «آه» بالعربية، بينما أومأت روبرتا وقالت:

- لكن تذكر اتفاقنا؛ ستحيطني علما بالتطورات أولاً بأول.

أوما عصام موافقاً وعندها قامت وهي تبسم وسلمت عليه وعلى بدران وقالت إن أعضاء القسم سيعطون بصماتهم حين يكون مستعداً، ثم تبادلت عدة جمل بصوت خافت مع لبنى قبل أن تغادر القاعة. سأها عما قالت فأجابت بأن روبرتا سترسل لهم جهاز كمبيوتر يخصص للمهام المطلوبة ويظل في هذه الغرفة حتى انتهاء التحقيق. أمن عصام على هذا ثم سأل لبنى وهو يغمز لبدران:

- طيب ممكن جدعنة منك تديني الباسورد بتاعتك؟

- في المشمش!

* * *

الذي مكن روبرتا من الحديث بهذه الثقة نيابة عن أعضاء القسم أنها اجتمعت بهم وقعتهم قبل لقاءها بعصام. بلغها أن تميم تحدث مع زملائه بغية استئناف أعمال «الانتجاع»! قال لهم إن الجريمة لا يجب أن توقف سير أعمال القسم، فلا شيء سيتوقف لأن أحد أعضاء التدريس مات. ستمر عطلة نهاية الأسبوع وصباح الاثنين سيأتي الطلبة كما يأتون كل يوم ويحضرون دروسهم ويذهبون إلى المكتبة ويمرون على الأساتذة في ساعاتهم

المكتبية إلى آخر هذا الموشح المتكرر. لن يتوقف الطلبة لأن يارا ماتت، ولن يتوقف الامتحانات التي على الأبواب ولا رسائل الماجستير التي تحتاج إلى قراءة ومراجعة وتعليق ومناقشة. لن يتوقف أي شيء، وبالتالي فإن التصرف المسؤول أن يجتمعوا لمناقشة أمورهم العاجلة وحسمها كي يمكنهم مواصلة عملهم. أعضاء القسم كانوا بين متردد ومذهول، لكن تميم واصل الضغط.

- نحن جالسون في الشرفة ونناقش هذه الأمور. الفارق هو أن نستدعي نايلة ونجعل الجلسة استثنافاً رسمياً للانتجاع!

- والطلبة!

أضاف ياسر، وهز تميم رأسه موافقاً. وبالضغط الذي لا يواجهه سوى معارضة ياسر اللفظية وتردد تهاني وذ هول مروان، وجدوا نايلة والطلبة الثلاثة وقد انضموا لهم في الشرفة وبدأ تميم يتحدث بالانجليزية معلناً بداية الجلسة ونايلة تدون الملاحظات. عشر دقائق واقتحمت روبرتا الشرفة وهي تهز رأسها غير مصدقة:

- ما هذا؟ ماذا تفعلون؟

رد تميم:

- نستأنف عملنا.

- عملكم؟ أي عمل؟ إذا استمر هذا الاجتماع فلن يكون لدى أي منكم عمل في الصباح!

سقط على الشرفة صمت عميق؛ ليس ذلك الصمت الذي يسود في اللحظات التي تفصل بين الكلام، ولا صمت الاستماع؛ نوع آخر، كأن السامعين لطموا على وجوههم، كأنهم يحبسون أنفاسهم انتظاراً لما يلي. تهاني التلاي هي من كسر الصمت:

- ماذا تقصدين يا روبرتا؟

- مس هوارد من فضلك. من هنا وصاعد لا أحد فيكم يخاطبني باسمي الأول. نحن لسنا أصدقاء. أنا رئيسة هذه الجامعة وأنتم موظفون بها.

احتج ياسر:

- الطلبة ليسوا موظفين.

- اسكت انت، هم قادرون على التحدث إن أرادوا، وإن كنت أظنهم أذكى من ذلك.

ردت روبرتا وهي تشير إلى ممثلي الطلبة الثلاثة. تدخل تميم:

- ربما يكون من الأفضل إذن أن نناقش في هذه الأمور

ردت روبرتا بسرعة:

- لا يا بروفيسير؛ صنعت لنفسك فراشاً فارقد به! أنت الذي صممت على جمع هؤلاء الناس، والآن ليس لدي وقت لمناقشة من يحضر ومن يخرج. هذا ليس اجتماعاً. أنا هنا لأقول لكم ببساطة ما يلي: أنتم فيما يبدو غير مدركين لما حدث. هناك حادثة شنيعة وقعت في القسم هذا المساء؛ زميلتكم انتحرت وربما قتلت. هذه الأستاذة التي كانت قبلها بساعات تطمح إلى رئاسة القسم ترقد الآن في المشرحة. وهذه الكارثة، إضافة لشناعتها على المستوى الإنساني، والظروف التي تمت فيها، تقول أكثر مما ينبغي عن الوضع الحالي لهذا القسم. هذا مفترق طرق؛ إما تواصلون الطريق الذي تسرون فيه وتغرقون جميعاً، أو تأخذون طريقاً مغايراً كي تنجوا.

أخذت نفسها كي تتمالك أعصابها أكثر وأضافت ببطء:

- لست موقنة من اختياركم، لكن فيما يتعلق بي، فأنا كرئيسة لهذه الجامعة مصممة على اتخاذكم لطريق مغاير. هذا الاجتماع، استمرار هذه المحاولات الرخيصة للدفاع عن مكاسب تافهة لا يشير لنيّتكم تغيير الطريق ولا حتى فهمكم لما يجري حولكم. وليس لدي الوقت ولا الصبر، ولا الظروف تسمح بأن أنتظر حتى تفهموا. ومن ثم سأستخدم سلطاتي لحماية الجامعة منكم، وربما لحمايتكم من

أنفسكم. في الصباح سيحدث أحد أمرين: إما سأجد في صندوق بريدي استقالة تميم نسيبة من منصبه ورسالة منه ومن كل واحد فيكم تتعهد بالتعاون الكامل لإصلاح أمور هذا القسم، أو سأوقع أمرًا بحل القسم برمته وإنهاء تعاقد جميع العاملين فيه.

قاطعها تميم:

- لا يمكنك إلغاء قسم الشرق الأوسط. هذا أقدم...

قاطعته:

- هل تريد مشاهدتي وأنا أفعل ذلك؟ سألغي القسم وأدجج مواده في الأقسام الأخرى. وبعد سنتين أنشئ قسمًا جديدًا بأعضاء هيئة تدريس جدد يكونون مهتمين بالتعليم والبحث العلمي أكثر من اهتمامهم بالحروب التافهة بينهم. هيئة تدريس غير متورطة في فساد أو إدمان أو استغلال جنسي والآن ربما القتل. هذه فرصتكم الأخيرة؛ بين الآن والتاسعة صباحًا. في تمام التاسعة سأتصرف وفقًا لما تفعلون!

عاد ذلك الصمت الفريد مرة أخرى. لكنه هذه المرة كان مصحوبًا بشيء آخر، كأنه بداية ذوبان الأشياء الصلبة في الشرفة، بداية انهيار. لم يقل أحد شيئًا أو يفعل شيئًا. لم ينظر أحد لزميله أو لروبرتا. لكن الشعور بالهزيمة كان معلقًا في الهواء.

- سأترككم تفكرون في الأمر. هذا موضوع جيد
لا تتجاعكم، أليس كذلك؟

ثم، دون انتظار رد:

- وطبعاً أنتظر من كل منكم تعاوناً كاملاً وبنية حسنة
مع التحقيق، بلا مواربة ولا استنصاح. وإن شك أحد
منكم فيما يجب عليه فعلاً فليسأل لبنى. أتمنى أن تصدق
على حالتكم مقولة «الليل ناصح حكيم».

ثم خرجت بهدوء دون أن تصفق الباب خلفها؛ لم تكن
بحاجة إلى ذلك. تمتت نايلة أبو ذكري:

- صحيح ما قدرش على الحمار قدر على البردعة!

رد ياسر:

- هو مين الحمار ومين البردعة يا بنت أبو ذكري؟

لم ترد، وكالعادة لم يهتم أحد بما قالته.

* * *

بحلول منتصف الليل كان الخبير الجنائي قد رحل عائداً
إلى إدارة البحث الجنائي ومعه الأدلة والعينات التي رفعها
من مسرح الجريمة إضافة إلى بصمات أعضاء القسم. في

نفس الوقت كانت جثة يارا رفيقي قد وصلت إلى المشرحة حيث ينتظرها الطبيب الشرعي. أما عصام فعاد إلى منزله قرب دوران شبرا لينال قسطاً من النوم قبل عودته في الصباح لاستئناف التحريات والاستجواب. في مساكن الجامعة كان مروان جالساً في شرفة غرفته يحدق في الظلام المحيط؛ لا يستطيع النوم. أحداث اليوم لا تفارق ذهنه، وصورة يارا القتيلة، ملقاة على مكتبها بلا روح، لا تفارق عينيه. فكرة أن يارا زميلته وصديقتها السابقة قد ماتت لا تفارق تفكيره. لا يعرف كيف يتعامل مع هذا الكابوس: ماذا تعني هذه الوحشية الكامنة لدى أناس يبدوون عاديين مثل سائر البشر؟ أم أن الوحشية كامنة في سائر البشر كما يقول ياسر؟ كان يروح ويحيى بين هذه الأفكار والصور حين سمع دقاً خافتاً على باب غرفته. ذهب ناحية الباب ببطء وانتظر قليلاً، فعاد الطرق انخافت مرة أخرى. نظر من «العين السحرية» فوجد لبني واقفة تلتفت حولها. فتح الباب فدخلت مبتسمة تحمل طعاماً:

- أكلت؟

- لا.

- جبت لك أكل.

- شكراً.

جلست لبني على أحد المقاعد ووضعت الطعام على المنضدة الصغيرة الموجودة بوسط الغرفة، ثم بدأت تخرج الطعام وتضعه في أطباق. كانت تفعل ذلك وهي تحكي بقية أحداث اليوم منذ تبادلًا آخر رسالة، وتصرف بأريحية تامة كأنهما يعيشان معًا. مروان، مرتبك ويغمره الحرج، لا يعرف ماذا يفعل. سعيد بوجودها، لكنه يشعر بعدم ملاءمة ذلك. هو أستاذ بالجامعة وهي أصغر منه بكثير، ربما بعشر سنوات. صحيح أنها موظفة لا طالبة، لكنها تكاد تكون في حكم الطالبة. لو سأله قبل مجيئها لاعتذر عن استضافتها، ولربما قال لها مازحًا إن مجيئها إلى غرفته في نصف الليل لا يتفق مع روح الزمالة الجامعية. لكنها لم تسأل، بل جاءت ودخلت وكأن ذلك أكثر الأشياء عادية، وتصرف الآن مثلها يتصرف أي زميلين يتقاسمان مكتبًا أو قاعة في الجامعة خلال اليوم. وبالتالي لو قال لها شيئًا عن عدم الملاءمة سيبدو وكأنه هو الذي يحمل أفكارًا لا تليق بالزمالة بينهما. لكن ماذا لو رآها أحد وهي قادمة إلى غرفته أو حين تغادرها، أو سمع صوتها؟

- أسئلة صعبة، مش كده؟

أفاق من ارتبائه وتردده على صوتها. كانت تحكي شيئًا ما عن التحقيق وروبرت - لم يسمع معظمه. أو ما تلك الإيماءة التي لا تعني الموافقة أو الرفض. نظرت له مليًا ثم سألت:

- انت كويس؟

- لا.

- ولا أنا.

صمتا هما الاثنان. ثم تحدث مروان:

- شعوري بالصدمة مركب. من ناحية مخضوض جداً،
ومن ناحية مش حاسس بحاجة، كأن موت يارا مش
حقيقي، مقلب أو حد يمثل إنها ماتت.

- من ناحية ماتت هي ماتت، وفي المشرحة.

- آه، بس مش مستوعب لسه. فاهم إن ده حصل بس
كأن إحساسي لسه ما يجلس الموضوع.

- فاهمة. يقولوا الحاجات دي بتاخذ وقت لغاية ما
تخبطك على دماغك بجدة.

- الله يطمئنك.

- إوعى تكون زعلان مني؟

- اشمعني؟

- عشان قلت لروبرت على اجتماعكم - قصدي انتجاعكم!

- مش زعلان، لكن مش عاجبني إنك تستعملي حاجة
قلتها لك بيني وبينك.

- ما تجبكهاش والني، هي كده كده كانت هتعرف
وتفشخ تميم. وهو يستاهل الحقيقة.

- هم أحرار مع بعض؛ بس مش عايز أبقى جزء من
الخرافة.

- انت كده كده جزء من الخرافة يا دوك، انت بس اللي
مش واخد بالك!

تحدثا لبعض الوقت عن الجريمة، والتحقيق، وما يمكن
أن يحدث. ثم قالت لني إن قتل يارا يبدو وكأنه نتيجة
طبيعية لكل مشكلات القسم.

- مش للدرجة دي، مش لدرجة القتل!

- انت اللي متفائل زيادة عن اللزوم.

- انت اللي متشائمة زيادة عن اللزوم. صحيح إن القسم
وربما الجامعة كلها عايشين في القرن الماضي ومحتاجين
يغيروا فلسفتهم كلها، لكن مش معنى كده...

- بلا فلسفتهم بلا نيلة يادوك! دي جامعة موبوءة، لا
علاج لها إلا لو غيروا كل العاملين، وهيئة التدريس،

والمناهج، والطلبة، وبرضه يا صابت يا خابت!

- ومشروعات روبرتا.

- أي كلام. لو فاكدة نفسها هتصلح الجامعة فعلاً تبقى عبيطة، ومتيألي ست زي دي - بالخبرة في الأماكن اللي اشتغلت فيها دي - مش عبيطة. غالباً هي فاهمة إن الجامعة لا هتصلح ولا نيلة بس بتضبط نفسها، بتعمل أوضاع جديدة أفضل لها وللمجلس الإدارة اللي جايها. وبالتالي انت وأنا وكل واحد فينا مفروض يشوف الوضع اللي يحقق مصلحته ويرشق فيه. ده اللي بيعمله تيم، وياسر وتهاني وكل اللي في الجامعة، مفيش حد عبيط غيرك يا دوك!

ضحك وقال إن إيمانها بأنانية البشر وتفوق الشر مدهش، وردت أن إيمانه بإمكانية انتصار الخير هو الأمر المدهش. قال بجدية إنه مدرك للشر وللأنانية وكل هذه الأشياء البغيضة، هو ليس عبيطاً وساذجاً مثلها تظن هي وتيم ويارا وغيرهم. هو يعلم جيداً «الله وين حاطه»، لكنه أيضاً مؤمن بأن كل إنسان في نهاية الأمر به جانب طيب. وأن جميع الناس يشبهون بعضهم بعضاً في أعماقهم؛ كلهم يريدون الشعور بالتحقق، وبالاحترام، وبالحمية، وبعدالة نصيبهم مقارنة بغيرهم. غياب أحد هذه الأمور هو الذي يدفع الناس إلى السيطرة والحقْد وإيذاء بعضهم بعضاً. نظرت إليه مطولاً وقالت إنه إما نصاب محترف وإما الشخص الوحيد النقي بالقسم، ومن طبيته ونقائه يظن أن الجميع مثله أو قابلون لأن يكونوا مثله لو ظروفهم تحسنت.

ضحك وقال إنه يفضل أن يكون نصاباً محترفاً.

- لا صحيح، انت بتتكلم وتتصرف كأنك مش مصدق
إن الناس ممكن تبقى شريرة ووضيعة.

- لا مصدق إنهم ممكن يبقوا وضيعين، بس برضه ممكن
يتغلبوا على الوضاعة دي.

- أنا مش فاهمة انت إزاي من طنطا، انت عامل زي ما
تكون متربي في مسلسل أمريكي من اللي شخصياته متفائلة
ومعتقدة إن الناس كلها طيبة، حاجة كده.

- دي مش حاجة مرتبطة ببلد معين، أنا بس حظي
كان كويس؛ ظروفى أتاحت لي قدرًا لا بأس به من
التحقق والاحترام والاطمئنان، وبالتالي ما عنديش دافع
للحقد والسيطرة وما شابه ذلك.

صمت وظلت صامته وهي تنظر إليه مطولاً. ثم بدأت
نظرتها لتتغير، كأنها تستسلم في رأسها لفكرة كانت تقاومها،
كأنها ترق. نظر إلى وجهها القريب من وجهه وارتبك
أكثر. هذه النظرة مختلفة عن نظراتهما المعتادة، الآن، في
هذه اللحظة، تعبر إلى منطقة جديدة، دافئة، تكاد تكون
حميمة. خفق قلبه كأنه يغوص. هذه هي اللحظة التي كان
يتمناها، ويخشأها في نفس الوقت. نظر لها، أو بالأدق
أراح نظرتة في عينيها، كأنه يسند نفسه إليها. انفتحت
مساحة بينهما لم تكن موجودة من قبل، مساحة يمكنهما

الدخول إليها، الآن. فقط لو لمسها، لو أمسك بيدها الممددة على مسند المقعد الملتصق بمقعده، لو لمس أصابعها بأصابعه وجذبها قليلاً ناحيته لالت إليه واستقرت في كفه ودست أصابعها الرقيقة بين أصابعه. لو قرب وجهه من وجهها أكثر، عدة سنتيمترات فقط، للمس وجهها الذي ينظر إليه هذه النظرة المستكينة، للمس هاتين الشفتين اللتين ترتجفان الآن. يعرف ذلك، يشعر بهذا التوتر بينهما، يشعر بالمساحة التي انفتحت بينهما وبالحاجز الشفاف الذي يفصلهما ويشعر بها تنتظر منه أن يزج ذلك الحاجز بيده. لكنه يتردد؛ قد يكون مخطئاً، قد تكون هذه مشاعره هو أو أوهامه. سينتظر قليلاً، سينتظر حتى يتأكد تماماً.

- طيب أنا وعبيط. انتِ ليه مؤمنة إن الناس سيئة إلى هذه الدرجة؟

- انت لو كنت بنت، وحلوة شوية، كنت عرفت.

- للدرجة دي؟

- تحب تعرف؟

لم يكن متأكداً أنه يريد الخوض في ذلك لكنه شعر ألا محيص عن الإجابة بنعم. ابتسمت بمرارة وقالت:

- والله مش عارفة أبدأ منين!

لم يرد فاستطردت هي، بالإنجليزية. حكت عن الإيذاء الذي تعرضت له منذ التحقت بالجامعة وهي في الثامنة عشرة. قالت إن الموضوع في حالتها لم يكن تحرشاً تقليدياً بمعنى أن يطلب منها أستاذ إقامة علاقة جنسية معه مقابل درجات، بل أسوأ. كان الموضوع إيذاء نفسياً بالأساس:

- الأستاذ الذي هو في نهاية الأمر شخص بالغ، ضعف عمرك تقريباً، ويتظاهر أنه يحبك، يستغل حاجتك للحب والاحتواء والحنان وانت في الثامنة عشرة، ويستغل براءتك وبلاهتك وعدم قدرتك على التمييز بين أنواع المشاعر المختلفة، من أجل أن يوقعك في شباكه، ثم يأكلك. قانوناً، العلاقة بينكما تمت بالتراضي، لكن الحقيقة أنه يستخدمك. وطبعاً تقول لنفسك إنك مخطئ، تكذب نفسك وعينيك وعقلك وتستمر في الإنكار. تصبح أنت الذي يحاول حماية هذه العلاقة المؤذية والحريص على استمرارها في حين يهرب الآخر منك. وحين ينتهي منك يبصقك، يلقي بك في القمامة. ساعتها نتأكد أنك كنت مجرد وجبة - طبق اليوم، أو حتى منديل ورق. وسيطر عليك هذا الشعور بالانتهاك وبانعدام القيمة. وحين يتكرر هذا، حين ينظر إليك كل رجل تقابله هذه النظرة التي تعرفها، أو يقول لك مقدمات الكلام الذي تعرف إلام سيقود، تترسخ لديك هذه المشاعر السامة ويترسخ لديك الاعتقاد بوضاعة كل من حولك.

- هل كان الجميع هكذا؟

- بلا استثناء!

- ولماذا لم تبلي، أو تشتكي؟

- لأنني قانوناً كنت موافقة. ولأنني رأيت ما حدث لمن اشتكى. لأن الكل إما متورط أو متواطئ يريد تفادي المشاكل. لأن مواجهة هذا تتطلب الإطاحة بالجامعة ومن فيها.

صمتت لحظات ثم أضافت، بصوت أكثر انخفاضاً ولهجة أكثر سواداً:

- أيضاً لأن المشكلة ليست في الجامعة فقط. حتى البيوت ليست آمنة، من يفترض فيه حمايتك أحياناً يكون مصدر الأذى.

تردد مروان قليلاً قبل أن يسألها عن تقصد بالضبط. صمتت قليلاً ثم قالت ببطء ودون أن تختلج في وجهها عضلة واحدة:

- ماذا لو كان أبوك، الذي يفترض فيه حمايتك، هو من يؤذيك؟ ساعتها ماذا تفعل؟ أين تذهب؟

صمت مروان تماماً وجمد في مكانه. لم يكن مستعداً لهذا.

- يا للهول. أنا آسف، لم أقصد.

لم ترد لبنى. ظلت تنظر إليه بهذا الحياء الخفيف. سأل مروان:

- ماذا تفعلين في مثل هذه الحالة؟ كيف تعيشين؟

- تقتل إحساسك. تخدر مشاعرك أو تخصصها بحيث لا تشعر بالألم بعد ذلك. ثم تتوقف عن الشعور بأي شيء. وبعد ذلك تتعاش. تبحث لنفسك عن زاوية تختبئ فيها أو ترتب ما يحميك. تظل تتوقع الأسوأ، هذا لا يتغير أبداً، وهو دائماً يأتيك. ومع الوقت تتعلم وتعرف ماذا تمنح وماذا تمنع ولمن ومتى. مثل بقية الناس، مثلها تفعل روبرتا، مثلها يفعل تيم. البديل الآخر هو المخدرات مثل المرحومة!

صمت مروان. لم يكن هناك ما يقال. واصلت لبنى الحكى؛ بأمثلة من تجاربها مع زملائه، بالتفاصيل، بالأسماء. كان ينتظر أن تبكي ويسأل نفسه عما سيفعله عندئذ، لكنها لم تدمع مرة واحدة، ولا حتى بدا عليها التأثر. كانت تحكي قصصاً مريعة بحياد كأنها حدثت لشخص آخر، كأنها لم تدمر روحها، لم تخصص مشاعرها مثلها قالت. تحكي وتنظر إليه بثبات، وأحياناً بسخرية. ثم توقفت عن الحكى وقالت - بالعربية:

- عرفت ليه باقولك انت مختلف؟

قالتها ونظرت إليه نفس تلك النظرة الجديدة. أخذ نفساً عميقاً ومد يده نحو يدها. ربت عليها عدة مرات وهو

يحبس مشاعره داخله ليجعل ملمس يده محايداً قدر
الإمكان:

- ياللا، الوقت اتأخر ولازم تصحي بدري عشان حضرة
الضابط هيبقى مستنيك.

نظرت إليه مستفهمة، فابتسم ابتسامة محايدة وقام نحو
الباب وفتحه لها كي تخرج.

الفصل الثالث

أكوام الزبالة

استيقظت لبنى على صوت تليفونها یرن بلا توقف. فتحت عینها ونظرت إلى ساعتها: التاسعة. ردت.

- نعم

- انت فین یا آنسة؟ بقالي ساعة باكلهك؟ وفین الإیميلات؟

- إجابة السؤال الثاني بتجاوب على الأولانی

- إيه؟

- أنا سهرت أترجم أم الإیميلات لغاية خمسة الصبح. عشان كده راحت علي نومة وماباردش عالتليفون.

- وانت بتصحی نئلامضي كده على طول؟

- أنا بس بانجز.

- ماشي، ممكن تنجزی طيب وتجيبي الإیميلات؟

- هاطبع ترجمتها حالاً. خليك عند الطابعة اللي في القاعة الملحقة.

- مش فاهم. انت فين؟

- أنا في أوضتي في مساكن الجامعة.

- طيب مش هتيجي تطبعي الحاجة؟

- يا حضرة الضابط مش لازم آجي؛ هاطبعها من عندي في الطابعة اللي عندك.

- هو ينفع؟

- أيوه يافندم! عقبال عندك العلم قزح!

قالت ذلك وأغلقت الخط وأعطت أمر الطابعة. نظرت إلى تليفونها لترى إن كان هناك رسائل من مروان. لا شيء. قامت وتوجهت إلى الحمام. في نفس الوقت، وقف عصام بجوار الطابعة يجمع الأوراق التي تخرج منها. اتصل بلبني ثانية.

- أفندم!

- الطابعة اشتغلت!

- ألف مبروك.

- هم كام ورقة؟

- ١٥ .

- وعندكم قهوة أو شاي؟ أو مكان فيه ساندوتشات؟

- فيه ماكينة قهوة وشاي. ممكن أخلي نايلة تبعتك حد يشغلها لو مش عارف.

- لا بسيطة أنا هاشغلها، مش حمار للدرجة دي يعني.

- العفو يا فندم. والنهارده الجمعة فبتاع الساندوتشات قافل، بس ممكن نايلة تبعت تجيب أكل من بره.

- آه ياريت، وللعساكر والمخبرين كان.

- حاضر. حاجة تانية حضرتك؟

- آه، وحياتك خليم يوطوا التكييف شوية، هنتشف من البرد!

قال هذا وهو يشرع في القراءة، قالت لبنى شيئاً لم يسمعه لأنه أغلق الخط وسط كلامها. جمع الأوراق وتأكد من عددها ومن توقف الطابعة ثم سار ناحية شبايك القاعة وفتحها الواحد تلو الآخر. درجة الحرارة في الخارج مثالية، لكن الشبايك صغيرة إذ تحيط بها مشربيات خشبية ثابتة.

شكلها حلو لكنها تجعل فتحات الشبايك ضيقة جداً.
جال بخاطره أن هذا مثال جديد يؤكد مذهبه بأن الشياكة
ليست دائماً عملية. فتح كل الشبايك التي وجدها. ما
زال البرد الآتي من التكييف مسيطراً. جلس أسفل أحد
الشبايك وبدأ في القراءة.

* * *

الخميس. الواحدة ظهراً

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

عزيزتي يارا

ماذا حدث؟

لم أتوقع هذا منك. حقيقي أنا مصدوم.

لماذا؟ هذا سؤال حقيقي؛ لم تفعلين هذا؟ هل أغضبتك
في شيء؟ أستعيد ما فعلته خلال السنة الماضية ولا أجد
فيما أتذكره شيئاً يمكن أن يكون قد أغضبك. فمن أين أتى
هذا؟

* * *

الخميس. الواحدة وعشر دقائق

من: يارا رفيقي

إلى: تميم نسبية

الموضوع: اجتماع اليوم

تميم

هل أنت جاد؟ هل هذا فعلاً سؤال حقيقي؟ أعرف أن الناس تفقد ذاكرتها مع تقدم السن، ولكن يبدو أنك تفقد عقلك نفسه؛ خلايا المخ ربما أصابها ضمور؟ ربما هذا هو تفسير كل الأشياء الغريبة العجيبة التي تأتي بها منذ سنوات. وأنا ساكتة لأنني محاطة ببلهاء أكثر منك عتياً. لكن أخيراً ظهر أحد يحمل داخل رأسه عقلاً يعمل، فهل تستغرب أن أمسك بهذا الشخص وأحاول تخليص نفسي من هذا الجنون؟

لماذا لا تسأل طالبتك السابقة، زميلتي السابقة التي تزوجتها، ربما تستطيع شرح الموضوع لك. ربما في لحظة صفاء ما بعد الجنس يكون عقلك مفتوحاً وتفهم.

آه عفواً، نسيت أن الرجال يفقدون قدرتهم الجنسية في
سنتك هذه. إذن ربما لا أمل في إفهامك!

يارا

* * *

الخميس. الثانية بعد الظهر

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

يارا

واضح أنك غاضبة، أو لعلك تحت تأثير المخدرات مرة
أخرى. ألم ينجح برنامج إعادة التأهيل هذه المرة أيضاً؟ أم
هناك شيء آخر؟ هل هو الحرمان العاطفي؟ هل تركك
ذلك الطالب ثانية وعاد إلى صديقته الشابة؟ ألا يوجد
طلبة آخرون في فصولك يمكنك إقناعهم بالنوم معك؟
أترين. مشكلة التقدم في العمر تصيب كلاً منا بطريقة
مختلفة.

لكني متأكد أن هذه التأثيرات كلها لن تعميك عن

مصلحتك، وبالتالي أدعوك لترك الغضب جانباً والإجابة على سؤالي: لم تفعلين هذا؟ هل أضرت بمصلحتك في شيء؟ ألم أقف بجوارك وأحميك خلال كل هذه الكوارث التي حاقت بك هذا العام؟ والأعوام السابقة؟ تعالي نلتقي لتحدث وجهاً لوجه بدلاً من الإيميلات.

تميم

* * *

الخميس. الثانية وأربعون دقيقة

من: يارا رفيقي

إلى: تميم نسبية

الموضوع: اجتماع اليوم

لا شكراً.

الحقيقة إني لا أريد رؤية وجهك ولا سماع صوتك. كلاهما يصيبني بالغثيان: ملامحك وأنت تتحدث؛ عيونك التي تضيق وصوتك الذي يخفت حين تحيك المؤامرات التافهة التي تسيطر على حياتك. رائحة فمك وأنت تتكلم، صوت أنفك وأنت تشفط الهواء كأنك ستمخط، كل شيء تفعله يثير في الغثيان. هل فهمت؟

لقد تحملتك لأكثر من عشرين عاماً. تحملتك وأنت واطي وتحملتك وأنت تدعي النبل. تحملتك وأنت تتحرش بي باسم التحرر وتحملتك حين تركتني وتزوجت زميلتي المتزمتة. تحملتك وأنت تتآمر على زملائك وتحملتك وأنت تدعي النضال باسمهم. تحملتك وأنت تتافق رئيس الجامعة وتتآمر عليه وتحملتك وأنت تدعي اضطهادك بسبب مبادئك. تحملتك وأنت تلهث خلف التمويل الأجنبي وتحملتك وأنت تهاجم الممولين حين انصرفوا عنك وتتهم من خلفوك في تلقي المال منهم بالعمالة. تحملتك وأنت تهددني بوظيفتي إن عارضتك وتحملتك وأنت تدعي رعايتي وأبوتي الروحية. تحملتك وأنت تتخلص من كل زميل أو زميلة فيهم الرmq، وتحملتك وأنت تشتكي من تدني المستوى. تحملتك وأنت تهددني بتدمير مستقبلتي إن حاولت العمل بمكان آخر، وتحملتك وأنت تمنّ عليّ بوظيفتي بالقسم. تحملتك وأنت توجه عملي دون أن تعرف عنه شيئاً. تحملتك وأنت تستغني لمساعدتك وكتابة الأبحاث التي توقعها باسمك، ثم تحملتك وأنت تلومني على عدم اهتمامي بالبحث والنشر.

هل تستغرب لجوئي إلى المخدرات؟ لقد كنت أشبه بالأسيرة لديك؛ عبدة حديثة. كيف كان يمكن لي تحمل كل هذا؟

والآن ظهر من يراك على حقيقتك، أو بالأدق ظهر من يهتم بفعل شيء إزاءها. وحتى لو لم يكن هدف روبرتا إصلاح القسم، لو أن هدفها هو مجرد إزاحتك، فهذا

يكفيني. مجرد إزاحتك ستشعري بالقدرة على التنفس مرة أخرى، وربما ساعتها أستطيع التخلص من العاهات التي دفعتني إليها دفعاً.

هذا هو ما حدث.

أتعشم أن أكون قد أجبت على سؤالك.

يارا

* * *

الخميس. الثالثة بعد الظهر

من: تميم نسبية

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

عزيزتي يارا

لا داعي لاجترار عشرين عاماً من الشكاوى كي تبرري طمعك - أو لنقل طموحك. لوجه الله، لا داعي للتصرف كالأزواج الذين يرجعون كل صغيرة وكبيرة إلى عشرين عاماً من المعاناة المتهمة. لا أريد الانزلاق في هذا الطريق؛ لا أريد تذكيرك بكل ما فعلته لأجلك

عبر عشرين عاماً؛ يعلم الله أي مصير كان ينتظرك لولا مساعدتي ورعايتي، سواء زمان وأنت طالبة لا تعلمين ماذا تفعلين بنفسك وتبحثين عن أب تلومينه على نقائصك أو الآن وأنت توشكين على تدمير نفسك - وما بينهما من مشاكل وفضائح لم تكوني لتخرجي منها دون تدخل. لكني لا أريد الخوض في هذا.

ما أود تذكرتك به هو أنه لا شيء يمكنه إدانتني دون أن يدينك في نفس الوقت. أنا لم أدر هذا القسم عبر عشرين عاماً دون معونتك، التي أقدرها وأشكرها عليها - على عكسك. ليس هناك قرار واحد اتخذته دون موافقة لجنة كنت أنت عضوة فيها. أنا لست أبله، وأعترف تقليات مزاجك - من قبل المخدرات بزمان (على فكرة، لا تلوميني أبداً، بل لا تلومي الظروف، على إدمانك. المدمن لديه مشاكل أعمق تدفعه إلى الإدمان؛ أستاذة عظيمة مثلك يجب أن تكون عارفة بهذا الشيء). ومنذ معرفتنا الأولى وأنا أرى فيك هذا السلوك الإدماني (لهذا ما زلت تلوميني على اختياري للزواج الذي ترينه تخلياً عنك بدلاً من قبوله كاختيار حر لشخص عاقل وبالغ).

باختصار أريد منك تذكر أمر واحد: أن حياتك في هذا القسم، بل حياتك كأستاذة جامعية، تعتمد عليّ؛ على رضائي عنك، دعمي لك، وحمايتك من الأذى. فكري جيداً، بعقلك لا بأحلامك وطموحك. روبرتا لن تحميك إن اكتشفت ما لا تعرفه عنك بعد. يؤسفني اضطراري لإبلاغك بما كنت أظنه واضحاً لك: أنت لن تصبحي أبداً

رئيسة لهذا القسم، بل لن تبقي أستاذة لا بهذه الجامعة ولا
بأي جامعة أخرى إن رفعت عنك حمايتي.

المخلص دوماً

تميم

* * *

الخميس. الثالثة وعشر دقائق

من: يارا رفيقي

إلى: تميم نسبية

الموضوع: اجتماع اليوم

تميم

يبدو أنك لا تفهم عمق كراهيتي واحتقاري لك،
وربما لنفسي أيضاً لأنني قبلت الانقياد لخوفي منك كل
هذه السنوات. ولا ألوّمك على هذا، فأنا نفسي لم أدرك
عمق اشمئزازي من شخصك الكريه إلا حين لاح لي أمل
التخلص من قبضتك على حياتي. الوقت فات يا تميم على
التهديد؛ لقد كسرت الإشارة ولن أعود أبداً لحظيرة
«رضاك عني». سأساهم في تدميرك، حتى لو كان الثمن

تدمير نفسي. في الحقيقة إن ذلك سيكون عدالة شعرية لا
تخلو من جمال - خير وسيلة نختم بها تاريخنا المشين.

كسمك دوماً

يارا

* * *

الخميس. الثالثة والرابع

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

يارا

كُفّي عن هذا العبث، أنت لست مراهرة الآن. وتعرفين
جيداً أن هذه الجامعة عبارة عن مزبلة كبيرة، كل شخص
يجمع لنفسه كومة منها ويجلس فوقها، وهذا القسم كومتني،
وبدونني لن يكون له وجود. كل هذا الوقت وأنا أحملك
وأنت تشتكين وتتلبللين كالمراهقين كأني أنا المشكلة، كأني
لو اختفيت ستتحسن حياتك وتجدين الحب الذي تفتقدينه
والنجاح المهني الذي تفتقدينه والمؤسسة العظيمة التي

تحملين بها. كُفي عن هذا العبث؛ لو لم أكن أنا موجوداً
لكنت أنت جزءاً من كوم زبالة يجلس فوقه شخص آخر،
لا أكثر.

تميم

* * *

الخميس. الثالثة والنصف

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

يارا!

* * *

الخميس. الثالثة وخمس وأربعون دقيقة

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

* * *

الخميس. الرابعة بعد الظهر

من: تميم نسيبة

إلى: يارا رفيقي

الموضوع: اجتماع اليوم

أنا قادم إليك.

* * *

وضع الرائد عصام ترجمة الايميلات جانباً وعاد بنظره
إلى القاعة. كانت لبني قد عادت واتخذت موقعها المعتاد
خلف الكمبيوتر. نظر إليها مطولاً:

- إيه ده؟

- دي آخر رسائل على بريد د. يارا.

- مفهوم. بس هو ده طبيعي؟

هزت كتفها ولم تجب.

- يعني هو الوضع عندكم كده؟ أكوام زباله؟

- هو حضرتك متخرج منين؟

- أكاديمية الشرطة.

- أنعم وأكرم. أكيد عندكم الوضع مختلف تمامًا!

- لا بس دي الجامعة الأمريكية! انتِ كنت عارفة
الحاجات دي؟

- أنا عارفة كل حاجة. أنا متخرجة من مزبلة الدكتور
تميم!

- أنعم وأكرم فعلاً!

- حضرتك كنت فاكر إيه أمال؟

- مش عارف والله. بس دي مفروض من أنصف
الحتت اللي في البلد.

- تخيل حضرتك!

- وفي حد يحط الكلام ده في إيميل؟

- آه. عادي. من فترة كان في رسائل شبه دي، بس بين د. يارا وواحدة تانية مشيت، وكانوا مدخلين القسم كله في التوزيع، ورئيس الجامعة كان.

- فعلاً؟

- آه والله حصل. لو عايزهم عندي لسه نسخة على إيميلي. من كام شهر برضه كان د. ياسر بيعت إيميلات يتخايق مع زميله اللي ماسك الدراسات العليا كل أسبوع ويحط الطلبة كلهم في التوزيع!

- فعلاً؟

- آه والله؛ #حدث_بالفعل، كان شايف إن دي ديمقراطية وإن استبعاد الطلبة من الايميلات ممارسات نخبوية.

- فعلاً؟

هز عصام رأسه وعاود فحص ترجمة الإيميلات، ثم طلب رؤية الأصل. أخرجت لبنى نسخة مطبوعة من الإيميلات الأصلية وناولتها له. نظر لها بسرعة ثم طلب رؤية الأصل على الكمبيوتر. نظرت له مستفسرة، فرد النظرة بمثلها:

- أنا أي نعم ما معايش لغة، بس أعرف أسلك نفسي.

قامت وهي تتم بأصوات متبرمة وأحضرت الكمبيوتر ووضعت أمامه وجلست بجواره. ارتطمت ساقه السمينة بساقها لكنها لم تحركها. لم تكن متأكدة إن كان قد ارتطم بها عامداً. ظلت جالسة دون حركة ثواني إضافية وهي تنظر إليه بينما يدق النظر في الشاشة. لا تعرف ما إذا كان ينظر لشيء معين أم يتظاهر. ضيق عينيه وهو يمعن النظر فتغيرت ملامح وجهه قليلاً. فكرت لئني أنه لا بأس به؛ يحتاج إلى إنقاص وزنه حوالي سبعة كيلوجرامات، وأن يتخلص من هذا الكرش، لكن وجهه لا بأس به. به مسحة طيبة وذكاء يخففان من العنجهية التي تلبسه حين يتحدث. شعرت به يحرك ساقه في إحراج فسحبت ساقها بهدوء وهي تشير إلى الرسائل المتبادلة وتناوله الترجمة مع كل إيميل. ظل بصره يتنقل بين الشاشة والنسخة المطبوعة والترجمة حوالي عشر دقائق ولئني تشغل الوقت متنقلة بين فحص ملامحه وبين العبث بتليفونها.

- معلش هو حضرتك بتعمل إيه؟ بتراجع الترجمة مثلاً؟

- لأ، بس باشوف حاجة.

صمتا عدة دقائق ثم قال عصام ببطء:

- ممكن أشوف الصور؟

- أفندم؟

- الصور، مش دي صور تبع الجامعة ولا ده كمبيوتر
شخصي لحضرتك؟

- الجامعة.

- طيب أحب أشوف صور للجامعة؛ أي صور،
لاجتماعات، افتتاح حاجة، أي حاجة فيها صور الناس
اللي شغالة.

- اللي في القسم؟

- وعموما اللي في الجامعة.

هزت لبني كتفها في عدم اكتراث وانخت بجواره
على الكمبيوتر وعبثت بالأزرار لبعض الوقت، خلالها
ظل عصام يتأمل تفاصيلها القريبة منه وعلى وجهه شبح
ابتسامة. دقائق وقالت لبني:

- اتفضل، تقدر نتفرج على الصور اللي في الملف ده.

- شكراً. كان سؤال؛ أبواب المكاتب والقاعات دي
بنتفتح بكروت. هل بيانات الفتح والقفل متسجلة؟

- طبعاً.

- فين؟

- في إدارة الأمن.

- طيب له محدش قالي؟

- ما أعرفش. متيألي اقترضوا إنك عارف.

- طيب من فضلك اسألي بدران أبو سره لو ممكن بيعتلي
بيانات امبارح لباب مكتب يارا والمكاتب الثانية اللي في
المبنى.

- حاضر. أي تعليمات ثانية؟

- آه. نادي على نايلة أبو ذكري.

- نايلة؟ ودي عايزها في إيه؟

سألت لبني شبه مستنكرة. أوماً عصام برأسه دون كلام.
ظلت لبني تنظر له مستفهمة عدة لحظات ثم قامت وهي
تهز كتفها في لامبالاة وذهبت لتنادي على المديرية الإدارية
للقسم.

* * *

لم يستفد عصام كثيراً من حوارهِ مع نايلة. دافعت
نايلة بشدة عن تميم، كما أبدت تفهماً وتعاطفاً إزاء يارا
و«المشاكل التي تمر بها منذ فترة». أقرت بوجود «أوضاع

غلط»، لكنها قللت من أهميتها وبررتها بالظروف، مذكرة عصام بأن أي مكان به أخطاء. شعر عصام طول الوقت أن نائلة تتحدث وكأنها أمام كاميرا التلفزيون: حريصة ألا تغضب أحداً ممن تتحدث عنهم أو حتى من المشاهدين. وكلما حاول الضغط عليها بالأسئلة من جانب لاذت بإجابات عامة منكرة معرفتها بأي شيء محدد. عندما يئس من استخراج أي معلومة مفيدة منها صرفها.

- مابتقولش حاجة نائلة أبو ذكري دي.

- ماقالتلكش حاجة عالجمار والبردعة؟

- إيه؟

- ماتاخدش في بالك. ده مثل دائماً بتردده في الفاضية والمليانة. بس عالعموم مستحيل تطلع منها بكلام مفيد.

- ليه؟

- عشان مخها على قدها يا حرام، وأهم من كده إنها معرضة، كلامها دائماً في سكة مصلحتها.

- انتِ على طول لسانك قالت كده؟

- إيه خدشت حياء حضرتك؟ سألتني سؤال جاوبتك باللي عندي. مش عايز ردي ما تسألش.

- ماشي يا اختي. من فضلك قولي للمعاون إني عايزه،
ونادي الدكتور مصيبة ده أما نشوف إيه حكايته.

- هو مصيبة فعلاً!

دخل معاون عصام واتخذ موقعه مع دقتر المحاضر
وذهبت لبني للبحث عن تميم بينما أخذ عصام ينظر في
الرسائل مرة أخرى.

* * *

ظلت عينا الرائد عصام مثبتتين على وجه تميم وهو يقرأ
ترجمة الإيميلات المتبادلة بينهما. لم يرمش، لم تختلج في
وجهه عضلة. أنهى قراءة الإيميلات ثم نحاها جانباً ونظر
إلى عصام في استفهام. سأله عصام بينما كان معاونه
يدون الأسئلة والإجابات في المحضر:

- ما رأيك في هذه الرسائل؟

- الترجمة لا بأس بها.

- أقصد رأيك في مضمونها؟

- رأيي واضح في الإيميلات؛ الإيميلات كلها عبارة عن
آرائي. هل تريد مني شرحها؟

- إذا تكلمت.

- يارا زميلة قديمة، وقبل ذلك كانت طالبة لديّ، عانت دوماً من مشكلات، ودوماً كنت أساندها لأنها أستاذة جيدة وكل الناس لديهم مشاكل. لكن مؤخراً مشاكلها تفاقمت، ثم - كما ترى من الرسائل - وجهت محصلة مشاكلها وغضبها ناحيتي. وأنا أحاول تهدئتها وتعقيّلها.

- في إحدى الرسائل تشير إلى علاقة خاصة بينكما.

- كما قلت لك هي طالبة سابقة وزميلة صغيرة، علاقتنا أشبه بالأبوة من ناحيتي والبنوة من ناحيتها، ومثل كل ابنة يعني ذلك المشاغبة والغضب والاتهامات الباطلة من وقت لآخر.

- هل كانت بينكما علاقة جنسية؟

- في بداية معرفتنا فسرت رعايتي لها كأستاذ واهتمامي بها كطالبة واعدة بأنه حب، ولهذا غضبت عندما تزوجت من إحدى زميلاتنا.

- بشكل محدد، هل وقع بينكما اتصال جنسي في أي وقت من الأوقات؟

- لا، لم يحدث.

- يبدو من الرسائل أنها كانت تهددك.

- ليس لديها ما تهددني به.

- وأنت كنت تهددها.

- ليس تهديداً بالمعنى الجنائي إن كان هذا ما تقصده. هو تهديد أبوي لابنة نتصرف برعونة: إن لم تعودى للسلوك المذهب بابا سيأخذ منك التليفون ويجعل حياتك بأسة. تهديد مهني من رئيس قسم لأستاذة تسلك سلوكاً مدمراً بأنه سيتوقف عن دعمها وسيترتب على ذلك نهاية مستقبلها المهني. وهذه حقيقة، فلولا دعمي لها في السنوات الأخيرة لكنت الجامعة قد رفدتها.

- لماذا؟

- لأنها مدمنة مخدرات، وتأتي إلى المحاضرات والاجتماعات في غير وعيها وتفعل أشياء وتقول أشياء تعاقب عليها اللوائح والقوانين. وأيضاً كانت لها علاقات خاصة بطلبتها تتعارض واللوائح.

- ماذا تعني بعلاقات خاصة؟

- علاقات جنسية.

- مثل علاقاتك بطالباتك؟

- يا حضرة الضابط أنا تزوجت طاليتي، برضاها دون إرغام أو تحرش، وهذا من ثلاثين عاماً. يارا تقيم علاقات جنسية مع بعض طلبتها، وبعضهم قال إنها ضغطت عليهم أو أنهم حصلوا على درجات إضافية مقابل ذلك، وكل هذا يندرج تحت بند الاستغلال الجنسي.

- لكنك دافعت عنها، حميتها كما تقول.

- لم أحِمِ سوء سلوكها، لكنني شرحت للجامعة الظروف التي كانت تمر بها وساعدت الطرفين - الجامعة ويارا - على الوصول إلى حل يساعد الجميع؛ يارا التحقت ببرنامج للإقلاع عن الإدمان وإعادة التأهيل، والطلبة الذين اشتكوا تمت حمايتهم وعدم احتساب المواد التي درسوها معها.

- هل أغضبك تهديدها في الرسائل؟

- أغضبني شعورها العام بالجحود، لكن ليس هذا بجديد.

- لكن في هذا اليوم كان هناك خلاف محدد.

- نعم، حول أزمة مع رئيسة الجامعة دخلت يارا طرفاً فيها. لكن الجحود لم يكن جديداً.

- إذن لم تكن غاضباً بشكل زائد يوماً؟

- لا.

- هل ذهبت إلى مكتبها بعد آخر رسالة؟

- نعم، لكنني لم أجدها.

- كم كانت الساعة حين ذهبت؟

- لا أذكر تحديداً، لكنها كانت بعد دقائق من وقت إرسال الإيميل.

- أي بعد الرابعة عصراً بدقائق؟

- أتصور ذلك.

- ولم تجدها في المكتب؟

- لا.

- هل أنت متأكد؟

- نعم. ذهبت إلى المكتب ووجدته مغلقاً فاستنتجت أنها عادت إلى غرفتها استعداداً للانتجاع.

- استعداداً لماذا؟

- الانتجاع. ال retreat الذي كنا على وشك البدء فيه.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- سألت نائلة عنها وقالت إنها لم ترها، فذهبت إلى غرفتي لأستعد للانتجاع.

- لماذا لم تذهب للبحث عنها في غرفتها؟

- لا يصح. أنا حريص في تعاملاتي مع الزميلات والطالبات.

- لماذا تصف الجامعة بأنها مزبلة؟

- هذه طريقة بلاغية في التعبير، ربما خائني التعبير لكن المقصود أنها ليست مثالية.

- ليست مثالية بالفعل. هل لديك أقوال أخرى؟

- لا.

أغلق عصام المحضر في ساعته وتاريخه وصرف تميم.

* * *

ذهب عصام إلى مكتب البروفوست - د. عبد الرحمن صديقي - للحديث معه. لم يكن هذا الحوار استجواباً، بل مجرد دردشة - جزء من التحريات. لكن د. صديقي لم يكن أكثر إفادة من نائلة أو تميم. في البداية أنكر وجود

مشكلات من أساسه، وحين واجهه الرائد عصام بالرسائل المتبادلة بين تميم ويارا أقر بمعرفته بهذه المشكلات لكنه قلل من أهميتها. ظل يردد أن هناك مشاكل مماثلة في كل جامعة، بل في كل مؤسسة، وأن هذه هي الطبيعة البشرية، إلى آخر هذه القائمة المحفوظة. حاول عصام الحصول على مزيد من التفاصيل دون جدوى، كما فشل في معرفة رأي البروفوست الشخصي في الخلاف بين تميم ويارا ومن فيهما على حق. كان كلامه كله كالزئبق. الحقيقة أن عصام وجد د. عبد الرحمن نفسه يشبه الزئبق، برأسه التي تتحرك باستمرار فوق كتفيه الضيقتين ونظراته التي لا تستقر على شيء طويلاً ولا تقول شيئاً محدداً وابتسامته المرسومة على وجهه طيلة الوقت.

بعد خمس وأربعين دقيقة من الحوار العقيم، استأذن عصام خارجاً وعاد إلى مقره. واضح أن هذا التحقيق سيستغرق وقتاً أطول مما اعتقد في البداية. ربما كانت هذه الآتية الجميلة المشاكسة على حق، والجامعة الأمريكية لا تختلف كثيراً عن بقية الأماكن التي يعرفها. كلها عبارة عن طبقات من الأوضاع الخاطئة يغطيها بريق ما. وكلما نبشت السطح وجدت جثثاً مدفونة. تضايقه هذه الفكرة؛ كان يتعشم أن تكون الجامعة كما ظنها، مختلفة عن بقية الأماكن التي تعريها مهنته. هذه هي مشكلته؛ يعمل في مهنة تقضي على الأحلام.

روبرت - المحطة التالية لعصام - هي التي تحدثت معه بشكل واضح. سألها عن معلوماتها الخاصة بمشكلات يارا

وصراعها مع تميم - عن طريق لبني التي تولت الترجمة
كالمعتاد - فأجابته بلا تردد:

- هذه قصة بأسة، إحدى القصص البأسة التي وجدتها
حين توليت منصبى هذا منذ تسعة أشهر تقريباً. فى البداية
اعتقدت أن هذه خصوصية ثقافية.

قاطعها عصام - موجهاً كلامه للبني:

- استنى، قصدها إيه خاصة ثقافية؟

ردت لبني من عندها:

- خصوصية مش خاصة. يعنى عادات وتقاليـد مصدرها
الثقافة المصرية.

- هي إيه اللي عادات وتقاليـد؟ التحرش والإدمان
والجنس مقابل الدرجات؟

- ده سؤال لى ولا ليها؟

- ولا لىك ولا ليها، خلىها تكلم.

بعد عدة نظرات استفهامية وإشارة من يد لبني بعدم
أهمية ما دار، استأنفت روبرتا:

- أعرف أن الثقافة السائدة والتقاليد الدينية لها نظرة

معينة للمرأة وللجنس ولعلاقة الرجل بالمرأة، وأنا أحترم هذا. وأتفهم تأثيره على سلوك الرجال وكيف يفسرون سلوك امرأة غربية أو متأثرة بالثقافة الغربية، وأعتقد بوجود أخذ هذا في الحسبان عند التعامل مع قضايا التحرش وسوء السلوك أو ما نسميه نحن في الغرب بالاعتداء الجنسي.

- ما عندنا يرضه بنسميه اعتداء جنسي.

- عايزني أقولها الكلام ده ولا بتكلمني أنا؟

- ما تاخذيش في بالك، خليها تكلم.

هزت لبني رأسها متبرمة واستأنفت الترجمة:

- ولهذا تعاملت بحساسية وتفهم في البداية، مع حالة يارا وتميم ومع حالات أخرى مشابهة في الجامعة. لكن بعد فترة، وبعد مراجعتي لتاريخ المشاكل في القسم وجدت أن المسألة لا يمكن تفسيرها ولا تبريرها، لا بمعايير الثقافة الغربية ولا أي ثقافة. ما كان يجري في القسم، منذ سنوات، لا يمكن قبول حدوثه في أي جامعة تحت أي مسمى.

- ما الذي كان يجري؟

- ما تراه في هذه الإيميلات. ما تراه هنا مجرد عناوين

كل منهم وراءه قصة أسوأ من التي تسبقها. تميم الذي كان يتحرش بطلاباته منذ ثلاثين عاماً، وربما تدخل بعض أفعاله في باب الاعتداء الجنسي. الطالبة التي تزوجها حملت منه وهربت حتى وضعت طفلها وهددته بالفضيحة وعندها فقط تزوج منها. في الأثناء، أو قبلها لا أذكر، ربما الاثنين، كان على علاقة بيارا وهي أيضاً طالبة لديه. يارا نفسها حكّت لي أنها كانت تخاف منه ولذا قبلت بإقامة علاقة معه، وشعرت بالراحة حين تزوج بالأخرى لكنها ادعت الغضب كي تحاول قطع علاقتها به. لكنه بدلاً من ذلك عينها مدرس مساعد بالقسم - كنوع من التعويض أو الثمن. وقتها كان التعيين أكثر عشوائية بكثير من الآن. وهي طبعاً قبلت، وهكذا. من ساعتها والعلاقة بينهما عبارة عن ابتزاز متبادل، وإن كان تميم هو الأقوى. وسواء انقطعت علاقتهما الجنسية أم لا - لا يهمني أن أعرف - فإن هذا المزيج المريض من التحالف والابتزاز استمر طيلة هذه السنوات. يارا كانت كما تقول في رسالتها أسيرة لديه، لا تستطيع الفكّ منه لا عملياً ولا حتى نفسياً. وهو معتمد عليها لإحكام قبضته على من حوله في القسم وفي نفس الوقت يبدو كأنه يتلذذ بتعذيبها وإهانتها. وظلت هكذا حتى ظهرت أنا، كما تقول يارا في إيميلها؛ ما صدقت أن وجدت شخصاً قوياً ولديه من النفوذ ما يكفي لإزاحة تميم ليس فقط عن رئاسة القسم بل عن نفسها. جاءني واعترفت بتفاصيل كثيرة - أكثر من اللازم في الحقيقة - وكأنها تحاول تحرير نفسها من داخلها. ووعدتني بالتعاون الكامل وطلبت معونتي.

- لكن ما يبدو من الإيميلات، وما يقوله تميم، أن يارا كان لديها مشاكل أخرى، ربما أكبر، مع المخدرات ومع طلبتها هي نفسها.

- حقيقي. يارا لم تكن مرشحة لجائزة الأستاذة المثالية. كان لديها مشكلة إدمان لم تستطع التعامل معها؛ حاولت الإقلاع وإعادة تأهيل نفسها لكنها كانت تعود سريعاً للمخدرات. حدث هذا قبل مجيئي على الأقل مرتين - المثبتين في الأوراق - ومرة بعد مجيئي رغم تشجيعي ومحاولتي مساندتها.

- وعلاقتها بالطلبة؟

- هناك شكوى واحدة رسمية من أحد طلبتها السابقين، لكن الشائعات التي يتداولها الطلبة أكثر بكثير.

- استغلال جنسي؟

- نعم؛ تحرش واستغلال.

- وماذا حدث في الشكوى؟

- الشكوى حدثت قبل وصولي، وتعامل معها القائم بأعمال البروفوست، د. صدقي، وذلك بالتعاون مع تميم. تعاملنا معها لفظ غير دقيق، ما حدث أنهما طرحوا عليها. وفقاً لما فهمت، تميم أعطى الطالب الشاكي «عرضاً لا

يمكن رفضه». من ناحية يتم إعفاؤه من المادة التي تدرسها يارا وفي المقابل يسحب شكواه. الطالب رفض، وطالب باتخاذ إجراء عقابي ليارا وإجراءات وقائية لمنع تكرار ذلك في المستقبل. فهدده تميم بالرسوب في كل المواد التي يدرسها بالقسم - والتي يدرسها أساتذة مختلفون - إن أصر على الشكوى. في النهاية رضى الطالب وحفظت الشكوى. بعد ذلك لم يتقدم أحد بشكوى، لكنهم يتداولون قصصهم مع يارا في شبكات التواصل بينهم. وبعض هذه الأمور تصلني.

قالت هذا ونظرت إلى لبنى التي تحاشت نظرتها. واصلت روبرتا:

- أنا شخصياً حاولت دفع تميم للتعامل مع المشكلة؛ إيجاد منبر آمن للطلبة والطالبات للتقدم بشكاواهم. يجب وقف هذه الأفعال. لا يمكن السماح باستمرارها. لكن تميم كان تميم؛ «ليس هناك مشكلة»، «هناك مشكلة لكن تم حلها»، أو «هناك مشكلة ويمكن حلها» لكن الثمن هو بقاءه رئيساً للقسم وزيادة مرتبه. في النهاية لم يفعل شيئاً. مستحيل أن يفعل شيئاً لأن هذه كلها أدوات يسيطر بها على من حوله. هذا هو أحد مظاهر الداء الذي يأكل هذا القسم

- لكن واضح من كلامك ومن الإيميلات أن يارا لم تكن بديلاً أفضل لتمي، فما الفكرة من محاولة جعلها رئيسة للقسم بدلاً منه؟

- من قال إني كنت سأعينها رئيسة للقسم؟

- ما فهمته أنك دعوت القسم لاختيار رئيس بديل لتميم وكانوا سيفعلون هذا خلال الاجتماع، أقصد الانتخاب.

- يارا لم يكن لديها أي فرصة في رئاسة أي قسم بهذه الجامعة. يارا قد تكون ضحية تميم، وقد يكون كل منهم جعل الآخر ضحية له. هذه علاقة معقدة ليس لديّ لا الوقت ولا الاهتمام الكافيان لفهمها. الاثنان خراء؛ خراء في الشمس وخراء في الظل، والاثنان يجب التخلص منهما. لكن بطرق مختلفة. تميم قابض على زمام القسم ويمنع إصلاحه ومن ثم يجب الإطاحة به أولاً. أما يارا فكانت سألزيمها تدريجياً، بإرسالها للعلاج حتى تشفى - وهو أمر سيستغرق وقتاً طويلاً إن حدث، ثم بإحالتها للتقاعد. فهي غير مؤهلة ولا قادرة على أداء وظيفتها.

- لكن يبدو من الإيميلات أنها وتميم فهما أنها ستتولى رئاسة القسم بعده.

- هذه مشكلتهما لا مشكلتي. أنا لم أعد يارا بشيء.

- ومن الذي كان سيتولى رئاسة القسم إذن؟

- لا أحد، لا أحد من الموجودين حالياً. أنا كنت أتفاوض مع أستاذ بجامعة في نيويورك للقيام بمهمة رئيس

القسم لحين إصلاحه وتعيين آخرين يكونون أكثر قدرة من هذه المجموعة البائسة.

- وهل يعرفون ذلك؟

- أي شخص عمل بالقسم ولديه معدل ذكاء متوسط يمكنه توقع ذلك.

- سؤال أخير: من معرفتك بشخصية تميم، هل تعتقد أن خلافاً كهذا الذي وقع بينه وبين يارا يمكن أن يدفعه للقتل؟

- لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال. تميم من النوع الهادئ، النوع الذي يخفي خصومه لا يقتلهم. لو تسألني عن رأيي فإني كنت أتساءل أحياناً عما إذا كانت يارا ستقتل تميم يوماً ما، لا العكس.

* * *

قضى عصام معظم اليوم في الحديث مع بقية المشاركين في الانتجاع. عاد من مكتب روبرتا بصحبة لبنى وطلب منها استدعاء ممثلي الطلبة الثلاثة الذين كانوا موجودين وقت وقوع الجريمة للحديث معهم بحرية بعيداً عن المحضر الرسمي. في انتظار حضورهم اتصل ببدران ليستعجل بيانات دخول المكاتب، فقال له بدران إنه سيرسل له بيانات كل المكاتب هذا المساء لكن لديه مشكلة:

- خير؟

- يبدو أن بيانات مكتب يارا فيها إرور.

- إرور؟

- آه، في حاجة في الكمبيوتر، يمكن فيروس، إما مسحت البيانات أو أتلقت الملف اللي فيه البيانات فكل ما بتاع الآي تي يحاول يفتحها يطلع له إرور ٤٠٤.

- ٤٠٤؟

- أيوه.

- هممم. وده معناه هنلاقي البيانات ولا ضاعت؟

- شكلها ضاعت، بس أدينا بنحاول. هابلق سعادتك آخر النهار.

استغرب عصام أن تكون هذه البيانات بالذات قد فقدت، لكنه لم يقل شيئاً. عاد إلى مراجعة صور مسرح الجريمة والجثة، حتى دخلت عليه لبنى تصطحب ناجي.

لم يقل ناجي شيئاً لفت نظر عصام؛ كانت أستاذة محبوبة، وكل الطلبة تحب الالتحاق بالكورسات التي تدرسها. لم تكن متشددة في المواعيد مثل الآخرين، تستمع

إلى الطلبة وبتفهم وظروفهم ومشاكلهم، كأنها واحدة منهم. دما خفيف وطريقة تدريسها مثيرة للاهتمام والانتباه - لا أحد ينام وسط المحاضرات مثلما يحدث مع معظم الأساتذة! وكذلك كانت كريمة في الدرجات.

- هي الوحيدة اللي ادتني A.

معاذ، طالب الدراسات العليا، بدا أكثر من استجوبهم عصام تأثراً. كان ساهماً معظم الوقت، يسرح بين الأسئلة حتى ينبيه عصام فيرد عليه. قال إنها كانت أستاذة رائعة، أفضل من درس له على الإطلاق، وكانت أيضاً مرشدة للطلبة خارج قاعات المحاضرات. هي التي علمته كيف يفهم وضع المرأة العربية وقضاياها ويأخذها على محمل الجد، هو ابن التربية الدينية الصارمة. فكت عقده الخاصة بالمرأة وعلمته معنى المساواة دون افتعال أو تقعر، وفي نفس الوقت علمته كيف يتصالح مع تقاليد عائلته المترسخة في الأبوية. تعليمها له هو الذي دفعه إلى اختيار موضوع رسالة الماجستير التي يعمل عليها، عن المساواة بين الجنسين في الفكر الإسلامي. هي المشرفة، قالها ثم صحح كلامه «كانت». سأله عصام عما يعنيه فقال إنها مرت بظروف شخصية صعبة خلال الشهور الأخيرة دفعتها إلى تقليل نشاطها في الجامعة ومن ضمن ذلك انسحابها من الإشراف على رسالته. كانت عيناه حمراوين ولم يكن عصام متأكداً إن كان ذلك نتيجة البكاء أم حساسية الربيع. سأله إن كان يعتقد أن أحداً من الجامعة وراء قتلها. فأجاب ببساطة:

- بدون شك.

طلب منه عصام التوضيح لكنه لم يصل إلى شيء محدد؛ كل ما قاله معاذ أن القسم يعج بالخلافات، وأن بعض زملاء يارا متورطون في تدهور حالتها ومن المنطقي أن يكون أحدهم قد تورط أكثر مما ينبغي. سأله إن كان يقصد الدكتور تيم نسبة فنفي ذلك، قائلاً إن د. يارا كانت تتحدث عنه دائماً بإيجابية. سأله عن بقية الأساتذة واحداً تلو الآخر لكنه لم يستشف اتهاماً لأحدهم تحديداً، وإن بدا واضحاً كراهيته الشديدة للدكتور مروان المفتي.

أحلام سيف - صديقة معاذ - كانت أقل حماساً للفقيدة. بعد إبداء الحزن والأسى والصدمة للمرة الثانية، بدا واضحاً أنها لم تكن من أنصارها. قالت إن مشاكل يارا قديمة وكبيرة ومعروفة للجميع، ليس فقط للأساتذة وإنما أيضاً للطلبة، ربما معروفة أكثر للطلبة. لا يقتصر الأمر على حالة الطالب الذي اشتكى، فهناك كثيرون لم يشتكوا. كذلك لا يقتصر الأمر على «سلوكيات معيبة» على حد تعبيرها، لكن أيضاً عدم انتظامها في المحاضرات، وعدم اهتمامها بالتدريس فعلياً، ومحابة بعض الطلبة من المقربين لها على حساب آخرين، وعدم وضوح معايير التصحيح والدرجات، وغير ذلك.

- قارنها مثلاً بدكتور ياسر العرابوي؛ أكاديمي حقيقي وأستاذ وملتزم - مفيش نسبة!

قالت أحلام إنها أخذت كورس واحداً معها في بداية التحاقها بالجامعة وقررت من وقتها ضرورة تحاشيها. حين سألها عن تفسيرها للمدح معاذ وناجي ليارا هزت كتفيها ولم تجب، لكن عصام لاحظ انقباض عضلات وجهها وتجهم ملامحها.

ياسر العرباوي أبدى اندهاشه من سؤال عصام عن الخلاف بين يارا وتميم، مؤكداً عدم معرفته بوجود مثل هذا الخلاف، إذ إنه كان يعتقد دوماً أن العلاقة بين يارا وتميم على أفضل ما يكون، فهي «صنيعة تميم»؛ هو الذي عينها بإرادته المنفردة ودون عملية تنافسية شفافة كما تقتضي النظم واللوائح، وهو الذي «يرعاها» في القسم ويعطيها الأولوية في اختيار المواد والجدول بل والقاعات التي تدرس بها. في المقابل هي دائماً ما تدعمه في اجتماعات القسم. أضاف ياسر أن ذلك كله مخالف للقواعد وللحقوق الأساسية للعاملين بالقسم، وكان أحد المصادر المستمرة لاحتجاجه، لكن لا شيء تغير نتيجة الخلل في حوكمة القسم، والعلاقات التراتبية التي تضع رئيس القسم فوق المساءلة. ولم يكن من الممكن تغيير ذلك نتيجة هيمنة خطاب داعم لهذه العلاقات داخل الجامعة، وهو بالطبع خطاب تدعمه إدارة الجامعة لأنه يحمي مصالحها ومصالح الأقلية المسيطرة عليها. الخلاف الحقيقي في الجامعة إذن، أوضح د. ياسر العرباوي، هو بين هؤلاء الذين يسيطرون على مقاليد الأمور ومن معهم، مثل تميم ويارا، وبين الذين يتم تهيمشهم وهضم حقوقهم، مثله هو وبقية الأساتذة

غير المثبتين والعمالة المؤقتة سواء في هيئة التدريس أو في النظافة والأمن. تصوير الأمر على غير ذلك هو في حد ذاته جزء من استراتيجية تحالف الميسطرين هذا لإلهاء الميسطر عليهم وتشتيت انتباههم ومنعهم من التحالف معاً. قاطعه عصام متسائلاً في أي جانب كانت يارا إذن؟ فأجاب بلا تردد أنها كانت في جانب الميسطرين، مع تميم.

سأله عصام عما تشير له يارا من خضوعها لما يشبه الاستغلال الجنسي من جانب تميم فأنكر معرفته بذلك، مضيفاً أن يارا كامراً لديها ولا شك تجربة متميزة عن الرجال داخل هذا التحالف الميسطر. فداخل تحالف الميسطرين هناك أيضاً علاقات استغلال، سواء جنسي أو غيره، مثلما يوجد في أي مجموعة، لكن في حالات كثيرة فإن الاتفاق في المصلحة يطغى على هذه الانقسامات والعلاقات الاستغلالية عند الضرورة، وبالتالي فبالنسبة له، في رأيه، فإن يارا وتمام مع انتمائهما لنفس المجموعة إلا أن علاقة القوة بينهما غير متكافئة. لكن مهما كان الخلاف بينهما فهو خلاف عرضي لا خلاف أساسي، ولا يمكن في رأيه أن يؤدي إلى القتل.

حين سأل تهاني عن رأيها في الخلاف بين تميم ويارا ألفت عليه محاضرة متكاملة في الوطنية، أو هكذا فهمها عصام. بدأت كلامها بتنبيهه لضرورة وضع الأشياء في سياقها، فاجتزأ مراسلات متبادلة بين شخصين من السياق الذي تمت فيه يؤدي إلى استنتاجات مغلوطة. وأول ملاحظ السياق الذي يجب عليه مراعاته أن هذه

المراسلات تتم في الجامعة الأمريكية، وهي ليست مكاناً عادياً. سألها عما تقصد فابتسمت ابتسامة ساخرة وسألتها إن كان يختبر ذكاءها أو وطنيتها، ثم استفاضت في شرح رؤيتها للجامعة ودور الأساتذة والعاملين المصريين بها؛ الجامعة أحد خطوط المواجهة الرئيسية بين مصر والعالم الذي تقوده الولايات المتحدة، وهذه المواجهة فكرية وثقافية وسياسية واقتصادية وعلمية تتعلق بوجود مصر ذاته. تموضع الجامعة بمصر ليس صدفة بل عمل مقصود من قبل من وضعها هنا، وليس صدفة أيضاً قبول مصر - بمؤسساتها السيادية - لوجود الجامعة على أراضيها. الطرفان يعرفان جيداً ما يفعلانه، والمصريون الموجودون بالجامعة إما يعملون لمصلحة بلادهم، أو لمصلحة أطراف أخرى، أو لمصلحتهم الشخصية بغض النظر عن هذا وذاك. ليس هناك حياد، لا شيء اسمه حياد في أي مجال، والعلم أولهم. كل موقف تأخذه، كل موقف علمي وفكري، هو جزء من المعركة. وهي موجودة في هذه الجامعة لسبب وحيد، وهو الدفاع عن مصلحة مصر وحماية هذه المصلحة في كل جزء من عمل الجامعة. لهذا كانت علاقتها بيارا متوترة بعض الشيء، لأن يارا كانت تنسى أو تناسي، كانت أحياناً نتصرف وكأن هذه جامعة عادية. تميم، مع إنه غير مصري، إلا أنه يعرف جيداً ما يجري حوله وهو قومي عروبي وموقفه واضح في دعم القضايا المصرية والوجود المصري والرؤية المصرية في الجامعة. لهذا كان يحدث أحياناً خلافات بينه وبين يارا، لأنها تنسى وهو لا ينسى، هو دائماً يذكرها ويلجم شططها حين تشتط. هذا هو السياق الذي يجب في ضوءه فهم خلافات يارا

وتميم. قال لها عصام إن حديثها به مسحة من نظرية المؤامرة، فابتسمت ابتسامتها الساخرة وضحكت وهي تردد كلمة «نظرية المؤامرة»، متسائلة عما إن كانت المؤامرة قد تحولت إلى نظرية! وقبل أن يرد استطردت شارحة ما تقصده: كيف أن المؤامرات تحاك طول الوقت بين الدول وبعضها، وكيف أن التاريخ، تاريخ المنطقة العربية نفسها، هو سلسلة من المؤامرات التي اعترف الضالعون فيها بأدوارهم بعد ذلك. الموضوع إذن ليس نظرية، بل صراع ممتد يشمل هذه المؤامرات التي لا تتوقف، لا في الزمان ولا في المكان، فهي لا تقتصر على مجال دون الآخر. سكنت تهاني في نهاية حديثها ثم أضافت مرة أخرى لتلخيص موقفها:

- زي ما بأقول لحضرتك: دي معركة مش مؤامرة، ودي معركة مش جامعة، واحنا كلنا جنود. إما نحارب بوعي أو يتم استخدامنا كمغفلين مفيدين، إما نحارب في صف بلدنا أو في صفوف أخرى! والتحقيق ده نفسه جزء من هذه المعركة، نخلي بالك يا حضرة الرائد.

طلب منها عصام توضيح ما تقصده بهذا الجزء الأخير لكنها ابتسمت نفس تلك الابتسامة الساخرة وأنتت حديثها.

مروان كان أكثر وضوحاً وصراحة، فقد أقر بوجود جذور عميقة للخلاف الذي أشار إليه عصام. قال مروان إنه كان قريباً من يارا في وقت من الأوقات، وصارحته

في هذه الفترة مراراً بمشاعرها إزاء تميم وبرغبتها في التخلص من قبضته. وقد حاول مساعدتها؛ في البداية حاول التوسط بينها وبين تميم لكن الأخير نفى وجود أي مشكلة ونصح مروان بالتركيز في شئونه الخاصة. بعد ذلك حاول إقناع يارا بمواجهة تميم والتخلص من أعباء الماضي حتى لو أدى ذلك إلى فقدانها لوظيفتها.

- كان رأيي أن توازنها النفسي أهم، توازنها كإنسانة أهم من أي وظيفة.

لكنه للأسف الشديد لم يفلح في إقناعها، في أوقات شعر بأنها تستجيب لنصيحته، وحاول مساعدتها على تقوية نفسها واستجماع شجاعته كي تأخذ هذه الخطوة وتحرر نفسها من قبضة تميم، بما في ذلك من خلال البحث معها عن وظائف في جامعات ومراكز بحث أخرى، ولو لفترات عابرة حتى تستعيد توازنها. لكن كل هذه الجهود كانت تنهار بعد فترة قصيرة من شعورها بالأمل وبامتلاك العزيمة. وعزا عودتها إلى المخدرات في كل مرة إلى هذا الانهيار الدوري في إحساسها بالأمل والقوة والفرق من جديد في الكحول والمخدرات.

* * *

عند عودته إلى القاعة التي يستخدمها مقراً وجد لبني تروح وتجيء بلا توقف. قفزت ناحيته حين شاهده يقرب من القاعة:

- انت فين؟ اتصلت بيك عشر مرات.

هز رأسه دون رد في حين أعطته ورقة مطبوعة:

- الفاكس ده جالك.

نظر عصام إلى الفاكس فوجده يقول ثلاث كلمات: «اتصل بي فوراً». أخرج تليفونه. كان قد أغلق الجرس ولم يلحظ مكالمات صديقه خبير الأدلة الجنائية. اتصل به فوراً وهو ينظر في الفاكس وتبادل معه عدة جمل معظمها أسئلة من جانبه. أنهى المكالمة التليفونية وعلى وجهه تعبير جاد متجهم. قال للبنى بلهجة آمرة:

- استدعي تميم فوراً.

ثم نظر إلى معاونه الجالس في جانب من القاعة وقال:

- روح معاها وما تخليوش يغيب عن عينك. شكنا هنخلص شغل بسرعة.

نظرت له لبنى مستفسرة ولما فهمت أنه لن يجيب بدأت في التحرك وعلى وجهها تعبير التبرم المعتاد، ولحقها عن قرب معاون عصام. قام عصام وتوجه إلى القاعة الصغيرة - التي أرادت روبرتا تخصيصها للصلاة - ووقف بجوار جهاز الفاكس ينتظر. لحظات ثم بدأ الجهاز يصدر أصواتاً وتحرك أجزاؤه. صوت سحب الورقة من مخزنها، وبداية

الطباعة، ثم صوت حشرجة، ثم توقف الجهاز وأخذ يصدر رنيناً متقطعاً. أخذ عصام نفساً عميقاً وظل ينتظر؛ لا شيء. بدأ ينظر إلى جانب الجهاز ويحاول العبث بأزراره دون جدوى. لحظات وشعر بيد ناعمة تستقر على ساعده. التفت فجأة ليجد لبني واقفة بجواره، تكاد تكون ملتصقة به، وكفها مستقرة على ظهر يده. نظر إليها مستفهماً فسأله بدورها:

- إيه الحكاية؟ الجهاز مش شغال؟

- انت رجعت بسرعة كده ازاي؟ فين تميم؟

- كلمت بدران وقلت له يستدعيه، وبعث له الوحش اللي انت بعته معايا. ما تخافش مش هيهرب. وابتسمت.

ارتبك عصام ثم قال ليفك ارتباكه:

- تعرفي تشوفي ده ما بيطلعش ليه؟

هزت لبني رأسها ببطء، ثم دفعت ساعده جانباً بنعومة لتفسح لنفسها مكاناً أمام الفاكس. انحنى على الجهاز وبدأت تعبث بأزراره وعصام واقف يرقبها. يركز عينيه على يدها التي تعبث بلوحة أزرار الفاكس لكن عينيه تجولان ناحية ذراعيها وكتفيها وشعرها المتهدل على ظهرها

وخطوط قوامها المنحني. ينتبه فيعيد عينيه ثانية إلى يديها وهكذا. دقيقة وبدأ الفاكس في الطباعة. طلب منها العودة إلى القاعة الكبيرة فاعتدلت في وقفها أمام الفاكس وهزت شعرها ثم جمعت يدها الأخرى ورفعته فوق رأسها:

- معاك قلم؟

أعطاهما قلبه وارتباكها يزيد فالتقطته ببساطة وغرسته وسط شعرها لتبقيه ملهوماً فوق رأسها وعادت باتجاه القاعة. تمهلت قليلاً عند الباب ونظرت إليه:

- انت هتفضل واقف عندك كده؟

نظر إليها دون أن يجيب ثم ركز نظره على الفاكس الخارج من الماكينة. انتظرت وهلة وحين فهمت ألا إجابة ستأتي خرجت من القاعة الصغيرة إلى القاعة التي يجري فيها التحقيق وجلست بجوار الكمبيوتر.

أمسك عصام بالفاكس وأخذ يقرأ محتوياته بعناية فائقة. يسير وعيناه لا تغادران التقرير ذا الصفحتين. عاد إلى القاعة الرئيسية وجلس في مكانه المعتاد وظل ينظر إلى التقرير ويهرش رأسه ويفكر. لبني لا تتحرك: تقرأ شيئاً ما في كمبيوترها أو تتظاهر بذلك. ظل الصمت مطبقاً على المكان حتى انفتح الباب ودخل منه تيم وعيناه حمراوان يفركهما ويسأل في تبرم:

- خير؟ احنا مش خلصنا؟

نظر إليه عصام بابتسامة غامضة وأشار له برأسه أن يجلس. جلس تميم في نفس المكان الذي كان فيه أثناء الاستجواب. ببطء وتمعن، وعيناه مركبتان على وجه تميم، دفع عصام بالصفحة الأولى من الفاكس باتجاه تميم حتى وضعه أمامه بالضبط.

- اقرأ لو سمحت.

نظر تميم إلى الورقة الموضوعة أمامه وهم بالقراءة لكنه توقف فوراً. عيناه تجريان بسرعة على مضمون الفاكس ووجهه يمتقع حتى صار أبيض تماماً. لا صوت يخرج منه. تحدث عصام بدلاً منه:

- ده تقرير مبدئي من المعمل الجنائي يقول إنهم وجدوا بصماتك على رقبة الضحية وأجزاء من ملابسها، وإن علامات الخنق مطابقة ليديك، ولقوا مكان تحت ضوافرها جزء من نسيج يبدو إنه جلد بشري. انت اتعورت ولا إيه يا دكتور؟

* * *

أقر تميم أنه كذب في الاستجوابين الماضيين. اعترف بأنه وجد يارا في مكتبها حين ذهب إليها في الرابعة عصراً، وأنهما تشاجرا. لكنه أنكر بشدة أن يكون قد قتلها. قال

إنه وجدها في حالة ثورة وغضب مصحوبة بما يشبه النشوة التي كانت تأتينا عند تعاطيها للمخدرات. وأن محاولاته لتهدئتها أو التفاهم معها باءت بالفشل، بل على العكس بدا أن كلامه كان يزيد من هياجها، وفي لحظة ما صفعته فدفعها بيده، لكنها بدلاً من أن تتراجع قفزت عليه كالجنونة وأنشبت أظافرها في جفونه محاولة فقء عينيه. حاول دفعها عنه لكنه لم يستطع إبعاد أصابعها عن عينيه وعندها اضطر للإمساك برقبته والضغط عليها كي تفلته. لم يقصد خنقها، فقط إبعادها عنه، وبجرد أن خلص نفسه منها غادر المكتب مسرعاً.

ظل عصام يحاصره بالأسئلة. ماذا يعني خلص نفسه منها؟ هل سقطت مغشياً عليها؟ هل كانت نتكلم حين غادر المكتب؟ هل كانت تنفس؟ الطبيب الشرعي لم يقدر بعد سبب الوفاة وما إذا كانت ماتت بالخنق أم بالتزيف أم بالطلق الناري. لكنْ وُارد أن يكون الذي خنقها هو الذي طعنها أو الذي أطلق عليها النار. سأله عن مكان السكين فأنكر معرفته بمكانه. سأله عن المسدس فقال إنه لا يعرف عنه شيئاً. سأله كيف يعرف إن كانت حية أم ميتة عندما غادر مكتبها فلم يرد بشيء محدد. شرح عصام لتيم صعوبة موقفه: هناك دافع، وهناك شجار عنيف به خنق وتمزيق جلد، وهناك بصمات، واعتراف بالوجود في مكان الجريمة قريباً من ساعة القتل.

- يعني قتل عمد أو على الأقل شروع في قتل.

أنكر تميم، مؤكداً أن كل ما فعله هو محاولة تهديتها، ثم - حين انقضت عليه - إبعاد شرها عنه.

- أو ضرب أفضى إلى الموت.

- كلام فارغ؛ أنا زقيتها عشان أحمي نفسي. وكان ما ليش علاقة بضربها بالنار أو طعنها. والتقرير يقول مقاس الحذاء اللي في السجادة مختلف عن مقاس رجلي.

أغلق عصام المحضر ووجه كلامه إلى تميم:

- أنا هاطلب من حضرتك عدم مغادرة غرفتك النهارده لأي سبب. لو احتجت تروح أي مكان بلغ الحراسة الأول.

هم تميم بالاعتراض لكن عصام أوقفه بإشارة من يده.

- من فضلك مفيش لازمة للكلام. ابقى بلغ اعتراضاتك للنياية.

ثم أشار لمعاونه الذي قام واصطحب تميم خارجاً. أخرج عصام الصفحة الثانية من التقرير وأعاد قراءتها بعناية. على الأقل يعرف من صاحب آثار الأقدام الملوثة بالدماء في السجادة، وهو ليس تميم!

* * *

جلس عصام وحده في القاعة وعلى وجهه ابتسامة عريضة. هذا تقدم بأسرع مما توقع، وكل شيء بالأصول وكما يقول الكتاب. سيتصل الآن بقياداته يبلغهم بأن لديه مشتهين وأدلة وقرائن ثبت تورطهما ثم يتصل بالنيابة ليستخرج لهما «أمر ضبط وإحضار» ويرسل المشتهين مع محضر التحقيقات. صحيح أن القضية لم تُحل بعد، ما زال هناك غياب السكين وغياب بصمات من على المسدس، لكن لديه اثنين متورطين أكيد وفي أقل من ٢٤ ساعة. لا بأس، لا بأس إطلاقاً يا سيادة الرائد. لو استمر على هذا المنوال سيحل القضية كلها، وربما خلال يوم آخر أو اثنين، مع وصول مزيد من الأخبار من الأدلة الجنائية والطبيب الشرعي. هذا هو المفتاح، أخيراً. سيدخل ذلك العالم الذي يدور من حوله منذ وعى على الدنيا ويبحث عن طريقة للنفاز إليه. صحيح أنه لن يحصل على ترقية استثنائية، لكن الترقية ليست المهم، كل الضباط يترقون. المهم الإنجاز الذي يضمن له مكاناً بين الآخرين، يجعل له اسماً، يجعله مطلوباً، وهكذا، غالباً سيتم نقله من قسم القاهرة الجديدة إلى مكان أهم، ومن يدري، خطوة بخطوة تتحسن الأحوال، وربما يعود إلى القاهرة الجديدة ساكناً. أو حتى مالكاً لبيت صغير. خطوة بخطوة، عصام ليس على عجلة، هو فقط يبحث عن الجسر الذي يعبر به من السكن في شبرا مع أبيه والخدمة في الأقسام إلى الدنيا النظيفة الجميلة التي يشاهدها من حوله ولا يعرف كيف ينفذ إليها. هذا هو السبيل، وبالعمل والاجتهاد والذكاء الشخصي دون معونة أو منة من أحد، وكله بالقواعد وكما

يقول الكتاب.

أفاق من أفكاره على صوت التليفون. أعاد رأسه إلى
الوراء كي يرى هوية المتصل.

- إيه الأخبار؟ فتحت التليفون؟

- لا بس لقيتلك حاجة أحسن بكثير.

- خير؟

- نتيجة تحليل النبيت طلعت: في درجة من السمية.

- يعني إيه لا مؤاخذه؟

- يعني النبيت مسموم.

- مسموم ولا بايظ؟

- مسموم. درجة السمية دي ما تجيش من البوظان. ده
سم تمت إضافته.

- سم زي بتاع الأفلام كده؟

- بالضبط.

- والطبيب الشرعي؟

- قالي إنه لقي آثار السم في الجسم لكن لسه مش قادر يحسم إن كان سبب الوفاة.

- ومصدر الزجاجة؟

- دي أحلى لقطة في الموضوع.

- خير؟

- القزازة يا سيدي نبيت فرنساوي، ماعليهاش حاجة تبين مصدرها غير الماركة: لا ملصق ولا سعر ولا حاجة تبين مكان الشراء. واضح إنها اتشالت. لكن البرنس اللي شال الحاجات دي ما خدش باله إن فيه ملصق تاني على قعر القزازة، بالسعر والرقم المسلسل ومنفذ البيع.

- انجز يا باشا، مين؟

- القزازة ياسيدي اتباعت من يومين بالضبط، في محل الخمر اللي في ٢٦ يوليه في الزمالك، واللي اشتراها استعمل بطاقة ائتمان كان.

- اسمه إيه؟

- اسمها يا حضرة الرائد، اسمها.

- مين ياسيدي؟

- تهاني التلالي.

وضع عصام التليفون على المنضدة أمامه وهز رأسه وهو
يتم في أسي:

- أوبا، الفيلم كده شكله هيتلخبط!

* * *

الفصل الرابع

وضع مؤسف

- أبوه، أنا جبت لها قزازة نبيت من يومين، هدية.

- بمناسبة؟

- كان بينا سوء تفاهم بسيط وحببت أزيله. اشتريت لها النبيت اللي بتجبه وعديت عليها في مكتبها واتكلمنا شوية واديتها القزازة.

أنكرت تهاني معرفتها بأن النبيذ مسمم، فقد اشترت الزجاجة من محل كبير، وهو نبيذ فرنسي معروف، والزجاجة مغلقة. حين سأها عصام إن كانت هي التي وضعت السم في الزجاجة ضحكت، ثم سألته إن كان جادا في سؤاله. ولما وجدته جادا قالت بالطبع لا، فهي أستاذة علوم سياسية لا قاتلة محترفة. ثم من الذي يقتل بالسم هذه الأيام؟

- ده شغل أفلام أبيض واسود يا عصام بيه؛ ناقص أجيب تعبان وأحطه تحت سريرها!

- هل تنكرين قيامك بوضع السم في الزجاجة؟

- نعم أنكروا. وبعدين هاحط السم إزاي في القزازه
المقفولة؟

لم يرد عصام على استفهامها الاستنكاري، الزجاجة يمكن
حقنها بالسم من خلال غطائها الفليني دون أن تترك
أثراً ملحوظاً. كذلك وارد أن تكون تهاني قد قدمت لها
الزجاجة مفتوحة عندما ذهبت تصالحها، ربما مع كأسين
صبت فيهما النبيذ بنفسها كنوع من «نخب المصالحة». ثم
تظاهرت برشف النبيذ دون أن تشرب شيئاً وغادرت
ومعها الكأس الثانية. لكن كل هذه مجرد احتمالات
لا دليل ماديّ لديه عليها. كما أنه لا يعرف ماذا يمكن أن
يكون دافعها لقتل يارا. ما الذي يدفع أستاذة محترمة
وشخصية عامة مرموقة مثلها لاقتراف جريمة قتل مع سبق
الإصرار والترصد؟

- وبعدين هي مش يارا ماتت بطلق نارى؟ أو طعنة
سكينة؟

سألت تهاني في حذر. هز عصام رأسه ورد وهو يمعن
النظر إليها:

- لسه مش متأكدين. الطبيب الشرعي لم يحسم سبب
الوفاة.

لم يبدُ على وجه تهاني أي رد فعل. سأها ببطء، ومعاونه
يدون الأسئلة والإجابات، عن سبب الخلاف

الذي ذهبت إلى مكتبها لحسمه. قالت إنه خلاف قديم عمره حوالي عام، حول مسألة أكاديمية. ألح في السؤال عن التفاصيل وهي تراوغ وتجيب إجابات عامة. حين نفذ صبره قال ببرود وهو يزن كلامه بحرص - فهي في نهاية الأمر شخصية عامة وعلاقاتها متشعبة ولا يريد إثارة مشاكل لنفسه دون داع:

- يا دكتورة، حضرتك شخصية عامة ولك كل احترام. لكننا أمام جريمة قتل، في الجامعة، لزميلة حضرتك، وكل الناس اللي هنا ناس محترمين وأساتذة. بس أنا لازم أمشي ورا كل الخيوط. حضرتك اديتها قزازه نبيت مسمومة، وهي شربت منها وماتت. إن ثبت أن السم هو سبب موتها يبقى حضرتك تسببت في موتها - سواء عمداً أو خطأ.

- وإن كان موتها سببه شيء آخر؟

- يبقى فاضل احتمال الشروع في القتل.

- أو إني لا علاقة لي بموتها. أنا اشتريت لها نبيت، طلع فاسد لسوء الحظ، لكن مش قاتل. زي ما أعزمتك على الغداء ويجيلك تسمم!

- ما نتحرمش من كرم حضرتك. وارد طبعا. عشان كده محتاج أفهم تفاصيل علاقتكم، عشان نقدر نقيم مدى وجود دافع.

- دافع لقتلها؟ حضرتك أكيد بتهزرا!

- والخلاف اللي بينكم؟

- ده خلاف أكاديمي يا حضرة الضابط! يارا نظمت ندوة واستضافت حد واختلفت معاهم في المناقشة ومن ساعتها غضبت. لو الخلاف الأكاديمي يشكل دافع للقتل كانت الجامعات فضيت!

- طيب. بس لعلم حضرتك أنا باراجع إيميلات ورسائل الدكتوراة يارا، ولو فيها حاجة هاعرفها. أنا بس باطلب من حضرتك التعاون لتسهيل المهمة وتوفير الوقت. كمان هيخلي موقف حضرتك أفضل.

- أنا موقفي ليس فيه ما يعيبه يا سيادة الرائد. حضرتك دور زي ما تحب. بس خليك فاكر إن سجلي ناصع البياض، والكل يشهد بكده، وأولهم الأجهزة الأمنية. نخلي بالك!

* * *

لم تجد لبنى في إيميلات يارا ما يشي بخلافات مع تهاني أو تهديدات أو أي شيء خارج عن المؤلف. لكنها قالت إنهما تشاجرتا بسبب ندوة ومسألة لها علاقة بالتمويل الأجنبي وإسرائيل، وكانت هناك مقالات في الصحف حول الموضوع، لكن هذا حدث من شهر طويلة ولا

نتصور أن يكون له علاقة بقتل يارا. بسؤال ياسر العرابوي أنكر معرفته بأي خلاف بينهما، كما قلل من أهمية الخلاف القديم الذي أشارت له لبنى، فثل الحال مع تميم، فإن كلاً من يارا وتهاني تنتميان إلى التحالف المسيطر في الجامعة والمستفيدين من ترسخ سيطرته. مروان المفتي، الأستاذ الزائر، هو الذي شرح لعصام تفاصيل الصراع الذي دار بين الأستاذتين في أعقاب «الندوة المؤسفة» كما وصفها.

« كانت هذه الندوة أول عمل أكاديمي أشترك فيه عندما وصلت القاهرة. يارا وقتها كانت تشرف على تنظيم مشروع بحثي كبير يهدف إلى توثيق جوانب من الثقافة الشعبية في الريف، وحصلت على تمويل من الاتحاد الأوروبي ومؤسسة «فورد» لدعم المرحلة الأولى من هذا المشروع. يارا أستاذة دراسات ثقافية، وهذا المشروع يعد إنجازاً ضخماً وحلماً لأي أستاذ في مكانها. مدة المشروع خمس سنوات، وتكلفته ضخمة. المرحلة الأولى وحدها كانت ستكلف نصف مليون دولار، وهذا رقم ضخم لعمل بحثي. عرضت عليّ المشاركة، وقبلت طبعاً، لكن دوري كان هامشياً ويتعلق بأول جزء من المرحلة الأولى، وهو هذه الندوة التي نظمها يارا لإطلاق المشروع. المشارك الرئيسي كان مخرجة أفلام تسجيلية اسمها «هنا جمال»، كانت ستتولى تصوير سلسلة وثائقيات ترصد مظاهر الثقافة الشعبية التي يغطيها المشروع في كل من الوجه البحري والصعيد - حوالي عشرة أفلام تسجيلية. يارا تتولى الإشراف الأكاديمي بمساعدة مجموعة باحثين شباب، و«هنا» تتولى الإشراف الفني بمساعدة مجموعة مخرجين

لهم سمات تتلاءم مع هذا النوع من الوثائقيات. هذه الوثائقيات هي بمثابة حجر الأساس للرحلة الأولى من المشروع بالإضافة إلى عدد من الأوراق البحثية التي تحلل هذه المظاهر الثقافية وتربطها باتجاهات أكبر. في حالة نجاحه، كان المأمول أن يؤدي ذلك إلى مراحل لاحقة توسع المناطق التي يغطيها البحث، بحيث تشمل المدن أيضاً - خاصة المراكز والمدن الصغيرة، وتوسع مجالات التعبير الثقافي التي يغطيها البحث. في النهاية كانت الفكرة هي خلق ما يشبه موسوعة مرئية ومسموعة ومكتوبة للثقافة الشعبية المصرية كما تبدو اليوم، مع تحليل لاتجاهاتها ومغزاها وللأسئلة التي تثيرها في مجال الدراسات الثقافية. عمل ضخم جداً، وأظنه كان أشبه بحلم حياة يارا أو على الأقل حلمها المهني.

الذي حدث في الندوة غريب جداً. بعد أن قدمت يارا المشروع، واستعرضت «هنا» سمات الأفلام التسجيلية، أخذت تهاني الميكروفون وبدأت تهاجم المشروع، متهمه القائمين عليه بخدمة «أجندات مشبوهة»، مدللة على ذلك بحصول المشروع على تمويل من الاتحاد الأوروبي ومؤسسة فورد. وقالت إن الكل يعلم أن مؤسسة فورد تشترط على متلقي المنح التوقيع على موافقة مكتوبة بنشر أبحاثهم ونتائجها في إسرائيل. طبعاً هذا كلام فارغ من أوله إلى آخره. لا يوجد مثل هذا التعهد ولا معنى له أساساً. الخواجة فورد شخصياً كان عنصرياً ضد اليهود. يارا كانت ستنفجر، وبدا لي أنها لو ردت سيكون كلامها قاسياً ويؤدي إلى زيادة حدة الخلاف فأخذت الكلمة بسرعة

وحاولت شرح بعض الحقائق البسيطة. أعرف أن تهاني لديها ميول قومية عادة ما تعيق نظرتها الموضوعية للأشياء وتحول بينها وبين فهم الحقائق الأساسية، بما يقودها في اتجاهات يراها البعض فاشية. لكنني ظننت أن شرح المسألة سيبدد مخاوفها، فهذا في النهاية مشروع عظيم حتى من وجهة نظر قومية. لكنها لم تلتفت لما قلته؛ هزت رأسها وابتسمت وقالت إن كلامي بريء زيادة عن اللزوم - تقصد ساذجاً. زميلنا ياسر أيد ما قالته تهاني، وأسهب في تصوير مخاطر الهيمنة الثقافية وتغلغل الصهيونية والإمبريالية وبقية هذه القائمة. استمرت المداخلات كلها تقريباً على هذا النحو حتى شعر وفد الاتحاد الأوروبي بالحرج فقاموا وغادروا القاعة - وتهاني تهتف وراءهم: «اخرجوا من الشرق الأوسط!». المضحك في الموضوع كله «هنا»: لم تقل كلمة واحدة، كل ما فعلته أن مالت عليّ وسألت في جدية تامة:

- هي مش دي الجامعة الأمريكية برضه؟ مش الناس دي كلها بتاخذ مرتباتها من الإمبريالية؟

كانت الندوة حدثاً مؤسفاً في الحقيقة، وتهاني كانت ولا شك مخطئة. قوميتها المتطرفة وما ينتج عنها أحياناً من بارانويا هي التي دفعتها إلى قول ذلك. يارا ضحكت بمرارة حين قلت لها ذلك واتهمني بالسذاجة. كانت ترى في تهاني شخصية حقيرة انتهازية كل ما يهمها هو مصلحتها الشخصية ونجاحها وبقاؤها في قلب الأضواء ومنع غيرها من تحقيق أي نجاح، وهجومها على المشروع سببه الوحيد

أنها ليست هي القائمة عليه. اقترحت عليها دعوة تهاني للانضمام إلى المشروع، فقالت إنها حاولت لكن تهاني أرادت السيطرة على المشروع كله، ولما رفضت قررت تهاني إغراقه. جمعت الاثنتين على العشاء وحاولت حل المشكلة لكن دون نجاح. كان يمكن أن ينتهي الموضوع عند هذا الحد؛ زميلتان بينهما خلاف، لكن الذي وقع بعد ذلك أهم.

فقد تبع الندوة حملة إعلامية كاملة على المشروع البحثي، قادها صحفي ضائع يعمل في جريدة ضائعة، اسمها اليوم الثامن أو التاسع لا أذكر. بدأت هذه الحملة بتحقيق نشره هذا الصحفي بعنوان: «هل تعمل يارا رفيقي على تغلغل الصهيونية في مصر؟»، أعقبته تعليقات في مواقع التواصل الاجتماعي ثم في القنوات التلفزيونية. ثم وجدت يارا صورتها على غلاف جريدة أخرى أضيع من الأولى، اسمها المستور أو الكستور لا أذكر. وضعوا صورتها على الغلاف مصحوبة بكلمة واحدة؛ «احذروها!». وفي خلال أسبوع انتقلت الحملة من الحديث عن «يارا العميلة الصهيونية» إلى مهاجمة الجامعة الأمريكية نفسها باعتبارها وكرًا للجواسيس وأداة لتغلغل الإمبريالية والصهيونية وتفكيك المجتمع وإسقاط الدولة وتقسيم مصر إلى دويلات. وانصبت الحملة على المشروع البحثي وتمويله وأهميته المزعومة لإسرائيل وأمريكا باعتباره حلقة جديدة في سلسلة طويلة من نشاطات الجامعة الأمريكية المروجة للأجندات المشبوهة. ثم قُدم استجواب في مجلس الشعب لوزير التعليم العالي والثقافة حول الموضوع.

عند هذا الحد استدعانا القائم بأعمال البروفوست، الدكتور عبد الرحمن صديقي، وقال إن الموضوع أصبح مصدر إحراج للجامعة وتلطّيح لسمعتها بشكل يفوق فوائده وبالتالي ستضطر الجامعة إلى الانسحاب من المشروع. حاولنا إقناعه بكل السبل دون فائدة، وفي نهاية الاجتماع يارا فقدت أعصابها واتهمت البروفوست بالتواطؤ مع تهاني وشتمته هو وأهله حتى سابع جد. واضطرت إلى سحبها من مكتبه بالعافية حين أوشكت على ضربه بطبق كريستال كان أمامنا. حاولت بعد ذلك معه بكل السبل، ومع روبرتا هوارد رئيسة الجامعة التي كان بيني وبينها بعض المعرفة - بلا فائدة. كتبنا عرائض وجمعنا توقيعات من شخصيات وهيئات ثقافية، لكن لا شيء من هذا أفلح في تغيير موقف الجامعة. كل جهدنا راح في الهواء. انسحبت الجامعة من المشروع وبالتالي سحبت مؤسسة «فورد» التمويل وفي أعقابها الاتحاد الأوروبي. مات المشروع. أعتقد أن القضاء على هذا المشروع الضخم كسر شيئاً ما في نفس يارا. توقفت عن إجراء أي أبحاث، وأهملت التدريس، وبعدها بقليل عادت إلى المخدرات. «هنا جمال» أيضاً تأثرت، فيما أظن. فبعد هذه القصة بقليل هاجرت إلى الدنمارك وأسست شركة تنتج أفلاماً ذات سمات تقررها هي كمخرجة دون تدخل. ابتسم مروان ابتسامة حزينة وهو ينهي حديثه وقال:

- وضع مؤسف الحقيقة!

- وضع مؤسف؟ ده وضع ابن مت**!

* * *

- هههههه. والله معاه حق، ما هو اللي يحصل ده مش طبيعي!

ضحكت لبنى وهي تقضم قطعة أخرى من الساندوتش. نظر مروان إلى الفناء الفسيح الممتد بين مباني الجامعة وهز رأسه في أسى. هذا هو لقاءهما الأول منذ زيارتها الليلية لغرفته. في اليوم التالي أدرك أن الطريقة التي أنهى بها زيارتها كانت حادة أكثر مما ينبغي، فاتصل بها واعتذر عن فظاظته، لكنها ضحكت وقالت إن هذه الفظاظاة جزء من براءته وأنها تعودت عليها. صمتا بعد ذلك، فهو لا يعرف أين يذهب بهذه العلاقة التي ليست علاقة وليست لا شيء. إقبالها الشديد عليه يربكه. وفقاً لحساباته المعتادة فإن هذا الإقبال يعني اهتماماً خاصاً به، دعوة مباشرة كي يأخذ خطوة إضافية. لكنه يشعر بحساسية خاصة في حالة لبنى؛ لا يريد إضافة اسمه لقائمة الرجال الذين أذوها. من ثم قرر تغليب اعتبارات السلامة على العاطفة. هذا ما يقوله لنفسه على الأقل، لبنى، من ناحيتها، تظن أن اعترافاتها له جعلته يعتبرها بضاعة تالفة، غير قادرة على الدخول في علاقة صحية. هي لا تلومه على ذلك، فهذا ما تعتقده هي شخصياً، وما ستقوله له لو أخذ خطوة إضافية.

ستقول له إنها غير قادرة على الشعور بأي شيء، لا بالخير ولا بالشر، إنها كالزجاج الذي يرتطم به الماء أو الهواء ويتركه دون أثر يذكر. وربما هذا هو ما يظنه مروان أيضاً في أعماقه، وإن كان لا يقوله لنفسه صراحة من باب اللطف.

اقترحت عليه أن يلتقيا للغداء، ولما بدا متردداً أضافت أنهما سيأكلان في فناء الجامعة، فلا داعي لأن يخاف من أن تغتصبه. ارتبك أكثر وغمغم بكلمات غير متناسقة واتفقا على موعد الغداء. نظر إليها بجانب عينه: الشمس تعكس أشعتها على صفحة وجهها وجانب شعرها الأسود الطويل. أزاحت شعرها بيدها ونظرت إليه مستفهمة فقال بسرعة:

- والله وضع مؤسف إن إمكانيات زي دي يتم إهدارها بهذا الشكل!

- والله انت اللي وضعك مؤسف؛ مشكلتك إنك بتنظر للإمكانية مش للواقع. هو حضرتك كنت بتغيب في حصص الفيزياء؟ ما تعرفش إن كل شيء فيه إمكانية التحول لشيء آخر؟ ما تعرفش إن الحياة كلها نشأت من «السيانو بكتريا»؟ هل معنى كده إننا نعامل البكتريا على إنها غابة استوائية، عشان فيها إمكانية التحول إلى غابة في ملايين السنين؟ جاز بعد مليون سنة البكتريا دي تبقى غابة، بس هي حالياً بكتريا وهتفضل بكتريا في المستقبل المنظور. انت بأه سايب الغابات اللي في العالم كله وجاي

تقعد في مستنقع السيانو بكتريا ده على أساس إنه فيه
إمكانية للتطور إلى غابة؟

لم يرد عليها، بل رشف من كوب القهوة الذي يحمله.
برى وجاهة ما تقوله، هذا نفس ما قالته أمه. لكنه مع
ذلك لا يستطيع مقاومة إغراء المحاولة. ربما يستطيع تسريع
عملية نمو البكتريا، ربما يستطيع أن يكون عاملاً مساعداً؛

- أليس هذا هو التصرف المسئول، إنسانياً؟

- والله حسب ترتيبك لمسئولياتك. رأيي، نصيحتي
المخلصة، إنك تمشي من هنا وفي أسرع وقت ممكن. ما
تستناش حتى الشهرين اللي فاضلين في العقد بتاعك وتلم
«خلجاتك» وترجع أمريكا وتقلب الصفحة دي. لما السيانو
بكتريا تحتاجك ابعت لها إيميلات. لو عندك وصفة سحرية
لتسريع تحولها ونموها انشر الوصفة في مجلة علمية أو اكتب
كتاب، مش لازم تقعد في وسطها لغاية ماتاكلك.

- بلاش مبالغة.

- مفيش مبالغة ولا حاجة، صدقني هتاكل لو فضلت
هنا. زي ما الأغنية بتقول:

there is no decent place in a massacre

- صلي على النبي بس.

- باكلبك بجذ، العبط بتاعك ده هياذك!

- الله يحفظك.

- كل الناس بتقولك انت بريء، انت ساذج، أنا باقولك على بلاطة انت عبيط. فاكر تجربتك في «إصلاح الدراسات العليا»؟

سكت مروان مرة أخرى؛ كانت فعلاً تجربة سيئة. حدث ذلك بعد وصوله الجامعة بقليل. بعد عدة أيام من اجتماع رئيسة الجامعة بالعمداء ورؤساء الأقسام - ذلك الذي شرحت فيه برنامجها للإصلاح - قرر تميم أن يأخذ المبادرة بدلاً من الانتظار. إن كانت الرئيسة الأمريكية المتغطرة تريد إصلاحاً فليادر هو بتبني برنامج إصلاح بحيث لا يكون لديها حجة للإطاحة به. دعا مروان إلى مكتبه وصارحه برغبته في إدخال إصلاحات على إدارة القسم. مروان أستاذ زائر لا طموح شخصياً له بالقسم، وأصغر الأساتذة سناً وأحدثهم حصولاً على الدكتوراه، ووصل لتوه من جامعة كبيرة بالولايات المتحدة، وروبرتة هي التي دعتة للبعث، ومن ثم لا تستطيع الاعتراض عليه. من ناحية أخرى فهو ساذج «لا يدري الله وين حاطه» ومن ثم كان مرشحاً ممتازاً لقيادة برنامج إصلاح الدراسات العليا الذي سيناور به روبرتة. تمس مروان الذي لم يكن على دراية بأي من هذه الحسابات الشخصية وقال لميم إن لديه أفكاراً كثيرة عما يمكن أن يتحول إليه

هذا البرنامج العتيق. هز تميم رأسه موافقاً ودعاه لبلورتها وطرحها على القسم. وعلى الفور بلور مروان خطة شاملة لتطوير المناهج ومتطلبات القبول وكيفية الإشراف على الرسائل - باختصار كل جوانب البرنامج. فعل ذلك بالتعاون مع الطلبة أنفسهم ومع بقية أعضاء القسم والأقسام الأخرى بحيث يقلل التضارب بين برنامج القسم والبرامج المشابهة في بقية الجامعة. استغرقت هذه العملية شهوراً من العمل الدؤوب، ثم انتهت إلى لا شيء..

حين عرض مروان خطة التطوير لإقرارها لم يلقَ أي تعاون من أي طرف - لا الأساتذة ولا روبرتا ولا حتى الطلبة الذين يفترض أنهم المستفيدون الرئيسيون من الإصلاح. قال تميم إن الخطة طموحة أكثر مما ينبغي، وتضر بوضع القسم في الجامعة. مثلاً، التشدد في معايير القبول يقلل عدد الطلبة الذين يلتحقون بالبرنامج، وهو ما يعني فقدان القسم لموقعه كأكبر أقسام الجامعة، وهو ما ينعكس سلباً على ميزانيته. وبالتالي أصر تميم على الاستمرار في السياسة القائمة؛ قبول أكبر عدد ممكن من الطلبة بحيث يملأون فصول البرنامج، ثم تركهم يفشلون في كتابة مشروعات رسائل الماجستير وساعتها يتركون البرنامج. بذلك لا يحصل أحد على درجة الماجستير دون استحقاق، وفي نفس الوقت يحافظ على العدد المرتفع للطلبة المدرجين في الكورسات. يارا اعترضت على تخويل مدير البرنامج أي دور في اختيار المشرفين، قائلة إن هذا يجب أن يظل أمراً بين الطالب والأستاذ. حاول مروان توضيح عواقب ذلك؛ المحسوبة، تهرب البعض من أعباء

الإشراف، وغير ذلك من الأسباب التي دعت جامعات العالم كله لتبنى هذه الطريقة في الإدارة. ياسر وتهاني اعترضوا على تدخل أي شخص سوى المشرف في توجيه الطلبة، أو وضع جدول زمني لضمان إنهاء الطلبة رسائلهم في مدى معقول. وهكذا، اعترض كل شخص على الجوانب التي تمس مصلحته بغض النظر عن أثر ذلك على جودة البرنامج نفسه. حتى ممثلي الطلبة، فعلوا نفس الشيء. وهكذا، اقترح الحاضرون - أساتذة وطلبة - تعديلات في الخطة؛ قضم كل منهم جزءاً من الإصلاحات المقترحة وصوتوا جميعاً لصالح نسخة مخففة تفرغ هذه الإصلاحات من مضمونها.

ذكرته لبني أنه حاول إقناع زملائه بالتراجع عن تعديلاتهم بمناقشتهم في جدواها كأن هذه التعديلات تعكس اختلافات فكرية لا مصالح شخصية! وحتى بعد إقرار التعديلات التي طلبوها قرر ألا يستسلم. صحيح أن خطة التطوير التي تم إقرارها هي نسخة باهتة من الخطة الأصلية، لكنها يمكن أن تكون بداية لعملية إصلاح طويلة المدى. قال هذا لنفسه وواصل العمل محاولاً - من خلال إدارته للبرنامج، تفسير بنود الخطة بأفضل طريقة ممكنة. حاول أيضاً استخدام ما تصور أنه علاقته الطيبة بتميم ويارا وياسر وتهاني والطلبة كي يدفع بهذه الإصلاحات قدماً. لكن الذي حدث هو العكس تماماً. فسر كل منهم بنود الخطة بالطريقة التي تحول دون تغيير أي شيء يخصه، مستخدمين علاقتهم الطيبة بمروان لإعفاء أنفسهم مما لا يريدون. عند كل إجراء اصطدم مروان بزميل أو بأحد

الطلبة: كل منهم يريد من الآخرين تغيير سلوكهم، يريد من الآخرين الالتزام بالقواعد، يريد من الآخرين توخي المصلحة العامة للطلبة والبرنامج والقسم، لكن لا أحد يريد فعل ذلك بنفسه. حتى روبرتا هوارد أجمعت عن الاستجابة لأي طلب قدمه مروان. وبعد تكرار المطالبة وتكرار الرفض، وبعد الانتقال من طلبات مكلفة - تتعلق بتعيينات أو مصروفات - إلى طلبات غير مكلفة لا تحتاج سوى قرارات منها، فهم أنها لن تساعد. سأل لبنى - كان ذلك في الوقت الذي توطدت فيه علاقتهما - عن سر ذلك وما إذا كانت لا تحترمه أو تثق به. لبنى ضحكت وقالت إنه من الغريب أن يتوقع مساعدتها:

- لكن أكيد أنها ترغب في إصلاح القسم.

ضحكت لبنى ثانية متسائلة عن علاقة هذا بذاك؛

- إن نجحت حضرتك فعني ذلك بقاء تميم رئيساً للقسم، وهي مصممة على الإطاحة به، ومن ثم فلن تساعدك! إزاي مش واخذ بالك؟

لم يدع مروان هذا التشاؤم يقف في طريقه، وواصل محاولاته لتطوير البرنامج، ولو خطوة خطوة، ولو نصف خطوة، سيواصل الضغط ويوماً ما سينجح. هكذا قال لنفسه، لكن إصراره هذا قاده إلى الصدام مع زملائه الواحد تلو الآخر. حين نحى يارا عن الإشراف على رسالة جديدة لا تدخل في اختصاصها العلي أرسلت له إيميل

تلعن فيه أجداده، ووزعته على بقية أعضاء القسم. حين قال لطالب يعمل تحت إشراف ياسر إن مشروع رسالته يغلب عليه الجانب الإيديولوجي ويحتاج إلى إعادة كتابة كي يتوافق مع المعايير العلمية، أرسل له ياسر طوفاناً من الإيميلات العدائية. حين ذكر تميم بضرورة الرد على رسائل الطلبة الذين يشرف على رسائلهم بعد شهرين من الانتظار رد عليه بإيميلات يهدده فيها. وحين رفض مناقشة مشروعات رسائل تشرف عليها تهاني تم تقديمها بعد الموعد المتفق عليه قاطعته. حين ذكر معاذ عاكف بضرورة إنهاء الرسالة التي تأخر في تقديمها عامين كاملين اتهمه بالتممر، وهكذا. بعد عدة أسابيع من بدء تنفيذ خطة التطوير كانت علاقته بالجميع قد تدهورت. وحين عرض استقالته من دوره كمدير للبرنامج لم يعترض أحد أو يطلب منه البقاء. وعاد تميم لإدارة البرنامج.

- بس دي حالة واحدة، تجربة، مش معناها إن فكرة التطوير محكوم عليها بالفشل!

- ههه، لا طبعاً. الفكرة دائماً سليمة، العيب في الواقع. مش باقولك عينك على الإمكانية. يا دوك المهم الواقع مش الفكرة، المهم الواقع مش الإمكانية!

- أديني باحاول، هاخسر إيه؟

- غير تضيع عمرك؟ هياكلوك. انت مش فاهم قد إيه انت مزعج بالنسبة لهم؟ ما لكش ماسكة؛ هم كل واحد

وليه دية، معروف هو عازي إيه. انت عامل فيها شريف،
وبالتالي مش عارفين يتعاملوا معاك، فكل واحد هيحسبك
على الثاني، أو هيشوف إنك عقبة، وفي الآخر هيتفقوا
كلهم عليك. خدّها كلمة من واحدة قلبها عليك: سافر،
قبل فوات الأوان.

- وانت قلبك عليّ ليه خير؟ مش تشوفي حد في سنك
أحسن لك؟

- مش باقولك انت عبيط!

* * *

تليفون يارا هو الذي حل اللغز. اتصل خبير المعمل
الجنائي ليبشر عصام أنه قد حصل على نسخة من محتويات
تليفونها، ثم تمكن من فتح التليفون نفسه:

- كانت حاطه كلمة السر في بياناتها!

طلب منه عصام إرسال كل ما يجده بالتليفون، بدءًا
بما يخص تهاني التلاي: إيميلات، رسائل نصية أو على
فيسبوك أو تويتر أو أي برنامج آخر، صور، فيديوهات، أي
شيء يحتوي على اسم تهاني. بعد حوالي ساعة عاود الخبير
الاتصال وقال إنه جهز المطلوب وسيرسله له في التو.
استغرق الأمر من السائق ساعتين حتى وصل المطلوب
إلى عصام. خلاهما كان عصام يضع أمامه كل

المعلومات المتوفرة لديه ويحاول حصر الأسئلة التي تثيرها
ويفكر في مغزى كل ذلك.

بعد ذلك، لم يستغرق فهم الموضوع من عصام طويلاً.
كان كل شيء هناك، في رسائل بينهما على «سجّال» -
برنامج الاتصال الذي يظن كثير من مستخدميّه أنه غير
خاضع للمراقبة. الرسائل القصيرة التي تبادلها - بالإنجليزية
- حديثة، قبل قتل يارا بثلاثة أيام.

صباح الخير يا خريه

؟؟

لديّ أخبار تهمك

خير؟

خبر عاجل: نهاية حزينة

لمسار مهني بائس

لأستاذة متدنية المستوى

ماذا حدث؟ هل قررت

كتابة مذكراتك؟

ههههه. لا، مذكراتك

انت

طيب بالتوفيق!

ليس لديك فضول؟

ليس لدي وقت للتفاهات

لماذا؟ هل لديك مواعيد

هامة؟ مثلاً، مواعيد

في المركز

الأكاديمي الإسرائيلي؟

؟؟

هههههههه. هل ستقضين

المحادثة كلها في

علامات الاستفهام؟

ماذا تريدن يا يارا؟

أريد فشحك. أريد

القضاء عليك

ممتاز. يا لها من

مشاعر نبيلة

لا الموضوع الآن يتخطى

المشاعر، اليوم أصبح لديّ

الوسيلة لترجمة هذه المشاعر

النبيلة إلى واقع. كل ما في

الأمر أنني أردت مشاطرتك

أفراحي

مبروك.

وما علاقة المركز

الإسرائيلي بذلك؟

ها! كنت متأكدة أن هذا

سيجذب انتباهك

كل ما أريد معرفته

هو: هل هناك إنسان

عقل يوقع على مذكرة

تفهم مثل هذه؟

ماذا كنت تظنين؟

أين كان عقلك

يا ست العاقلين؟

لا أفهم عم تتحدثين

أتحدث عن هذا

jpeg.Tahal \

Download



الصورة التي أرفقتها يارا عبارة عن جزء من الصفحة الأولى من مذكرة تفاهم بين المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة و«مركز دراسات النيل»، عنوانها والجزء الظاهر من المقدمة تشير لتمويل المركز لمشروع بحثي يقوم به المركز حول اتجاهات الرأي العام المصري إزاء إسرائيل في أعقاب توقيع اتفاقيات أوسلو الثانية. أمسك عصام بتليفونه وبحث عن مركز دراسات النيل على «جوجل»، وجاءت النتائج كما توقع؛ مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية تابع لجامعة حلوان، على صفحته الرسمية بعض الأبحاث والأوراق المتفرقة، ثم نبذة عن المركز ونشاطاته وهيئة إدارته، وفي وسط هذه الصفحة صورة لرئيسة ومديرة المركز الدكتورة تهاني التلاي. تجول في الموقع قليلاً ووجد فيه رابطاً لقسم العلوم السياسية بالجامعة، وبالضغط عليه طالعه صورة رئيس القسم، د. عبد الرحمن صديقي.

* * *

ظل عصام يرقب وجه تهاني وهو يتغير من لونه الخمرى إلى الأبيض تدريجياً، ثم ينتقل إلى اللون الأحمر. كانت تقرأ ولا تنظر إليه أو تعلق. بعد دقائق عاد وجهها للونه الطبيعي ورفعت رأسها لتنظر إليه مباشرة في عينيه:

- انت جبت الرسائل دي منين؟ من على تليفونها؟

- لا، واضح إنهم اتمسحوا من على التليفون.

- أمال لقيتهم فين؟

- المرحومة كانت عاملة ملف باسم حضرتك ومحفوظة
جواه بصورة من محادثاتكم وأشياء أخرى تخص حضرتك.
واضح إن كان في بينكم معزة خاصة!

- آه، مفهوم. طيب عايز تعمل إيه بالكلام ده؟

- حضرتك رأيك إيه؟

- رأيي تقطعه وترميه في الزبالة.

- اشمعني؟

- عشان ده تضيع لوقت حضرتك ووقتي وشوشرة مضرة
لكل الأطراف.

- مش دافع للقتل؟

- قتل مين يا أستاذ انت؟ انت مجنون؟ هي أي نعم بنت
كلب وتستهال القتل، لكن أنا مش مجنونة أضيع نفسي
عشان واحدة زيها!

ابتسم عصام؛ هذا أفضل كثيراً من حوارات كانت
زميلة عزيزة وأشعر بالصدمة. ارتقى الحوار فجأة من

الكلام الفارغ إلى كلام نصف فارغ. ظلت تهاني مصرّة على التقليل من شأن الرسائل ومن شأن تهديدات يارا. فهي صحيح وقعت هذه الاتفاقية، لكن ذلك كان بعلم الأجهزة المعنية وبطلب منها، فالدراسة برمتها لم تحدث وإنما تمت كتابتها بمعرفة خبراء أمن قومي بهدف «التضليل الاستراتيجي».

- التضليل الاستراتيجي؟

- أيوه، لو تسمع عنه. يارا افكرت نفسها لقت لقية لكن الحقيقة إن ده جزء من عملي الوطني اللي أفخر به.

- يعني ما كنتيش خايفة تنشر الكلام ده؟

- لا، إطلاقاً.

- مش خايفة ده يعملك فضيحة شخصية بعد ما هاجمت يارا علناً واتهمتها بالتعاون مع إسرائيل؟

- لا مش خايفة. ساعتها هاقول الحقيقة وهيتضح موقفني الوطني لأي مشكك. اللي خاف هو الأجهزة الأمنية اللي تعاونت معها لعمل الدراسة.

- اشمعني؟

- لأن يارا لو نشرت كلامها هتكشف العملية اللي قاموا

بها وتبوظ التضليل الاستراتيجي.

- وبناء عليه.

- شوف بأه حضرتك، احسبها انت.

- ده كلام كبير. انت بتعقدي الموضوع وتقحمي حاجات مالهاش داعي.

- انت اللي بتدخل نفسك في متاهات مالهاش فائدة. قلتك من الأول ده موضوع معقد ولو احتجت مساعدة تعالى لي. انت اللي بتضيع وقت في نبيت بايظ ومحاوله خنق وكلام فاضي.

أخذ عصام نفساً عميقاً وظل يحدق فيها وهو صامت. بقيت هي الأخرى صامته، تنظر إليه تارة وتارة أخرى تنظر إلى الرسائل من جديد وتعبث بأوراقها بأصابعها.

- تعرف يا حضرة الضابط، لو بتدور ورا الدافع هتلاقي كل واحد في القسم ده عنده دافع يتخلص من يارا. تيم وقصصه معاها اللي مالهاش أول من آخر، ياسر اللي بيكرها ويخاف منها لأنها ماسكة عليه حاجات توديه في داهية، معاذ اللي ماحدش فاهم إن كان يحبها زي أمه ولا عشيقته، والبت صاحبة معاذ اللي بتكرها بسبب كده، والثالث اللي يبيع لها المخدرات، وهكذا. كلهم بيكرهوها، كلهم بيكرهوا بعض! ده مستنقع. وده جزء من

المشكلة اللي حبيت أشرحها لحضرتك أول يوم سألتني. دي مش جامعة عادية، ودي مش أوضاع عادية. واحدة زي يارا دي مكانها حجز بوليس الآداب أو مكافأة المخدرات على حسب اللي يوصل الأول. وبدل كده عاملة فيها أستاذة وباحثة ونجمة، وجامعات العالم يعزموها، وتطلع نتكلم في مؤتمرات وفي الإعلام، وعندها متابعين على تويتر زي الرز. في حين إن واحدة زي أنا، المخلصة لوطنها ولثوابته ومؤسساته، قاعدة في الظل. كل شغلي وإسهاماتي في الظل. فورد مش هتديني نص مليون دولار أعمل مشروع، والأمريكان مش هيحتفوا بي وبشغلي. لأنني مش على هواهم. لكن الأشكال الوسخة دي على هواهم. ولو حد حاول ينضف المكان منهم، يمنعوه. عشان هم عايزينه كده، مستنقع، يجذب الناس ليه ويغرقهم في الوساخة.

- بس إيه علاقة الكلام ده بقتل يارا.

- ده السياق اللي باقولك عليه من ساعة ما شفتك. ده السياق، ومش هتفهم حاجة من غيره، أو هتفهم غلط. فيا إما تفهم السياق، يا تسبيك من الدخول في القصص دي كلها - قصص مين اللي بيكره مين وليه - وتركز على الجانب الجنائي.

- وإيه بأه في نظر حضرتك الجانب الجنائي؟

- اللي هو التحقيق الجنائي زي ما الكتاب يقول؛ سلاح جريمة، بصمات، كده! إذا لقيت دليل دامغ يبقى عندك

متهم، من غير تحرصات. مفيش دليل يبقى ضد مجهول،
أو جايز انتحار. ياما قضايا كبيرة، قضايا رأي عام، خلصت
كده. هو احنا عرفنا مين قتل كينيدي ولا الأميرة ديانا
ولا سعاد حسني ولا أشرف مروان؟ هي يارا رفيقي
التافهة ونهايتها التعيسة أهم من القضايا دي أو حتى تقارن
بيهم؟

- ما هو لو هنمشي بالبصمات حضرتك بصماتك على
قرازة النبيت، وشارياه ببطاقة ائتمانك. ودلوقت اتضح إن
عندك دافع!

- مش باقولك بتضيع وقت.

- والله أنا ضابط مباحث، باعمل تحرياتي وأديها للنيابة،
خلي النيابة تقرر بأه إن كان ده تضيع وقت ولا لأ.

- خلاص، اعمل بأه تحرياتك مضبوط وكلها للآخر؛
شوف بقية أعضاء القسم عملوا إيه وكانوا فين وعلاقتهم
بيارا شكلها إيه. ده مستنقع يا سيادة الرائد؛ عايز تنزل فيه
اتفضل، بس أنا باقول لحضرتك إنك هستوخ في الآخر!

- حضرتك بتهديني ولا حاجة وأنا مش واخد بالي؟

- حاشا لله يا فندم. صدقني أنا في صف حضرتك
وباحاول أساعدك.

- طيب شكراً. يا ريت حضرتك ما تغادرش مساكن الجامعة لغاية ما أقول لحضرتك الخطوة الجاية إيه.

- اللي تشوفه يا فندم. أنا في خدمة القانون والأمن.

* * *

لم يتوقف تليفون عصام عن الرنين أثناء حديثه مع تهاني: بدران أبو سره. أشار إلى تهاني بأن تنتظر لحظة ورد. قال بدران إنه سيمر عليه فوراً لاصطحابه للقاء البروفوست عبد الرحمن صديقي لمسألة تهمة. سأله عن بيانات باب مكتب يارا، فقال إن خبراء الآي تي لم يتمكنوا من استعادتها لكن بيانات بقية الأبواب موجودة. شكره وطلب منه إحضارها معه لو أمكن. أغلق الخط وشكر تهاني على سعة صدرها وطلب منها مجدداً ألا تغادر الجامعة، ثم أبلغ الحراسة بذلك لتتولى تأمينها. حيثه بهدوء وخرجت من القاعة. ظل عصام جالساً يفكر في كل هذا وبعد دقائق معدودة كان بدران واقفاً بالباب. اصطحبه وسارا باتجاه مكتب البروفوست في الطابق الأعلى من القاعة التي يعمل بها عصام. استغرق الطريق من القاعة لمكتب البروفوست حوالي خمس دقائق، ملأها بدران بالحديث عن الدكتور تهاني ووطنيتها وتعاونها مع الجهات الأمنية وضرورة معاملتها بما يليق بمكانتها وتاريخها، مع عرض المساعدة إن احتاج التواصل مع هذه الأجهزة لتوضيح أي شيء قد يكون غائباً عنه أو يحتاج إلى تفسير.

عند باب البروفوست أوقفتهما السكرتيرة بابتسامة مهذبة وطلبت منهما الانتظار عدة دقائق حتى ينهي البروفوست مكالمته التليفونية. جلسا ينتظران. بالداخل، كان البروفوست يتحدث مع تميم في التليفون عن تطورات التحقيق. تميم، الذي أحاطه بتفاصيل ما جرى بينه وبين الضابط، أبدى قلقه على الاتجاه الذي يسير فيه التحقيق. المشكلة في نظره ليست اتهامه بقتل يارا، فهذا اتهام سخييف سيتبين ولا شك عدم صحته. المشكلة الحقيقية أن هذا الضابط سيظل يختر في شئون القسم والجامعة ويتسبب في مشاكل لا يمكن السيطرة عليها. وكل هذا، كما أكد تميم، بسبب روبرتا ورعونتها. البروفوست صدقي يستمع ولا يقول الكثير؛ يهمهم، يضيف كلمة هنا أو هناك، لكنه لا يعد بشيء. في نهاية المكالملة طلب منه تميم مجدداً الحديث إلى روبرتا وتعقيلاها من أجل احتواء الصراع داخل الجامعة، لأن للجميع مصلحة مشتركة في السعي لاحتواء هذا التحقيق ونتائجه. وعده عبد الرحمن بالحديث إلى روبرتا واتفقا على استئناف الحديث لاحقاً.

حين دخل عصام مكتب البروفوست حياه باحترام شديد ثم كرر على مسامعه ما قاله له بدران في الطريق بخصوص تهاني. سأله عصام عن سابق علاقتهما بجامعة حلوان فأكد له عبد الرحمن أنهما تزاملا في الماضي، ثم غير الموضوع وسأله مباشرة عن فرضية الانتحار. أعاد عصام ما سبق وقاله لروبرتتا من استبعاد هذا الاحتمال بالنظر لحال الجثة ومسرح الجريمة، لكن البروفوست واصل الدفع في نفس الاتجاه، وبدران يومئ مؤيداً:

- ما هي مش مضروبة بطلقات رصاص متعددة مثلاً.
انتحرت بطلقة من مسدسها.

- أولاً ما نعرفش إن كان ده مسدسها. لسه بائحري
عن ملكية المسدس. شخصياً أستبعد إن واحدة ست
زي الدكتوراة يارا تشتري مسدس حلوان: كانت جابت
أي مسدس صغير وحريمي. وبعدين إزاي ماحدث سمع
صوت أي طلقات؟ وإزاي نفسر الطعن؟

- ممكن جداً تكون طعنت نفسها!

- ليه هتطعن نفسها؟

- جاز حاولت تنتحر بالطعن، ما عرفتش فضربت نفسها
بالنار.

- وليه ده كله؟ ما تنتحر بحبوب.

- الله أعلم!

- ده غير قصة النبيت المسموم.

- لا، موضوع النبيت ده لا علاقة له بموتها؛ دي مجرد
صدفة سيئة!

- والخنق.

- لا، واضح إن الخلق ما قتلهاش!

- مش عايزين نستبق الأحداث يا دكتور.

- لا طبعاً، بس برضه مش عايزين نهمل اقتراض مهم.

- حضرتك ليه معتقد إنها انتحرت؟

- أنا مش معتقد إنها انتحرت، أنا بس باقول جازي تكون انتحرت، وسامع إن حضرتك مستبعد الاقتراض ده، فحرصاً على سلامة التحقيق وعلى الوقت حيت أتأكد من حضرتك.

- هل عند حضراتكم معلومة تدعو للاعتقاد إنها انتحرت؟

قالها وهو ينقل بصره بين البروفوست وبين بدران. اعتدل بدران في جلسته كأنه سيهم بالكلام ثم عدل عن ذلك. تحدث البروفوست ببطء وبصوت منخفض أكثر من العادي، فقال إن مشاكل يارا كانت أكثر وأكبر من المعروف لعامة الأساتذة والطلبة. تتخطى هذه المشاكل صراعاتها مع تميم نسيبة أو الضغائن المتبادلة مع تهاني التلاي، بل وتتخطى كذلك مسألة المخدرات وشكاوى بعض الطلبة من سلوكها. فالحقيقة أن ملفها ممتلئ عن آخره بالمخالفات، وبالإضافة إلى ذلك فملفها الأمني أيضاً به مشكلات كبيرة - وهذه غير مذكورة بملفها لدى

البروفوست لكنه على دراية بها. وهناك مخالفات أخرى تمت خارج الجامعة؛ تم توقيفها في المطار مرة ومعها مخدرات، تم إبعادها من الولايات المتحدة بسرعة في ظروف ملتبسة لها علاقة بتهمة تحرش أثناء مؤتمر. في كل مرة كانت الجامعة تتدخل لإنقاذها، لكن مؤخراً تغير الوضع. قال البروفوست إنه أبلغها يوم وفاتها أن الجامعة ستبدأ إجراءات لإنهاء تعاقدتها بنهاية الفصل الدراسي الجاري استناداً إلى هذه المخالفات، وأن رد فعلها كان هستيريا.

- الساعة كام حصل الكلام ده؟

- العصر، حوالي الساعة ثلاثة.

- ورد فعلها كان هستيري بمعنى إيه؟

- صراخ وشتيمة وقلة أدب، المعتاد يعني، بس كان تهديد بإنها هتقتل قتل في الجامعة أو تنتحر في مكتبها وتعمل للجامعة فضيحة.

- في حد حضر الاجتماع ده؟

- أيوه، بدران أبو سره.

* * *

عندما عاد عصام إلى القاعة وجد لبنى في انتظاره وهي تلوح بورقة. نظر فيها وفهم على الفور. نظر في الورقة سريعاً ثم اتصل بصديقه خبير المعمل الجنائي الذي كان يحاول الاتصال به بلا فائدة. قال صديقه إنه والطبيب الشرعي متفقان أن الوفاة لم تحدث نتيجة للسم الموجود في النبيذ، فالكمية التي شربتها قليلة جداً وكمية السموم في الجسم أيضاً ضئيلة. لكن الجديد أن هناك كمية كبيرة من الهيروين حقنت نفسها بها ربما تكون قد تسببت في توقف القلب. الطبيب الشرعي ليس متأكداً بعد. لكن؛

- عبوة الهيروين، الكيس، عليه بصمات الطلبة الثلاثة؛
أحلام ومعاذ وناجي. والحقنة التي استخدمتها عليها
بصمات معاذ عاكف.

تنفس عصام بنفاد صبر:

- احنا شكلنا هنجبس الجامعة كلها إن شاء الله!

الفصل الخامس

الفرسان الأربعة

قرر تميم دعوة الجميع لتناول الغداء، بما في ذلك الطلبة الثلاثة. اعتذروا كلهم باستثناء بدران، لكن إلحاح تميم نجح في جرهم إلى صالة الطعام. الصالة الواسعة التي تشفى بالحياة والضوضاء في الأيام العادية خاوية وصامتة. كل المطاعم مغلقة والمقاعد مرفوعة على المناضد. في المنتصف منضدة مستطيلة حولها مقاعد وعليها الطعام الذي طلبه تميم من خارج الجامعة ونقله حراس الأمن. خواء القاعة وصمتها أضاف للتوتر العالق في الجو بين أعضاء القسم. انضمت لبني للغداء بناء على طلب بدران. كان المفترض أن يذهب معاذ لمقابلة الرائد عصام في الثانية بعد الظهر، ومن ثم قال بدران إنه من المستحسن حضور لبني للغداء ثم اصطحابها إياه للقاعة التي يجري فيها التحقيق، بدلاً من ذهابه مصحوباً بحارس أمن كما لو كان متهمًا. أرادت لبني القول إنه متهم بالفعل لكنها أمسكت لسانها، فقد تعلمت أن الصمت هو أفضل استراتيجية للتعامل مع بدران. افتتح تميم الغداء وتبادل بعض الجمل العابرة مع بدران حول نوع الطعام. قالت أحلام بلهجة جافة إنها تريد مرافقة معاذ إلى قاعة التحقيق. نظر بدران إليها ثم إلى تميم وهم بالرد لكن تميم سبقه مقترحاً ذهاب الطلبة الثلاثة معاً من باب المؤازرة. فكرت أحلام لحظة كأنها تقيم

العرض ثم أومات موافقة. أوما ناجي موافقاً هو الآخر.

- هو احنا هنفضل هنا لإمتي؟

وجهت تهاني السؤال إلى بدران. كان هناك طعام في فمه فظل لحظة يعضغه قبل أن يرد ووجه تهاني معلق وموجه ناحيته، والجميع صامتون يترقبون الإجابة. بلع الطعام وتناول جرعة ماء ثم رد أخيراً:

- الضابط يقول عايز يقفل المحضر على بكره بالكثير!

- بكره؟ لسه يوم كان في الحبسة دي؟

جاء الاحتجاج من الجميع تقريباً، لكن بدران هز كتفيه بما يعني ألا حيلة له في الأمر، ثم أضاف بعض الكلمات بهذا المعنى مع شرح فداحة الموضوع وأهمية التحقيق. وعند هذه النقطة فقد الجميع الاهتمام بما يقول وعادوا إلى الطعام. ظلوا صامتين بعد ذلك. تهاني لا تكاد تنظر لأحد، وياسر يتجنب الحديث. مروان تبادل بعض الأحاديث غير المهمة مع كل منهم ثم استسلم. تميم كان يتبادل حديثاً جانبياً معظم الوقت مع بدران. أما لبنى فكانت تأكل وهي تتأمل الجميع في صمت. سألت تميم صديقه عدة أسئلة عن سير التحقيق وعن الإجراءات المعمول بها في مثل هذه الحالات، وأجابه بدران بإسهاب يتفق وخبرته الأمنية الطويلة. من هنا تطرق تميم إلى ضرورة استعادة التعاون بين هيئة التدريس وإدارة الجامعة

لاحتواء الموضوع. أمن بدران بدوره على ذلك فقال تميم
في أسى إن العقبة الرئيسية أمام ذلك هي روبرتا وطريقتها
في الإدارة التي تقسم الناس بدلاً من أن تجمعهم. هز
بدران رأسه عند ذلك وقال إن لكل مشكلة حلاً.

هل هذا أسوأ غداء شاركت فيه في حياتك؟

كتبت لبني لمروان.

من ضمن الأسوأ بلا شك

أظن أنني أستطيع تقطيع

التوتر بالشوكة والسكينة!

لا داعي للذكر السكاكين!

معك حق! هل تفضل أن

أقول: التوتر يسمم الجو

أفضل أن تصمتي

أو أن أقول «هذه جرعة

زائدة من التوتر»!

اصمتي! ستجعليني

أضحك بصوت عالٍ!

هل تظن أن الموضوع

سينتهي هنا؟ عند معاذ؟

أنتِ أدرى. أنتِ مساعدة كولومبوا!

إمم. لا أظن. أظن أن الخيط

ينفطر حتى يقبض علينا جميعاً

دائماً ما تبهريني بتفاؤلك

مثل لعبة الشايب

لا أعرفها

لا تعرف الشايب؟ متأكد أنك

نشأت وترعرعت في طنطا؟

نعم، لكن أُمِّي لم تكن

تسمح لنا بلعب الكوتشينة

طيب. هي لعبة بسيطة؛ هناك شايب
واحد في الورق، يسحب كل لاعب
من زميله ورقة، ويتخلص من كل
ورقتين متطابقتين بحيث يتبقى
فقط الشايب الخاسر.

اللعبة كلها ألا تكون الأخير وفي
يدك الشايب. السؤال الآن هو من
عليه الدور بعد العيال دي؟

أنت أم ياسر؟

أتمنى ألا يكون أنا

لكن هذا سيجعلك الأخير،

وبالتالي لن يكون هناك

من تمرر له الشايب

أمرره لك، أو لنائلة أبو فكري

أبو ذكري

أيًا كان

صحيح، تطلع هي القاتلة

في النهاية

طيب هل يمكنك إنقاذنا من

هذا التعذيب واصطحاب

الطلبة الآن؟

لحظة واحدة: سأجري قرعة

لأعرف إن كان الدور عليك

أم على ياسر

ارحمينا يا لبني وخذي الطلبة

ودعينا ننهي هذا الغداء التعيس

اللجنة. لقد كسبت القرعة ثلاث مرات:

لا مفر، الدور عليك. بالمناسبة،

هل تعرف أنني لم أجد أي إيميلات

متبادلة بين يارا وبينك أو بين يارا

وباسر خلال الشهور الثلاثة الماضية؟

لا، لا أعرف

أليس هذا غريباً؟

هناك إيميلات كثيرة ينتنا

لا أعني الإيميلات الجماعية التي

ترسلها نائلة بتعديلات الجدول

ومواعيد الاجتماعات. إيميلات ثنائية.

لا يوجد ولا رسالة!

لم يرد مروان.

هل تبادلتما إيميلات ثنائية؟

ظل مروان صامتاً عدة دقائق ثم كتب:

هل قررت تهمص شخصية

الرائد عصام؟

هههه، لا صحيح، هل تبادلتما

إيميلات جانبية؟

لا أذكر. لو تبادلنا إيميلات

فلا بد أنها لم تكن ذات أهمية

غريبة!

لم يرد مروان. دقائق أخرى ووقفت لبني معلنة ضرورة التحرك باتجاه القاعة. جمعت أحلام حاجياتها وساعدت معاذ على جمع حاجياته وقاما سائرين باتجاه الباب الوحيد المفتوح. انضمت لهما لبني ثم توقفت عند الباب والتفتت ناحية الجالسين وقالت بصوت لا يخلو من الحدة:

- ناجي؟ جاي معانا.

انتفض ناجي كأنه فوجئ ثم قام ولحق بهم.

* * *

التحقيق مع معاذ لم يستغرق طويلاً. كما توقع عصام أنكر معاذ علاقته بحقنة المخدرات، وسخر من تأكيد الضابط أن بصماته على الحقنة. اتهم الشرطة والمعمل الجنائي بتلفيق التهمة له كي يغلقوا القضية ويتخلصوا من صداعها، وذكر الضابط بأن أعضاء القسم كلهم دخلوا مكتب الدكتور يارا قبل وصول الشرطة والمعمل الجنائي، وبالتالي فإن مسرح الجريمة ملوث ولن يصمد أي دليل يحاولون اختلاقه أمام المحكمة. ولما سأله عصام لماذا يظن بأن الشرطة ستلحق له تهمة مثل هذه، أجاب أن ذلك قد يكون لنشاطه السياسي.

- إيه نشاطك السياسي؟ انت بتعمل إيه؟

- أنا في اتحاد الطلبة!

- أيوه بتعمل إيه يعني في اتحاد الطلبة؟

- وقفات احتجاجية، تضامن مع عمال النظافة، إضرابات عشان المصاريف، حضرتك مش ضابط مباحث برضه وعارف بنعمل إيه؟

تجاهل عصام سخريته وواصل الضغط عليه شيئاً فشيئاً. سأله عن أماكن وجوده قبيل بدء الانتجاع وما إذا كان قد مر على مكتب القتيلة فأنكر. سجل ذلك في المحضر. سأله عن علاقته بالقتيلة وما إذا كانت تشمل علاقة

خاصة فأنكر، وسجل عصام ذلك في المحضر. سأله إن كان قد ساعدها في تناول المخدر فأنكر، وسجل عصام ذلك في المحضر. ثم واجهه بكذبه في كل هذه الإجابات. بصماته موجودة ليس فقط على الحقنة، بل كذلك على ساعدها الذي حقنت فيه، وعلى الكيس الذي كان يحوي المخدر، وعلى حقيبتها وكثير من محتوياتها، وعلى باب المكتب. لا يمكن أن تكون كل هذه البصمات نتيجة وجوده العرضي في مسرح الجريمة «الملوث» إلا لو كان دخل وأخذ يتحسس كل شيء في المكتب. لا يوجد قاضٍ واحد يمكنه تصديق ذلك، خاصة إذا ما عرف أيضاً بطبيعة علاقته بالقتيلة. كما أنها اتصلت به من تليفونها في حوالي الرابعة والنصف. ولم يبقَ سوى بيانات برج المحمول التي ستصل في الصباح بالكثير والتي ستحدد ما إذا كان قد وجد بقرب مكتب القتيلة أم بقرب مقر الانتجاع.

- يعني سعادتك لابساك أكثر من تهمة، ابتداء من تضليل العدالة لغاية القتل، سواء عمداً أو بطريق الخطأ، مروراً بالتعاطي أو الاتجار. باختصار، انت هتطلع من هنا على النيابة ومن هناك على السجن اللي هتفضل فيه لغاية ما تروح المحكمة. وابقى خلي لماضتك وقلة أدبك دول ينفعوك هناك.

التغير الذي طرأ على نظرة معاذ كان طفيفاً، لكنه لم يفت على عصام. يعرف جيداً هذه اللحظة، بالذات لدى المتهمين «المحترمين». فسواء كانوا مذنبين أم أبرياء، يبدأون جميعاً كما بدأ معاذ، بمزيج من الإنكار والاتهامات العشوائية

والعنجهية. ويظنون هكذا حتى تحبطهم حقيقة وضعهم على دماغهم. بعضهم يحدث له هذا سريعاً وبعضهم لا يفهم حتى يقضي ليلته الأولى في الحبس. التغير في نظرة معاذ إشارة واضحة بأنه من النوع الأول. وهو كل ما يحتاجه عصام كي يقوده كما تقاد فريسة مذعورة إلى المكان الذي يريد دفعه إليه: التعاون.

بعد حوالي نصف ساعة من الحوار الضاغط اعترف معاذ بما حدث. اتصلت به يارا بالفعل بعد الرابعة وكانت تبكي فطلب منها إغلاق الخط وذهب إلى مكتبها على الفور. هناك وجدها في حالة سيئة، مزيج من البكاء والشكوى المستيرية من ضياع حياتها ومستقبلها وفشلها في كل شيء. هو يعرف هذه الحالة جيداً، فقد كانت يارا تمر بفترة سيئة خلال العام الماضي وعادة ما تنتابها هذه الحالة. في البداية كانت الحبوب المهدئة تكفي، لكن منذ عودتها للمخدرات ولا شيء يفلح في تهدئتها سوى الهيروين. لكن حالتها كانت من السوء إلى درجة منعتها من مجرد العبور على جرعة الهيروين ناهيك عن حقن نفسها، ظلت تفرغ في محتويات الحقبة وهي تبكي وتصرخ وتسب نفسها وكل من تعرفه دون نتيجة، فقام معاذ واحتضنها ليهدها وأخذ الحقبة وأخرج منها كيس الهيروين وناولها إياه. هدأت دموعها للحظة وتوقفت عن الصراخ وتوسلت إليه أن يعطيها الحقنة. لم تكن هذه هي المرة الأولى أيضاً. فأعطاها الحقنة وتركها حين هدأت كي ترتاح. غادر المكتب وهو يظن أنه سيراه في الانتجاع حين تفيق. لم يرها بعد ذلك إلا مع بقية القسم حين هرعوا جميعاً لمكتبها بعد أن وجدتها نائمة

- والجرعة؟ مين اللي حدد الجرعة؟

أقسم معاذ وهو يغالب دموعه أنه لم يتعاطَ مخدرات في حياته ولا يعرف شيئاً عن جرعاتها، وتطوع لإجراء اختبار لإثبات كلامه. إبراهيم ناجي هو الذي يزودها بالمخدرات مثلها يزود الجامعة كلها، وهو الذي يعرف جرعتها ونوع المخدر الذي تتناوله بالضبط، كل ما فعله معاذ هو حقنها، وهو يعرف كيف يستعمل الحقن من أيام تدريبات الإسعاف الأولي التي كان يتلقاها في المعسكرات.

- معسكرات إيه؟

- معسكرات الصيف اللي أهالينا كانوا يبيعونها فيها.

- هو انت أهلك إخوان؟

عادت الابتسامة الهازئة إلى وجه معاذ للحظة:

- إيه يا حضرة الضابط، انت مش عارف جدي ولا

إيه؟ طيب حتى من الاسم!

فهم عصام فجأة وارتفع حاجباه من الدهشة في تلقائية

ثم تتم بسخرية هو الآخر:

* * *

سار إبراهيم ناجي في نفس المسار: الإنكار والسخرية والانتهاكات الجرافية ثم الصدمة والانكسار والتعاون. لا يعرف شيئاً عن المخدرات ولا يتعاطاها، ولا عن يارا وموتها، ولم يذهب إلى مكتبها ولا علاقة شخصية له بها. ثم يواجهه عصام باعتراف معاذ أنه هو مصدر المخدرات، وبأقوال كل من سألهم بالجامعة، ثم بالرسائل المتبادلة بينه وبين يارا على التليفون والتي تحدد كميات وأسعار ومواعيد. ثم اللحظة الفاصلة: الاختيار بين توجيه اتهامات مختلفة تودي به إلى السجن الأكيد، أو التعاون والخروج سليماً والعودة إلى بيتهم. وكالعادة كان الاختيار واضحاً.

اعترف ناجي أن الجرعة التي أرسلها ليارا كانت ضعف الجرعة المعتادة، وأنه شعر بالقلق من ذلك لكنه شرح لأحلام - التي أبلغته بطلب يارا وتسلمت منه الجرعة - ضرورة مراعاة ذلك وعدم تعاطيها كلها مرة واحدة. وأكدت أحلام له وضوح الموضوع وأن يارا تريد جرعة مزدوجة لتكفي فترة الانتجاع بالكامل. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقوم فيها أحلام بدور الوسيط؛ الحقيقة أنها تفعل ذلك منذ شهور لأن يارا أرادت أن تكون أكثر حرصاً ولا تشاهد مع ناجي أو حتى تكون لها اتصالات مباشرة به نتيجة تزايد الضغط عليها من إدارة الجامعة للتخلص من إدمانها. وبالتالي بالنسبة له فقد كان هذا طلباً

عاديًا ولم يتصور قط أن نتعاطى يارا الكمية كلها، فهي كافية لقتل حصان.

- وإيه اللي يخلي أحلام تقوم بالدور ده؟ اللي فهمته إنها ما كانتش على علاقة طيبة بيارا.

أمن ناجي على كلام عصام، وقال إن أحلام كانت وسيطًا لوسيط، فهي توصل رسائل يارا التي تصلها عن طريق معاذ. فعاذ لا يريد التعامل مع ناجي، لأنه يخشى أن يضر ذلك بسمعته كطالب ملتزم وقائد ومفكر وكاتب وكل هذه الأشياء التي تملأ رأسه. وفي نفس الوقت لا تريد أحلام التعامل مع يارا لأنها ترى أنها شرموطة وتجرب حبيبها والزوج الذي تحلم به إلى الفسق والانحلال.

- أو غالبًا لأنها بتغير منها.

- إيه اللي هيخلي طالبة عندها عشرين سنة تغير من دكتورة في الأربعينات؟

- لأنها عارفة أن معاذ يحب يارا وأنه مصاحبها عشان يارا مش أوبشن.

- مش أوبشن ليه؟ أنا اللي فاهمه إنه كان بينهم علاقة «حميمة».

- أيوه، ما كتير كان ليهم علاقة «حميمة» بيارا، لكن

معاذ يحبها بجذ، وعازها نتوب وكده، وطبعاً هي مفيش
كده عندها. بعدين حتى لو هي ثابت ولا كده هيحصل
إيه؟ هيتجوزها مثلاً؟ مش ممكن يارا تبقى أوبشن مقبول
اجتماعياً خصوصاً لواحد زي معاذ. ده أهله كانوا يقيموا
عليه الحد!

ثم استفاض ناجي في شرح وجهة نظره؛ أحلام هي
القاتلة. قررت التخلص من يارا بإعطائها جرعة زائدة
بحيث لا يشك أحد في الموضوع، كون يارا مدمنة قديمة
وعرضة لذلك في أي وقت. وبالتالي تنقذ فارس أحلامها
من براثن هذه المرأة التي تجره إلى الهاوية وتتخلص من
غريماتها في آنٍ واحد.

- والظعن بالسكينة؟ والرصاصة؟

- ما هو ده الجزء الغريب! الجرعة الكبيرة دي لوحدها
كفاية!

* * *

أحلام سيف هي التي صمدت؛ ولم تفلح ضغوط عصام
في زحزحتها عن الإنكار التام. أنكرت معرفتها بأي علاقة
بين يارا ومعاذ سوى علاقة الأستاذة المشرفة بالطالب
النابعة. أنكرت معرفتها بكيفية حصول يارا على المخدرات
أو بأي دور لها في الموضوع. بل أنكرت معرفتها بأن ناجي
يتاجر في المخدرات:

- لإنو ما بحب أحشر حالي في اللي ما إلي فيه.

وبالتالي أنكرت قيامها بتوصيل الجرعة ليارا، أو بتوصيل أي شيء لها.

ضغط عليها بكل الوسائل الممكنة؛ واجهها بوجود بصماتها على عبوة المخدرات فقالت ألا علم لها بكيفية وصول بصماتها هناك. هدها باعتراف ناجي فسألته عن قيمة كلام أدلى به شخص يقول عن نفسه إنه تاجر مخدرات، في مقابل شهادتها هي الطالبة المتفوقة الملتزمة ذات السمعة الحسنة.

- وحتى لو كان أعطاني إشي أوصله لمعاذ مثل ما بيقول - كيس ولا ورقة ولا أبصر إيش - كيف باعرف محتويات الكيس؟ وطبعاً مش راح أسأل، مثل ما حكيته يا سيادة الرائد إنو أنا ما باحشر حالي في اللي ما إلي فيه.

استدعى معاذ وسأله عما إن كانت أحلام هي التي نقلت له المخدرات من ناجي فأنكر هو الآخر وقال ألا علاقة لها بالموضوع؛ هو الذي أخذ المخدرات من ناجي. ربما يكون قد أعطى الكيس لأحلام مع بقية أشياءه لتضعه في حقيبتها أثناء سيرهما معاً في فناء الجامعة. فهو عادة ما يعطيها أشياءه الصغيرة لتحملها، مثل التليفون والسماعات والشاحن وأحياناً أقلام وما إلى ذلك خوفاً من ضياعها. لكن لا علاقة لها إطلاقاً بموضوع مخدرات يارا ولا بناجي. ناجي كذاب بطبعه، قال. ابتسمت أحلام في

انتصار ولم تضيف كلمة واحدة. هدها باستدعاء أهلها وإخبارهم بما يعرفه عن علاقتها بمعاذ وبما حدث، فقالت له أن يفعل ما يراه ضرورياً لسير التحقيق، وأن أهلها يعرفون معاذ جيداً وهو الذي يوصلها البيت عادة. هدها بالحبس الاحتياطي والجريرة في المحاكم وهي تسأله في تماسك وهدوء عما سيحققه ذلك للتحقيق ومعرفة الجاني. وهكذا، كلما حاول زيادة الضغط عليها أبدت صلابة وهدوءاً أشد.

بعد أكثر من ساعة من اللف والدوران استسلم عصام. تركها تعود إلى غرفتها لكنه سألها سؤالاً أخيراً:

- تفتكري مين اللي قتلها إذن؟

- شو بيعرفني؟ كل اللي أعرفه إن علاقتها بدكتور مروان كانت سيئة جداً وشفتها أكثر من مرة بتخناق معاه بصوت عالي.

- مروان ولا ياسر؟

- مروان طبعاً. د. ياسر أستاذ محترم وملتزم وربى أجيال كاملة في الجامعة وساعدهم يفهموا كيف الدنيا ماشية. كان أعتقد علاقته بالدكتورة يارا كانت إيجابية.

* * *

جلس عصام يقرأ الإيميلات المتبادلة بين معاذ ويارا والتي ترجمتها له لبنى بناء على طلبه. ليس فيها شيء حاسم. هناك ولا شك علاقة خاصة بين الاثنين، يبدو أنها انتهت منذ فترة. معاذ يشير إليها في إحدى رسائله بشغف وحنين، يذكر بها يارا التي تقلل من أهميتها وتصفها تارة بالنزوة وتارة بالحماسة. في رسالة لها تقول إن هذه العلاقة لم تكن لتحدث لولا وقوعها تحت تأثير المخدرات أو الكحول أو كليهما، ثم تتهمة ضاحكة بأنه غرر بها. وهو يرد مماًزحاً بأنها هي التي غررت به باعتبارها الأكبر سناً والأكثر دراية بالعالم كما تقول له في كل مناسبة. تعتذر وهو يرد بأن هذا كان أحلى تغرير. هناك ولع مستمر من جانبه؛ في رسائل متعددة يحاول إقناعها بإحياء العلاقة التي كانت بينهما، ويقر بحبه لها وبأن هذا الحب لم يتوقف لحظة واحدة، وهي تحاول احتواءه في ردودها مع الإصرار على رفض أي حديث عن إحياء العلاقة التي كانت.

كلها أمور درامية ومؤثرة، لكن لا شيء فيها يدين معاذ بجريمة قتل أو حتى الشروع في قتل. هناك إشارات عابرة إلى أحلام، غالباً من جانب يارا التي تصفها بأنها «فتاة مناسبة» وإن كانت متحمسة زيادة عن اللزوم وتظن نفسها عضواً في كُتّاب تحرير فلسطين، وردود مقتضبة من جانب معاذ الذي يقلل من أهمية علاقته بأحلام ويصفها بأنها تشبه الضمادة التي يربط بها جرحاً قديماً، مذكراً يارا بأن مشاعره لا تزال حيث كانت دائماً. هل يكفي هذا لإقناع النياحة بأن أحلام دبرت الجرعة الزائدة ليارا؟ لا يظن عصام ذلك، فحتى لو قرأت أحلام هذه

الرسائل لكان رد فعلها الأرجح هو هجر معاذ لا قتل يارا. هناك موضوعات أخرى في رسائلهم، للمفارقة أقلها هي الموضوعات الأكاديمية مثل تقدم البحث الذي يجريه معاذ تحت إشرافها لكّابة رسالة الماجستير. هناك إشارات عارضة وقليلة لهذا؛ بقية الرسائل تدور حول قضايا شخصية. لكن في نهاية الرسائل وجد عصام أمرًا ملفتًا للانتباه.

في الرسائل التي تبادلها في الشهور الأخيرة هناك إشارات متعددة وغاضبة من معاذ لكل من مروان المفتي وياسر العرابوي وعلاقتها بيارا. في البداية كانت إشارات عابرة ومستفهمة، ومتركة حول مروان الذي شاهده معاذ معها كثيرًا، أكثر مما يحب ومما يراه مناسبًا لإطار الزمالة. ويارا تارة تنهاه عن التدخل فيما لا يعنيه وتارة تؤكد له أن علاقتها بمروان مجرد زمالة. في البداية حاولت يارا التقريب بين عاشقها وبين مروان، فاقترحت عليه أن يأخذ أحد الكورسات التي يدرسها وأن يتعرف عليه وعلى كتاباته. ردود معاذ كانت غاضبة وعنيفة؛ بعد عدة أيام من رسالة يارا قال إنه قرأ كل ما كتبه، وهو قليل على كل حال، ووجده تافهًا سطحيًا يحكي في المحكي. تطورت الكراهية بعد ذلك لتشمل كل شيء يتعلق بمروان، من شكله إلى طريقة حديثه إلى علاقته بالطلبة إلى مواقفه السياسية والفكرية، وطبعًا ما يراه معاذ قريبًا من يارا لا يليق بها. تلت ذلك فترة من الصمت: لا رسائل أو رسائل مقتضبة تتعلق بالجانب الأكاديمي لعلاقة يارا ومعاذ. ثم طوفان من الرسائل الغاضبة من معاذ والاعتذارية من جانب يارا. معاذ يلومها على تورطها مع هذا «الانتهازي الحقيّر» وهي

تحاول تفادي الموضوع وقلب الصفحة. ثم معاذ يعاود الكرة ويستفيض في تقريرها: كيف صدقت تظاهر مروان بالنقاء والبراءة؟ كيف صدقت ادعاءه المستمر بالنبل والترفع عن الصغائر والصراعات؟ كيف لم تر في كل هذا محاولته الحثيثة لرسم صورة لنفسه تجعله فوق الآخرين؟ إن كان هو الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين قد فهم، فكيف لم تفهم هي؟ ولماذا لم تعر تحذيراته اهتماماً؟ كيف سمحت لنفسها بأن يلوثها هذا الأفاق، إلى آخر ذلك. بعد عدد من الاعتذارات فقدت يارا أعصابها وسبت الدين لمعاذ، وانقطعت الرسائل لفترة ثم عادت تدريجياً إلى سيرتها الأولى قبل تورط يارا مع مروان وأصبحت الإشارات لعلاقتها نادرة وغير ذات محل نقاش: مفهوم أنها خطأ ارتكبته لكن لا يخوضان فيه.

ثم تلك الرسالة التي يشير فيها إلى ياسر ويعرب عن قلقه من أن تكرر يارا معه نفس الخطأ الذي ارتكبته مع مروان - مع إقراره بأن ياسر شخص أفضل بكثير من «ذلك المدعي التافه». رد فعل يارا كان الكثير من المزاح والتأكيد باستحالة حدوث أي شيء بينها وبين ياسر، ثم السخرية من معاذ وفهمه. «إن كنت تظن أنني يمكن أن أرى في ياسر هذا أي شيء جذاب فعليك فحص عينيك»، كتبت. لكن معاذ ألح، مشيراً لفهمه لجاذبية ياسر الفكرية باعتباره مفكراً وأكاديمياً من العيار الثقيل، وقائداً سياسياً. ويارا ترد بمزيد من السخرية مذكرة معاذ أن ياسر «لا يحب سوى الفتيات الصغيرات ممن تحت ٢١ سنة مثل صديقتك البلهاء». لكن سخريتها لم توقف

رسائل معاذ التي تحذرها من مغبة التورط مع ياسر قبل أن تحمل يارا مشاكلها مع الكحول والمخدرات. عندها انفجرت فيه يارا وقالت له إن ياسر آخر شخص في العالم يمكنها الاقتران به. وحين أصر معاذ على مساءلتها عما تعنيه كتبت تقول له: «أنت حمار وستظل طول عمرك حمار. حل عن ميتين أمي».

* * *

كان عصام يهم بالاتصال بلبني عندما رآها تدخل القاعة وتحمل في يدها ملفاً. عاد بنظره للرسائل المفقودة أمامه وطلب منها البحث عن أي رسائل يمكنها العثور عليها بين يارا وياسر أو مروان على خوادم كمبيوتر الجامعة تكون يارا - وغالباً مروان وياسر - قد مسحها من جهازها. انتظرت حتى أنهى كلامه ثم مدت يدها ناحيته بالملف الذي كانت تحمله:

- اتفضل، طلبك عندي.

- إيه ده؟

- الإيميلات المفقودة بين يارا وياسر.

- ازاي؟ عرفت منين إن فيه إيميلات؟ ولقيتها فين؟

- أنا مش حمارة. انت نسيت إن أنا اللي ترجمت إيميلاتها

مع معاذ؟ فوصلت لنفس النتيجة اللي انت وصلت لها. وانت بتقرا رحت شوفت بتوع الآي تي وطلعت الإيميلات اللي على السيرفر. تفضل.

نظر بسرعة إلى محتويات الملف:

- دي إيميلاتا مع ياسر؟

- آه.

- ومروان؟

- مفيش حاجة.

- ولا إيميل واحد؟

- مفيش.

- متأكدة؟

- مية في المية.

- غريبة!

- ما غريب إلا الشيطان يا سيادة الرائد!

نظر لها متمعناً ولم يرد.

الجمعة، التاسعة صباحاً

من: يارا الفقي

الى: ياسر العرابوي

عزيزي ياسر

طول عمري لا أحبك، هكذا لوجه الله. حاولت كثيراً فهم سر عدم استلطافي لك. قلت ربما هو شكلك، ربما طريقة كلامك أو ملابسك. كل هذه أشياء سيئة ولا ريب وتبرر عدم استلطافك، لكنها لا تكفيني. على الأقل هذه هي صورتني عن نفسي: لا أحب أن أكون بهذه التفاهة في أحكامي على الناس. لمت نفسي كثيراً، وحاولت أن أرى جوانبك الإيجابية: أستاذ محبوب، نشط ولك كتابات منشورة كثيرة، باحث لك فكر مستقل عن الخط السائد؛ كلها ولا شك مميزات تجعل منك على الأقل زميلاً جيداً يستحق الاحترام واللف، لكنني ظلت لا أحبك.

لا تفهمني خطأ؛ أنا لا أحب كتاباتك ولا أحترمها. في رأيي، كل هذا الحديث عن الكولونيالية وما قبلها وما بعدها هو محض هراء وظيفته الوحيدة تعويض الشعور

بالنقص لدى أبناء العالم الثالث والاستجابة للشعور بالذنب لدى ليبرالي العالم الأول وإعطاء هؤلاء هؤلاء ذريعة للشعور أن حياتهم التافهة لها معنى أكبر من مجرد التدريس. وإعطاؤهم مجالاً آمناً يشعرون فيه بأنهم يناضلون من أجل شيء ذي معنى دون أن يتعرضوا لمخاطر حقيقية. لكن في النهاية هو هراء: لم تكن مجتمعات العالم الثالث على وشك تحقيق طفرة في أي مجال وأجهضها الاستعمار. لم تكن مجتمعات قوية وقادرة على مواجهة الاستعمار لكنها تعرضت لحادث أليم فوقعت في قبضته الغادرة. كانت مجتمعات منحلة وفاشلة وبدائية في معظمها - مع بؤر مضيئة هنا وهناك يطمسها التخلف العام - ولهذا لم يكن أمامها أي فرصة لمقاومة الغزو الاستعماري. لهذا تم استعمارها هي عوضاً أن تستعمر هي غيرها. ومن يومها وهذه المجتمعات تحاول «الالحاق» بمن استعمرها دون جدوى، لأنها مجتمعات ضائعة لا لأنها تعرضت للاستعمار. لكنك تعرف هذا جيداً؛ تعرفه خارج قاعة المحاضرات وخارج الأوراق التي تنشرها. في كل حال لا أكتب لك هذه الرسالة كي أعيدك للطريق الصواب، فشكلتك أكبر بكثير من تبني رؤية فاسدة للتاريخ. ما أريد قوله أن هذه الكتابات الضالة ليست السبب الذي يجعلني لا أحبك، ففي نهاية الأمر أنا أحترم أنك تنشر في دوريات معترف بها دولياً - عكس بقية زملائنا التعساء - حتى لو كان ما تنشره كلاماً فارغاً مثل ذلك الذي تكتبه.

لماذا إذا لا أحبك؟ لا أعرف تحديداً، ربما لشعوري أنك مزيف. هناك شيء مزيف في الحمقة المستمرة على

«الفئات المطحونة» و«المجتمعات المستعمرة» و«الجنوب العالمي» وبقية القائمة. كأنك وجدت فيها سبوبة، لا من أجل المال بل من أجل المكانة، أو الاثنين. أعرف أن الجميع يحتاج إلى شيء يبني عليه مكانته، لكن هناك شيء حقير بشكل خاص في أن يكون أساس مكانتك هو ادعاء رفض المكانة ومعاداة أي ترابية (وهو بالضبط ما يضعك على قمة ترابية من نوع خاص تضمك أنت وحواريك). هناك شيء حقير بشكل خاص في وصم أي مؤسسة غربية بأنها «استعمارية بيضاء» في حين أنك لا تهتم إلا بتقييم هذه المؤسسات وتنظر لغيرها باستعلاء؛ لم يرك أحد تقضي فصلاً دراسياً في جامعة بني سويف أو زمبابوي أو تنشر في دورية أفريقية معادية للهيمنة أو حتى تشارك في مؤتمر تبناه مؤسسة جامعية من العالم الثالث. هناك شيء حقير في الدفاع باستماتته عن حرية رأيك أنت وحواريك بينما تحجر على آراء المخالفين لك - في قاعة المحاضرات وخارجها باعتبارهم «برجوازيين» أو استعماريين أو عملاء للمباحث أو فاهمين جرامشي غلط! هناك شيء حقير في الدعوة المستمرة للخصوصية الثقافية ومعاداة الهيمنة في حين تعيش نمط حياة لن يبقى قائماً لمدة دقيقة إن سادت هذه «الخصوصية الثقافية».

لا ليس زيفاً، بل نفاق. هذه هي؛ لا أحبك لشعوري أنك منافق، وأنت تعرف أنك منافق ولا يوقفك هذا عن النفاق.

اعذرني على هذه المقدمة الطويلة، لكنني أردت الإفصاح

عن مشاعري المسبقة قبل الدخول في الموضوع، أيضاً كي أفسر لك ما الذي جرتي لما سأقوله. الذي حدث هو أنني لديّ من الوقت أكثر مما لديّ من الأشياء التي أحب فعلها، ومن ثم ينتهي بي الأمر دائماً بالتفكير في أشياء لا تخصني. مثلاً أنا لا أحبك، كما قلت، ومن ثم أحاول تبين ما إن كان حدسي صحيحاً. كيف أفعل ذلك؟ جوجل، فيسبوك، انستجرام. ما تكتبه وما كتبتة وما كتب عنك، من جانبك ومن جانب أصدقائك وأصدقائهم. قاذني هذا إلى صديقاتك السابقات، حبيباتك السابقات، وهنا لاحظت الملاحظة البسيطة التي لا تخطئها عين؛ أنهم كلهم بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين. كان ذلك الحال وأنت في العشرينات، ولا يزال هو الحال الآن وأنت في الأربعينات! ومن ثم قررت الحفر في هذا الموضوع قليلاً.

لم يحتاج الأمر وقتاً طويلاً حتى تبينت فداحة ما تفعل: ليست هناك واحدة من صديقاتك السابقات لا تقول إنها كانت ضحية استغلالك لها. طبعاً لم أعثر عليهن جميعاً، لكنني عثرت على العديد منهن هنا في الجامعة؛ طالبات، موظفات ومتدربات بالمكتبة وشئون الطلبة والمنح، حتى مكتب رئيسة الجامعة! وكل منهن على حدة تقص نفس القصة؛ نفس السيناريو - طيب على الأقل يا أخي جدد قليلاً، لكن لا، نفس الدخلة، نفس الهجوم الذي لا يترك للفريسة الفرصة للتفكير بحيث تدعن وهي تظن أنها توافق، وبعد ذلك تكون قد أحطتها بشبكة متكاملة من الإحساس بالذنب والسقوط والخوف والتمسك بك أنت

باعتبار بقائك الدليل الوحيد أنهم لسن ساقطات بل عاشقات، ثم تتخلص منهن حين ينتهي دورهن في الإشباع المؤقت للجوع الذي لا ينتهي داخلك. شيء مقرر.

هل ما زلت معي؟ هل ما زلت تقرأ هذه الرسالة أم تقفز للنهاية بحثاً عما سأطلبه منك أو ما سأهددك به؟ لا تتسرع، هذا هو، ننتقل إلى الجانب العملي.

حاولت إقناع هؤلاء الطالبات بتقديم شكاوى ضدك أو على الأقل بالإفصاح عما جرى على فيسبوك في أي من مجموعات اعترافات الجامعة، لكن كلهن خفن. خفن لنفس الأسباب المعروفة. غالباً ستنكر ولا يحدث شيء. أو تفتح الجامعة تحقيقاً لا ترغب حقيقة في أن يسفر عن إحراج لها، وسيقول الناس وربما الجامعة نفسها أنهم وافقن وأن العلاقة كانت بالتراضي، وينتهي الأمر بتشويه سمعتن وربما تدمير حياتهن الاجتماعية في حين تخرج أنت ضحية وسبعاً في نفس الوقت. لم ترض فتاة واحدة ممن يلعن سنسفيل جدودك بأن نتقدم بشكوى أو تعلن ما جرى لها على يدك. كان يمكن أن نتوقف الأمور هنا، لولا أنني أنا نفسي ضحية سابقة لشخص كان مثلك من عشرين سنة، ودفعت ثمن سكوتي ومن ثم قررت هذه المرة أن أعاقبك، عوضاً عن عقابه هو الذي لم أعد أقدر عليه.

لديّ نظرية أثبتت التجربة صحتها، وهي مستوحاة من مقولة النبي الشهيرة أن لو اسمه علي علوكة ومصاحب أشرف نكة فهو في الغالب لن يصبح طياراً! النظرية تقول

إن الذي يتحرش بالنساء لا بد وأنه وضع في بقية مجالات الحياة أيضاً. لا يمكن أن تكون أميناً في عملك كأكاديمي وفي نفس الوقت متحرش تنتهك كرامة النساء وتقنات على ضعفهن. ومن ثم واصلت الحفر هذه المرة خلف عملك الأكاديمي. ظللت أفعل هذا بلا نتيجة تريح بالي، حتى قامت الجامعة التي حصلت منها على درجة الدكتوراه برقنة رسائل الدراسات العليا التي بحوزتها، وهنا صرخت: بنجويابن الوسخة!

اللطيف أن النصوص المرقنة تصبح متاحة ليس فقط للاطلاع عن بعد، بل أيضاً يمكن بسهولة ترجمتها ومقارنتها بنصوص أخرى لمعرفة درجة الاقتباس والتشابه بينها.

٨٠٪ و ٨٥٪ تطابق!! مذهل في جرائك والله!

لكن الحق يقال إن ترجمتك دقيقة! قد تكون المشكلة أنك أخطأت اختيار المهنة؛ كان عليك العمل كترجمان لا أستاذ!

السؤال الآن هو، كما قال سيدنا لينين، «ما العمل؟»

يارا

* * *

الجمعة، العاشرة صباحاً

من: ياسر العرباوي

الى: يارا الفقي

عزيزتي يارا

على غير المتوقع، أبهجتني رسالتك الجريئة.

أبهجتني لأنها ترتقي بمستوى التواصل بيننا من سفاسف الأمور المملة إلى حميمة لم أكن أظنها ممكنة، حتى وإن كانت جارحة.

أبهجتني لأنها ترفض الانصياع للصواية السياسية، وبشكل ما فهي تحطم هيمنة الخطاب المؤسسي الرسمي السائد (وإن كان هذا قد لا يسرك).

أبهجتني لأنها تفتح منافذ لحوار نفتقده بشدة في هذا القسم المقموع، وتعيد تعريفنا باعتبارنا جماعة قادرة على التواصل البيني وتجاوز تناقضاتها. نعم، أنا مقتنع بهذا حقاً وصدقاً.

باختصار أبهجتني لأنها عمل ثوري أصيل، وإن كانت على نطاق ضيق. أنا وأنت هنا نتواصل ليس فقط باعتبارنا ياسر ويارا بل باعتبارنا فاعلين اجتماعيين قادرين على تجاوز تحديد (بمعنى تضيق) ظروفنا الذاتية إلى آفاق أرحب. وذلك مبهج ليس فقط من باب أثر الفراشة،

وهو في حد ذاته أمر هام، لكن أيضاً وربما في المقام الأول من باب التحدي الحقيقي تموضعنا في هذا القسم في هذه الجامعة في هذا السياق التاريخي والمكاني المحددين.

ولهذا فإني مستعد - بل أكثر من ذلك، أتطلع - لحوار معك حول النقاط التي أثارتها، ليس باعتبارها تهماً موجهة لشخصي، بل باعتبارها نقداً - أو لنقل محاولة لنقد، إسهاماً في نقد - المنهج الذي أتبعه - أو أدعي اتباعه وفقاً لك. ما رأيك؟

ياسر

* * *

الجمعة، الحادية عشرة والربع

من: يارا الفقي

الى: ياسر العرباوي

عزيزي ياسر

كسمك

يارا

* * *

الجمعة، الحادية عشرة وعشرين دقيقة

من: ياسر العرابوي

الى: يارا الفقي

يارا

يا له من رد فعل ناضج - جدير فعلاً بأستاذة مثبتة!

ياسر

* * *

الجمعة، الحادية عشرة والنصف

من: يارا الفقي

الى: ياسر العرابوي

ياسر

سأقول لك ما هو الأمر الجدير بأستاذة مثبتة؟ إني لم أسرق الرسالة التي حصلت بموجبها على درجة الدكتوراه من رسالة سابقة منشورة باللغة الفرنسية.

هل تعرف ما هو الأمر الآخر الجدير بأستاذة مثبته؟ إني لم أسرق بعد ذلك رسالة ماجستير صديقتي التي أنام معها وزميلتي في نفس الجامعة وحولتها إلى كتاب باللغة العربية نسبته لنفسه.

ومن ثم أعود لسؤال لينين التاريخي: ما العمل؟ هل أبلغ إدارة الجامعة هنا؟ أو أبلغ إدارة الجامعة التي قدمت فيها رسالتك المسروقة؟ أم إدارة الجامعة التي سرقت إحدى رسائلها؟ أم أبلغ صديقتك السابقة التي سرقت رسائلها مستغلاً ولا شك جهلها باللغة العربية؟ هذه المسكينة تعرضت للسلب العاطفي والفكري معاً، وأظن أنها ستحب الانتقام منك في الجزء الذي لا يضر بسمعتها كامرأة.

فكر وقل لي.

ملحوظة: حان الآن موعد صلاة الجمعة، وقد تكون هذه مناسبة جيدة للتفكير، باعتبار رسالة الدكتوراه عن «الإسلام كإيديولوجية قومية منشئة ومعيدة لإنتاج الخصوصية الثقافية: حالة جبهة التحرير الوطنية بالجزائر».

يارا

* * *

الجمعة، الثانية عشرة

من: يارا الفقي

الى: ياسر العرابوي

ياسر

لا داعي لإنهاك عقلك في التفكير؛ سأبلغ الجهات الخمس: جامعتنا التي عينتك في وظيفة بناء على مؤهلات مغشوشة، الجامعة التي منحتك دكتوراه لا تستحقها، الجامعتين اللتين سرقت رسائل منهما، وصاحبتك القديمة صاحبة رسالة الماجستير (للأسف لم أعر على صاحب رسالة الدكتوراه المسروقة - أتمنى ألا يكون قد مات بعد سقوطه على السلم أو انتحر قفزاً من الشرفة). وسأبدأ طبعاً بإبلاغ جامعتنا، أثناء اجتماعنا مساء الخميس القادم.

ملحوظة: من أين أتيت بكلمة «انتجاع» هذه؟ خصوصية ثقافية أيضاً؟

يارا

* * *

أغلق عصام الملف وأمسك رأسه بين يديه وظل صامتاً دقيقة كاملة. ثم رفع رأسه ببطء ونظر إلى لبني التي كانت واقفة تحديق به طيلة الوقت:

- إيه يا بنتي المكان اللي بتشتغلي فيه ده؟

وضعت لبنى يدها على كتفه ولم ترد.

* * *

استخف ياسر بالموضوع كله ووصفه بأنه «لا موضوع»؛
مجرد خلاف معتاد بين زميلين بالجامعة.

- حضرتك عارف، الأمر لا يخلو من غيرة وتنافس،
خاصة من قبل أستاذة في منتصف العمر تجددت مسيرتها
المهنية وترى أستاذة شباباً نجمهم يصعد بسرعة.

- فعلاً؟

- طبعاً، كان ما تنساش إنها كانت بتمر بوقت شخصي
عصيب.

- عشان المخدرات؟

- المخدرات، والكحول، وتهمة التحرش، وكان بلوغها
سن اليأس كان عامل تأثيرات هرمونية عليها، مش بإيدها
دي حاجة كل ست بتمر بها!

- وتهم السرقة الفكرية اللي بتتكلم عليها دي أساسها إيه؟

- ولا أي أساس، ده كلام فارغ.

- إزاي، ده في مرفقات في الإيميل فيها تقارير بنسب
مئوية واقتباسات وألوان وحاجات شكلها جد جدا.

- لا يا فندم، مع احترامي بس ده موضوع لا يحتمل
مقاربات أمنية، ده محتاج اقتراب أكاديمي منضبط.
السرقة الفكرية دي حاجة معقدة ولها معايير دقيقة،
مش كلام مرسل. وعادة يتطلب إثباتها لجنة تبص على
النصوص، وتقارن المقاربات والمتباعدات، وتعملها
تحليل سياق وخطاب يضع النصوص في سياقها التاريخي
والاجتماعي، قبل ما تقدر تقرر إن كانت المقاربات دي
تناص مشروع أم نسخ غير مشروع.

- تناص مشروع؟

- أيوه.

- يعني نسب الـ ٨٠٪ والـ ٨٥٪ دي ممكن تبقى «تناص
مشروع»؟

- ممكن، وممكن يكون النص الآخر هو اللي ناسخ من
النص الخاص بي.

- بس دي نصوص سابقة على نصوص حضرتك.

- سابقة في زمن النشر لكن مش بالضرورة في

التفاعلات التي أدت إليها.

- مش فاهم.

- يعني محتاجين إعادة تعريف نقدي لمفهوم الملكية الفكرية وحدوده.

- مش فاهم برضه.

- يعني ما هي الملكية الفكرية؟ بل ما هو النص نفسه؟ متى يبدأ النص - ليس فقط أين يبدأ، بل متى؟ هل يبدأ عند النشر أم عند الفكرة؟ هل الملكية الفكرية تعني وجود ورقة مختومة من مؤسسة رسمية تقول إن هذا نص، وإنه تأليف فلان؟ ولا نبص على الملكية الفكرية بمعناها الأوسع؟ سواء زمنياً - من لحظة ولادة الفكرة إلى تبلورها وتطورها حتى تتخذ صورتها النهائية - أو مساحياً - بمعنى ما تشمله وما تهمله؟ ما تعتبره جزءاً من النص وما تعتبره خارج النص وغير مشمول بالحماية؟ ومن الذي يقرر هذا أو ذاك؟

- إيه يا دكتور اللي بتقوله ده؟ في نصين مكتوبين، واحد نقل من الثاني. بتدخلني في متاهات ليه؟

- مش متاهات ولا حاجة. بس حاول تبص للموضوع نظرة نقدية. ببساطة كده وبدون مصطلحات، عملية التأليف دي مش مجرد كتابة كلمات، دي عملية جدلية

من الفكرة والفكرة المضادة والفكرة المتولدة عنهم الي
بتخلق مضادها وهكذا، من لحظة التفكير الأولى حتى نهاية
الكتابة. وكل ده قبل النشر، هل فيه ما يثبت الملكية
الفكرية لهذه العملية؟ في غياب الأوراق الرسمية - الي
هي في نهاية الأمر شيء، تسيطر عليه السلطات الرسمية
زي الجامعة- يصعب إثباتها بالمعنى القانوني الحديث. لأن
الحداثة حولت القانون إلى عملية ورقية. لكن في معاني
كثيرة أخرى للقانون أوسع وأقدم من المفهوم الحديث.
مثلاً طالبة الماجستير دي كانت صديقتي، وبنقضي أوقات
طويلة مع بعض، يتم فيها حجم هائل من التفاعلات
الإنسانية - من الكلام وتجهيز الفطار إلى الجنس. كل
التفاعلات دي ينتقل فيها حجم غير محدود من الأفكار.
وقتها أنا كنت سلمت رسالة الدكتوراه وهي بتكتب
الماجستير لسه - كان عندها ٢٢ سنة تقريباً. يعني في
علاقة قوة بينا داخل علاقتنا الفكرية؛ في جانب متبلور
فكرياً وجانب لسه في طور التكوين. جانب ينفور في عطائه
وجانب زي السفنج يمتص كل ما يمكنه امتصاصه.
فين الي هيكون تأثر بالثاني؟ بدون شك هي الي تأثرت
بأفكاري والتأثر ده طلع في رسالتها.

- حتى لو كانت رسالتها اتسلمت لجامعتها قبل ما حضرتك
تنشر كتابك؟

- زي ما قلت لحضرتك، تاريخ النشر ده المفهوم الضيق
لحق الملكية. عشان كده باقول لحضرتك الموضوع محتاج
لجنة تدرس سياقات المقاربات والمتباعدات.

- مفهوم. يعني حضرتك ما كنتش قلقان من كلام يارا؟

- لا إطلاقاً.

- ما حسيتش إنه تهديد؟

- أبداً.

- وهي لو كانت بلغت الجهات المعنية ما كانش هيحصل مشكلة ل حضرتك؟

- كانوا هيشكلوا لجان، ويحصل شوية زيطة، وتنزل على مفيش.

- عشان المتقاريات والمتباعدات.

- بالضبط.

....

- حضرتك شكلك مش مقتنع. طيب خليني أشرح الموضوع بشكل بسيط. هل تعتقد إني الوحيد اللي أبحاثه وكتبه بتعكس تناص مع أبحاث وكتب منشورة قبلها؟ بص على كل ما كتبه تهاني التلاي مثلاً، من رسالة الماجستير والدكتوراه اللي عملتهم في جامعة عين شمس لغاية آخر منشوراتها. بالإضافة لتفاهتهم وضالة إسهامهم، كمية

التناص اللي بيعكسوه أكثر من النسبة اللي يارا بتقولها على أبحاثي. الفرق الوحيد إني درست في جامعة في أمريكا وكتبت بالإنجليزي في حين إن تهاني جامعة عين شمس وبالعربي فمحدث واحد باله، ده غير طبعاً إنها مباحث.

- مباحث؟ معانا يعني في الإدارة؟

- لأ، قصدي أمن، أجهزة، هم اللي جابوها الجامعة.

- وحضرتك تعرف ده باعتبارك معاهم في الأجهزة ويقولوا لك الحاجات دي؟

- بالعقل يا فندم. أستاذة مديوكر من جامعة حلوان، بدون أي إسهام أكاديمي أو فكري؛ إيه اللي يعينها في الجامعة الأمريكية، لا ويثبتها كمان؟ كلنا عارفين ليه، وهي عارفة إننا عارفين، وعشان كده بتحدد علينا كلنا.

- طيب خيلنا في موضوعنا. انت شايف إن اكتشافات يارا الخاصة بكتابات وأبحاث حضرتك دي عادية؟

- تماماً.

- طيب ليه بعت يوم الخميس نتوصل إليها ما تفتحش الموضوع وتطلب تقابلها قبل الاجتماع؟

- فين ده؟ أنا ما بعثش إيميلات غير اللي حضرتك

تهد عصام في عمق وهو يخرج صورة الرسائل المتبادلة بين ياسر ويارا على التليفون. نظر إليها مرة أخرى قبل تمريرها لياسر المتحفز وسأل نفسه للمرة الألف لماذا يتصور الناس أن أفعالهم خفية لا يمكن كشفها، في حين أنها كلها متراصة بجوار بعضها البعض، لا يغطيها سوى غلالة رقيقة مصدرها الرئيسي الزحام وقلة التركيز. لا تحتاج سوى عينين مبصرتين وقليل من التركيز كي تبين. هل يستغيبه الناس بصورة خاصة؟ أم أنهم أغبياء بأكثر مما يعتقد هو؟ أم يتخيلون أن الإنكار والكلام الفارغ سيعمي من يبحث وراءهم عما يفعلون؟ نظر ياسر إلى صورة الرسائل وامتنع وجهه. استغرب عصام أكثر؛ لماذا يمتنع وجهه الآن؟ فوجئ مثلاً؟ لم يخطر بباله أن رسائله الموجودة على تليفون القتيلة ستظهر؟ ظل عصام يحدق فيه دون كلام، ينتظر. بعد قليل تتم ياسر:

- أنا بس كنت عايز أتفادي الزياط.

- فعلت إيه عشان نتفاداه؟ رحت لها المكتب زي ما اتفقتم؟

- آه.

- الساعة خمسة ونص؟

- آه.

- وكانت حالتها إيه لما شفتها؟

....

لم يسمع عصام ما قاله فكرر السؤال ثانية. رد ياسر بهدوء:

- ميتة.

- أفندم؟

- كانت ميتة. زي ما لقيناها لما نايلة راحت لها المكتب الساعة ستة وشوية.

- انت دخلت المكتب؟

- لا أنا شفت المنظر من بره اتفرعت ورجعت بسرعة مكيتي آخذ نفسي وبعدين رحت الانتجاع.

- شفت المنظر اتفرعت ولا اتفرعت بعد ما ضربتها بالسكينة؟

- لا، لا والله ما جيت ناحيتها.

- انت اتخانقت معاها، وهددتك، ورحلتها المكتب وقت

وقوع الجريمة، ولما مشيت من المكتب كانت مطعونة،
صح؟

- أيوه، بس هي كانت برضه مطعونة لما وصلت.

- إيش عرفك، انت شفت طعنة السكينة اللي في بطنها
إزاي من بره المكتب؟

- شفت الدم.

- مفيش دم يا دكتور غير على بطنها ورجليها.

- ده اللي شفته.

- انت عندك قدرة تشوف من خلال الأجسام الصلبة؟
الطعنة والدم مش باينين إلا من فوق المكتب أو من
وراه. أهو؛ بص على الصور.

... -

- ما علينا. نفترض إنك ما دخلتش المكتب. طيب ليه
ما قلتش لحد؟ ليه ما بلغتش عن زميلتك المطعونة؟ مش
جائز كانت لسه عايشة؟

لم يسمع عصام ردًا فكرر السؤال بلهجة أكثر حدة. جاء
رد ياسر خافتًا هذه المرة:

- خفت.

- من إيه؟

- حد يلبسني التهمة. وبعدين هاستفاد إيه لما أبلغ؟

- لا معاك حق هتستفيد إيه صحيح!

صمت عصام لحظة ثم قال:

- طيب يا دكتور، شرفتنا. من فضلك تفضل في سكن الجامعة ما تغادرش بدون إذن، وبكرة نكمل.

- حاضر.

- هل لديك أقوال أخرى؟

- أيوه.

- خير؟

- أنا شفت مروان خارج من مكتب يارا وبيزعموا لبعض جامد قبل ما اروح لها المكتب بشوية.

- إمتى بالضبط؟

- حوالي الساعة خمسة، بس مش متأكد من التوقيت

* * *

الفصل السادس

الحقيقة تظهر

جلس تميم نسيبة أمام الدكتور عبد الرحمن صدقي ينتظران دخول روبرتا. عبد الرحمن هو الذي أقنع روبرتا بالحضور، وعاونه في ذلك بدران أبو سرّة. تبادل تميم وعبد الرحمن بعض التعليقات العامة لتمضية وقت الانتظار: موجة الحر الخانق التي تضرب القاهرة، جودة التكييف في مباني الجامعة الجديدة (د. صدقي) وغياب الشجر والظل في أفنية الجامعة وممراتها (تميم). الإعداد للبرامج الدراسية الصيفية (الاثنان)، والسؤال عن كيفية احتواء آثار الجريمة والتحقيق (د. صدقي). وبينما كان تميم يمحّط شفّتيه ويهزّ كتفيه ليكسب وقتاً ويتفادى الإجابة دخلت روبرتا.

- طاب يومكما أيها الأستاذان.

- طاب يومك السيدة الرئيسة.

رد الاثنان بنفس درجة المزاح. سألت روبرتا على الفور ودون مقدمات إضافية:

- قولاً لي، لماذا نجتمع؟

تنجح د. صديقي قليلاً ونظر إلى تميم ثم إلى روبرتا وقال وكأنه يوجه الحديث للاثنتين على قدم المساواة:

- أتصور أننا نحتاج إلى رد فعل مُنسق للكارثة التي جرت في قسم الشرق الأوسط وللتعامل مع تداعياتها. فبالإضافة إلى مشاكل القسم الأصلية أصبح لدينا الآن جثة، وتحقيق يبدو عشوائياً ودون اتجاه محدد؛ كل يوم هناك على الأقل متهم جديد. ولا أحد يعرف كيف سينتهي هذا ولا أثره على سمعة الجامعة وشعور الطلبة وأولياء أمورهم بالأمان فيها. ومصلحتنا جميعاً في احتواء هذا أكبر بكثير من أي خلافات بيننا.

- أي خلافات؟

سألت روبرتا. أجاب د. صديقي بحرص:

- ربما خلافات ليست الكلمة المناسبة، لنقل اختلافات، بيننا نحن الثلاثة حول كيفية التعامل مع القسم ومشاكله.

قالت روبرتا مقاطعة:

- كنت أظن أن لدينا بالفعل خطة للتعامل مع هذه المشاكل.

- ليس بالضبط. أليس كذلك يا د. نسيبة؟

مط تيم شفتيه وهز كتفيه ثانية ثم قال بصوته الهادئ
الذي یرن كأنه مجوف:

- خطة الرئيسة أن تطيح بي وبعشرين عامًا من إدارة
القسم وتنميته بحيث أصبح أهم قسم دراسات شرق أوسط
 بالمنطقة، ثم تأتي بأستاذة مريضة ومدمنة مخدرات أو
 بشخص مجهول تستورده من أمريكا كي يتولى إدارة قسم
 لا يفقه فيه شيئًا. هذه هي الخطة كما فهمت!

- د. نسيبة! لا داعي لهذا. كما قلت، نحن هنا لتنسيق
 تعاملنا مع القسم وكل مشكلاته. وموافقة الرئيسة على
 المشاركة في الاجتماع دليل انفتاحها على البحث عن
 حلول خلاقة. فدعنا نتفادى اللهجة الاتهامية ونبحث
 معًا عن كيفية الخروج من هذا الوضع بما يحقق مصلحة
 الجامعة أولًا.

- طبعًا مصلحة الجامعة أولًا، ومصلحة الطلاب، هذا
 شاغلي الأساسي منذ أكثر من عشرين عامًا. وأظن أن
 مسيرتي المهنية خير دليل على ذلك!

- لا شك يا دكتور، لا شك. وعلى أية حال فإن الكارثة
 التي حدثت تغير الوضع بشكل جذري وتحتم علينا التعاون
 والتوصل إلى صيغة متفق عليها للتعامل مع تداعياتها، وهو
 أمر لا يمكن فصله عن التعامل مع المشاكل الأصلية التي
 يعاني منها القسم. وفي رأيي فإننا جميعًا نحتاج إلى نظرة
 جديدة لكل هذا، بغض النظر عن خطتنا ورؤانا التي

حددت تصرفاتنا حتى يوم الخميس الماضي.

- معك حق.

رد كل من تميم وروbertا. أضاف د. صديقي:

- والآن، روبرتا: شاركينا تفكيرك حول الموضوع من فضلك.

ابتسمت روبرتا لأول مرة وقالت بهدوء وبلهجة تقريرية إن موقفها من القسم ومشكلاته لا تحكمه اعتبارات أيديولوجية، فهي لم تأت من أمريكا خصيصا لتغيير رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط. كل ما في الأمر أن مشاكل القسم طفحت ومن ثم فإن القسم يحتاج إلى تغيير جذري في طريقة إدارته ورؤية جديدة لمستقبله. وخاصة أن الوضع العام في المنطقة قد تغير، فهناك جامعات أمريكية جديدة في المنطقة - في الخليج تحديداً، وهناك جامعات دولية في مصر، وعلى الجامعة التأقلم مع هذا الواقع الجديد. هذا هو التفكير الذي يكمن خلف إصرارها على تغيير إدارة القسم. لكن الآن هناك مشكلة أكبر، صحيح أنها لا تلغي المشاكل القديمة ولكن هذه المشكلة الجديدة لها أولوية:

- ولهذا رحبت بفكرتك عقد هذا الاجتماع يا عبد الرحمن. ورؤيتي غير متبلورة بعد لكن دعني أقول هذا: أنا منفتحة على أي سيناريو إن كان هذا السيناريو سيساعدنا

على احتواء هذه الكارثة بشكل أفضل، ويسمح بقدر من التعامل الإيجابي مع المشكلات الأصلية بحيث لا تقود تلك المشاكل إلى كارثة مشابهة. هذا ما لديّ أيها السيدان.

قال د. صديقي:

- عظيم، دعيني أبلور سيناريوهات واقعية ثم أناقشها معك.

- كما قلت؛ ستجدني منفتحة، لكن يستحسن أن تكون هذه السيناريوهات جيدة!

نظر عبد الرحمن صديقي إلى تميم نسيبة الذي أوماً برأسه موافقاً واتفق الرجلان على مواصلة الحديث في حين غادرت روبرتا لاجتماعها التالي.

* * *

طلب عصام من لبني الحضور فوراً وأغلق التليفون قبل أن يسمع ردها. نظر إلى تقرير الطبيب الشرعي للمرة العاشرة. سبب الوفاة نزيف في المخ ناتج عن العيار الناري الذي استقر في الجمجمة. لم تمت إذن بالسّم الذي كان بالنبيذ ولا بجرعة الهيروين ولا بطعنة السكين في البطن. وتقدير وقت الوفاة حوالي التاسعة مساء الخميس. أعاد القراءة مرة أخرى؛ كيف يمكن أن تكون ساعة الوفاة في

التاسعة؟ لقد أبلغ بدران الشرطة في السادسة والنصف،
ووصلت قوة النجدة في السابعة، وعين هو شخصياً معانة
مشرح الجريمة بين السابعة والنصف والثامنة، ثم بدأت
معانة وكيل النيابة وخبير المعمل الجنائي في الثامنة والربع
تقريباً.

رفع عينيه عن التقرير فوجد لبني واقفة تحديق فيه
صامتة. أشار لها بالجلوس وأعطاهم التقرير. مرت عليه
بعينها سريعاً ثم قالت:

- طيب، يبقى عرفنا سبب الوفاة. بس إيه حكاية التاسعة
مساء دي؟

- أكيد غلطة من اللي كتب التقرير. هاكلم الطيب
الشرعي أما أخلص اللي في إيدي.

- طيب أي خدمة؟

- أنا استصدرت إذن من النيابة لتفتيش غرف ومكاتب
أعضاء القسم كلهم، وفي قوة راحت فعلاً تفتش.

- خير بتدور على إيه؟

- السكنينة.

- آه.

- وكان راح اثنين حراس أمن مع الجنائني يبصوا على
الحدائق عشان لو فيه حطة أرض اتحفرت جديد يبصوا
فيها.

- دي حاجة مثيرة جدًا.

- وهيفتشوا أوضتك ومكتبك انت كان.

انتفضت لبني في مكانها.

- إيه؟ مكتبي؟ وأنا مالي؟

- وانت مالك ازاي؟ انت مش كنت موجودة ساعة
ارتكاب الجريمة؟

- انت بتهزر؟

- لا طبعًا.

- لا لو سمحت، عشان خاطري، بلاش يفتشوا مكتبي.

- ليه؟ مخبية إيه انت كان؟

ولا حاجة، حاجات شخصية، حاجات بنات وما احبش
حد يشوفها. هتتسبب لي في فضيحة على مفيش.

- عارفة يا لبني انت عيبك إيه؟

- عيب إيه بس دلوقت خلينا في المصيبة دي؟ يفتشوا مكتبي ليه؟ هو الحق عليّ إني ساعدتك؟ منك لله يا روبرتا الكلب انت وأفكارك الخره.

- عيبك إنك فاكرة نفسك أذكى من اللي حواليك.

- يا عصام، يا عصام بيه، يا سيادة الرائد، أبوس ايدك بلاش حكاية التفتيش دي.

- وانت ذكية فعلاً، ذكية جداً كمان، بس استغباء الآخرين ده خطأ قاتل.

- انت بتقول إيه بس يا عم، ذكية إيه وغبية إيه. وحياتك كلهمهم وقول لهم يسيبوا مكتبي في حاله.

- اقعدي يا آنسة.

قالها بلهجة آمرة وبصوت محايد أخرجها من الحالة التي كانت فيها. جلست وعيناها لا تفارقان وجهه:

- حاضر. بس ممكن تقول لهم يرجعوا قبل ما يفوت الأوان؟ أبوس إيدك، أبوس أي حاجة انت عاوزها بس بلاش تفتيش المكتب دي. خليه يفتشوا الأوضة طيب، ما لها الأوضة؟ يفتشوها، بس بلاش فضايح في المكتب.

- اقعدي ساكتة.

- حاضر.

صمتت لحظات ووجهها يتحول إلى اللون الأبيض بسرعة.
ثم انتفضت واقفة وهي تكاد تبكي:

- والبي يا عصام، لو لي عندك خاطر، بلاش تفتيش،
وانا هاسمع كلامك واعمل اللي انت عاوزه. أي حاجة
تقول عليها. بس بلاش تفتيش والبي.

زعق:

- بس! اقعدي يا بت وبلاش غلبة!

جلست ووجهها يزداد امتقاعاً. نظر لها بحدة وسأل:

- بتستعيني؟ مستغيباني؟ ليه؟ صحيح احنا ماعندناش
جوانتيات طبية في القسم، وماعندناش كاميرات
متخصصة، بس ده مش معناه إننا أغبياء. صحيح إني
ماعنديش لغة، وما اتعلتش في الجامعة الأمريكية،
ومضطر ألبأ للأشكال اللي زيك عشان تفك لي الخط،
بس ده برضه مش معناه إني غبي. أهلك ما علموكيش إنه
عيب تستعني اللي يثق فيك ويديك الأمان؟ دي أخلاق
برضه؟ انت منين؟

- من الزمالك.

- ماشي، أنا من شبرا. وعندنا عيب الواحد يستعمى اللي
يديله الأمان. بنقول عليها حركات واطية.

- أنا آسفة.

- أيوه كده اتعدلي. انت عارفة اللي زيك ييبقى واقف
قداي إزاي في القسم؟ الحق عليّ إني ما جرتكيش على
القسم انت وشلة الأنس دي؟ الحق عليّ إني عاملتك على
إنك بني آدمة؟ بتستعميني؟

كان يتحدث بصوت منخفض وبنبرة حادة، لكنه كلما
تكلم أكثر زاد غضبه وعلا صوته، وهي تنكمش مع كل
ارتفاع في صوته حتى بدت وكأنها ستكور في مقعدها
كالجنين. عندما هدأ ألقى أمامها بملف يحتوي على إيميلات
بين يارا ومروان، وملف آخر به إيميلات بينها هي وبين
مروان، كلها تم تبادلها قبيل قتل يارا.

المعمل الجنائي طلعتها من كمبيوتر يارا، وواحد من
الإدارة ترجمها. شكلها ترجمة جوجل بس آهي مفهومة!

تهتت لبنى، وكانت على وشك اصطناع المفاجأة
وادعاء الجهل بوجود هذه الإيميلات غير أن نظرة عصام
التحذيرية ردعتها.

- أنا آسفة.

- ماشي يا اختي. اشرحيلي بأه، بالضبط وبالتفصيل، إيه اللي حصل؟ خبيت الإيميلات دي ليه؟

- والله ما كان قصدي.

قاطعها:

- انجزي يا لبني يا ألفي.

- أصل الإيميلات دي حرام نتقري.

- أفندم؟

- آه والله. أصل يارا دي مفترية وبترمي بلاها على د. مروان، وهو عشان مؤدب وابن ناس مش راضي يجرحها فبياخذها على قد عقلها. اللي هيقرأ الإيميلات دي هيفتكر إن د. مروان موافق على كلامها ومعترف باتهاماتها. أما الإيميلات اللي بيني وبينه فكلها حاجات شخصية، يحكي فيها عن حاجات دارت بينه وبينها، معظمها أفكاره عنها وعن مشاكلها وعن الجامعة وعن حياته، وماهاش علاقة.

قاطعها ثانية وهو يقرب وجهه من وجهها:

- انت هتعدلي في الكلام ولا أبعتك القسم؟

- خلاص. مسحت الإيميلات عشان خفت على مروان.

- من إيه؟

- من الاتهام. خفت الإيميلات نتفهم على إنه متورط معاها بشكل يخليه متهم. أنا متأكدة إنه بريء، متأكدة إنه الوحيد البريء في الفرقة دي كلها، بس الإيميلات ممكن نتفهم على إنها إدانة.

- فقررتِ تعلمي فيها المباحث والنيابة والمحكمة وتطعليه براءة.

- أنا عارفة ومتأكدة إنه بريء.

- وتفتكري إيه قيمة تأكدك ده؟

بالنسبة لك ولا حاجة، بس بالنسبة لي دي حقيقة زي ما أنا شايفاك كده.

- في الإيميلات دي يارا بتقوله إنه استغلها جنسياً.

- دي ست مجنونة وبنت كلب.

- هي اللي مجنونة ولا انت اللي واقعة في دباذيبه؟

وهكذا، استمر التحقيق مع لبنى على هذا المنوال. عصام

يستعرض الرسائل المتبادلة واحدة تلو الأخرى، ويسألها عن تفسير نقاط محددة وهي تجيب في نفس الخط: كلها اتهامات باطلة من ست مجنونة ومجروحة من الجميع وتخرج غضبها وإحباطها عليه، وهو فارس ذو خلق يحاول إنقاذها. أي يحاول احتواء غضبها ودفعها للتعامل مع هذه المشاكل بأسلوب ناضج وصحي، وهي بنت كلب تحاول طول الوقت جره لدوامة الهستيريا التي تعيش فيها. ولبنى تنصحه في إيميلاتها بأن يترك هذا المستنقع كله ويعود من حيث أتى. لا، لم تقصد أنه سيقتلها عندما قالت له أن يرحل قبل أن يقترف جريمة، كانت تقصد أن بقاءه في حد ذاته جريمة. نعم كانت تردد بعض اتهامات يارا له، لكن من باب المزاح. هذه طريقتها في الحديث. نعم مثلها قالت له إنه لا يزال مغتصباً صغيراً سيتطور مع التقدم في مسيرته المهنية. نعم، تعرف أن من يقرأ هذه الرسائل سيفهمها بشكل غير ما قصده وغير ما فهمه مروان، ولهذا مسحت الإيميلات. يسكت عصام ثم يسألها مرة أخرى، لا، طبعاً لا يثق بها، كيف يمكنه الوثوق بها بعد أن كذبت عليه وخدعته بهذا الشكل، وهي تبرر وتشرح، وهو يشكك، وهكذا.

ثم جاءت قوة التفتيش ومعها بدران. وجدوا السكين، في مكتب لبنى، ملفوفاً في أحد الأوشحة الملونة التي ترتديها ومدفوناً في وسط الملفات في درج مكتبها. نظر عصام إلى لبنى فوجدها هادئة تماماً كأنها كانت تنتظر حدوث ذلك. فهم رد فعلها الآن على قراره تفتيش مكتبها. قالت بهدوء:

- على فكرة أنا كنت مع رئيسة الجامعة من الساعة ٤ لغاية ما نايلة اكتشفت الجثة وبلغونا، وروبرت تشهد. عشان بس مخك ما يروحش لبعيد.

هز عصام رأسه في أسى دون أن ينبس بكلمة، وتناول الكيس الذي يحوي الوشاح والسكين وتأكد من إغلاقه ومهر ورقة بتوقيعه وأعطاهما لأحد معاونيه كي يحمله فوراً إلى المعمل الجنائي. شكر بدران وصرف بقية معاونين وظل هو ولبنى وحدهما في القاعة.

* * *

مط شفتيه وأخذ يفكر في العرض. عبد الرحمن جالس أمامه ينظر إليه، ولما فهم أن تميم لن يرد عليه فوراً انصرف إلى أوراقه ثم إلى تليفونه ليشغل نفسه بينما يفكر تميم فيما قاله. تهاني ظلت جالسة تفر في تليفونها بلا هدف: مجرد فر مشتت في انتجرام دون أن ترى شيئاً حقيقة. أحياناً تستوقفها صورة قترركز انتباهها فيها ثم تمل سريعاً وتعود للفر المتواصل. هز تميم رأسه يميناً ويساراً وشفته لا زالتا ممطوطتين. ما يعرضه عليه البروفوست ليس سيئاً؛ ليس ما يريد طبعاً، لكنه أفضل بكثير مما كان يخاف أن تنتهي إليه الحرب المفتوحة بينه وبين روبرتا. مد يده المرتعشة إلى كوب القهوة المستقر أمامه على المنضدة وأمسكه جيداً وقربه من شفتيه ورشف منه رشفة. جاء صوت رشفته مسموعاً أكثر مما يجب، فنظر إليه كل من البروفوست وتهاني. تكلم تميم بسرعة كي يداري شعوره بالخرج:

- ود. تلالي ما رأيها في هذا الكلام؟

أخرجت تهاني وجهها من شاشة التليفون وعدلت نظارتها بيدها وحدقت فيه لوهلة قبل أن تجيب بهدوء وبطء:

- د. تلالي كمعادتها مستعدة لتلبية نداء الواجب؛ كل ما فيه مصلحة القسم والجامعة. وما دام البروفوست صدقي يرى في ذلك مصلحة، ورئيسة الجامعة بطبيعة الأمر، إذن ليس هناك خيار آخر سوى الموافقة. المهم أن تكون أنت مرتاحاً لهذا الترتيب، فليس لدي أدنى رغبة - ولا وقت صراحة - للدخول في صراعات. كما أن ذلك ليس من طبعي، وبالتأكيد فما بيننا من عشرة وصداقة أدعى لأن أكون متأكدة تماماً من ارتياحك لهذه الترتيبات قبل أن أقرر ما إن كنت سأقبلها.

رشف تيم رشفة أخرى من القهوة، بدون صوت هذه المرة، وهو ينظر أمامه في الفراغ. غمزت عينه كما تفعل أحياناً دون إرادته، كأنه يغمز لشخص لا يراه أحد غيره. كان يريد الانتصار على روبرتا، كان يريد إهانتها علناً وإشعارها بالضالة أمامه. هي التي بدأت. كما قال ليأرا، هو يرى الجامعة باعتبارها أكواماً من الزبالة، كل من له حيثة كوم لنفسه قدراً منها وجلس فوقه، وهذا القسم هو كومه الخاص الذي يجلس عليه، فن تكون هذه الأمريكية الحمقاء التي تظن نفسها قادرة على النزول

بالهليكوپتر إلى هنا وإزاحته من فوق كوم زبالته؟ كان يريد تمرير أنفها في الزباله حتى تفهم أين وضعها الله. لكن ما يعرضه عبد الرحمن ليس سيئاً. الطريقة التي سارت بها الأمور خرجت عن السيطرة، لأسباب كثيرة، حتى من قبل موت يارا، ولم يعد من الممكن الآن الانتصار على روبرتا دون أن يؤذي نفسه أيضاً. الوضع تغير، ومن هنا ضرورة التعاون، والتعاون يعني التوصل إلى حل وسط، أي تقديم كل طرف لتنازلات. وكل وسط ليس هذا سيئاً إطلاقاً. لن يظل رئيساً للقسم، سيقبل التنحي. لكن ذلك سيتم في اجتماع للقسم ودون تدخل من روبرتا أو غيرها. سيجتمع من تبقى من الأساتذة - دون الأستاذ الزائر مروان ودون يارا القتيلة ودون ممثلي الطلبة، أي هو وتهاني وياسر، ويقررون من تلقاء أنفسهم اختيار رئيس جديد للقسم، د. تهاني التلاي، لمدة ثلاث سنوات قادمة. في نفس الاجتماع، سيقرون تشكيل لجنة لتعيين أستاذ جديد محل يارا، ولشغل المكان الذي سيخلو بانتهاء زيارة مروان. سيشكلون لجنة أخرى للدراسات العليا. ولجنة للنظر في تثبيت الأساتذة غير الدائمين، باختصار لجنة لكل شيء، وستكون عضوية اللجان هذه مفتوحة يمكن ضم أي شخص إليها، لكن قراراتها تؤخذ بإجماع الأساتذة الدائمين بالقسم فقط، أي هو وتهاني. ليس لديه شك في أنها ستحاول الاستقلال والخروج عن سيطرته، لكن لديه من الذخيرة ما يمكنه من دخول هذا الصراع ساعتها. وساعتها سيكون الموقف قد تغير ثانية، وحلفاؤها اليوم لن يظلوا حلفاء بالضرورة. باختصار، لن يكون تيم رئيس القسم لكن سيكون لديه حق الفيتو على

أي قرار يخص القسم. وسيستمر هذا الوضع لمدة ثلاث سنوات، بعدها يكون جحا قد مات، أو الحمار، أو روبرتا.

مط تميم شفّيته مرة أخرى ثم نظر إلى عبد الرحمن وقال إنه موافق، ما دام ذلك سيحفظ وحدة هيئة التدريس ويمنع إدارة الجامعة من التدخل في الشؤون الأكاديمية ويمكن الجميع من التعامل بشكل منسق مع المشكلة الأكبر التي يواجهها القسم والجامعة واحتواء آثارها. انفرجت أسارير عبد الرحمن وقال إنه كان متأكدًا من إمكانية التفاهم بالحوار المخلص والجاد، مكرراً أن الجامعة ملك لكل أبنائها وأنه يعلم علم اليقين أن هيئة التدريس وإدارة الجامعة على قلب رجل واحد. قاطعته تهاني مازحة أنه يقصد ولا بد «قلب شخص واحد» رجلاً كان أو امرأة، فهز عبد الرحمن رأسه مؤمناً على كلامها وهو يبتسم. وبعد أن انتهوا من تبادل التهنية والتحية قال عبد الرحمن إن عليهم الآن جميعاً بذل ما في وسعهم لاحتواء نتائج الوفاة المأساوية لزميلتهم العزيزة يارا، وخاصة هذا التحقيق الذي لا يبدو له رأس من رجلين. كل منهم، وروبرت، لديه أصدقاء يستطيعون المساعدة، وأي مساعدة في هذا المجال مطلوبة. هزوا جميعاً رؤوسهم مؤمنين ثم استأذن عبد الرحمن منهم للحاق باجتماعه الوشيك مع رئيسة الجامعة.

استمر تميم وتهاني في الحديث بعد ذهاب عبد الرحمن لمدة نصف ساعة، ناقشا خلاله ما يمكن لكل منهما فعله لإنهاء هذا التحقيق بأسرع وقت، وحصر الأذى الناتج عنه في أقل قدر. لكل منهما معارف وأصدقاء في

كل مكان في مصر، من الشرطة للنيابة للقضاء للمحامين للإعلام للحكومة. وسيسعى كل منهما لاستشارة أصدقائه فيما يمكن عمله - في إطار القانون طبعاً - لاحتواء التحقيق وتبعاته. «في نهاية المطاف لا يهمنا سوى إظهار الحقيقة»، اتفقا على هذا، لكن المطلوب هو منع الإضرار بالأبرياء من أعضاء الجامعة أثناء البحث عن هذه الحقيقة. هذا هو هدفهما الذي سيسعيان لتحقيقه خلال الساعات القادمة، أي قبل تقديم الرائد عصام لمحضر التحريات للنيابة، بحيث يتم تضيق نطاق الشوشرة بأكبر قدر ممكن، وهو الأمر الذي سيخدم هدف التحقيق نفسه بالتركيز على القضية الأساسية لا المسائل الفرعية كما أكد كل منهما. تعهدا أن يبذلا أقصى جهدهما لإخراج القسم والجامعة من هذه الأزمة بسلام، وأن يحيطا بعضهما البعض علماً بالتطورات أولاً بأول. وأضافت تهاني أنها ستواصل مع عبد الرحمن وروبرت - كليّ على حدة - لمزيد من تنسيق الجهود.

* * *

زميل عصام بالأدلة الجنائية ترك ما بيده وفحص السكين فور وصوله، وأرسل له الرد سريعاً. تم مسح البصمات من على السكين عمداً، لكن هناك بقايا بصمات تطابق بشكل جزئي بصمات شخصين: ياسر العرباوي ومروان المفتي.

التحقيق مع مروان كان سريعاً. لم يحاول الإنكار، وكانت أقواله مرتبة ومتسلسلة ومصحوبة بتوقيات محددة. ولفت نظر عصام هدوؤه التام أثناء اعترافه بما حدث.

حكى مروان تطور علاقته بيارا. بدأت هذه العلاقة فور وصوله الجامعة حيث وجدها منطلقة ومتدفقة بالحياة وبالرغبة في العمل والإنجاز وخفيفة الظل تميل إلى السخرية اللاذعة من كل شيء بما في ذلك نفسها. استقبلته بترحاب وعبرت عن سعادتها بقبوله دعوة القسم للتدريس به لمدة عام وتمنياتها بأن يمتد هذا العام ويصبح عضواً دائماً به، فالقسم بحاجة ماسة إلى تجديد دمائه وإلى أكاديميين جادين وواعدين مثله. حدثته عن مشاكل القسم وقالت إن هذه المشاكل لم تمنعها عن السعي للدراسة والكتابة والنشر من خلال مشروعات بحثية تنظمها بشكل مستقل. تبنته، باعتباره غريباً عن القاهرة، لم يعيش فيها من قبل، وعرفته على زملاء آخرين بالجامعة وخارجها، ودعته عدة مرات لجولات في القاهرة وفي المحافظات التي كانت تزورها مع صديقتها المخرجة «هنا جمال» كجزء من مشروعهما المشترك حول الثقافات الشعبية. كانت يارا تكبره بحوالي سبع سنين، لكنه شعر ناحيتها بانجذاب بادلته إياه، وفي إحدى زيارتهما الميدانية - في الإسكندرية - لم تكن «هنا» موجودة وظلاً ساهرين جزءاً كبيراً من الليل. كانت غرفتهما في الفندق متجاورتين تفصل بينهما شرفة، ومع السهر وهواء البحر وربما كثير من التبيذ حدث ما لم يكن منه بد.

قال إن العلاقة التي نشأت بينهما تطورت بشكل سريع جداً. حين عادا من الإسكندرية طلبت منه توصيلها إلى بيتها ثم اقترحت أن يقضي معها بقية اليوم، ثم طلبت منه

المبيت. في اليوم التالي خططت اليوم على أساس أنهما سيقضيان معاً، وهكذا خلال أيام قليلة أصبحا متلازمين لا يترك أحدهما الآخر إلا ليذهب لبيته لإحضار شيء أو تغيير ملابسه. حتى حين كانا يذهبان للتدريس كانت تمر عليه بين المحاضرات في مكتبه أو تطلب منه المرور عليها. بعد أسبوع سألته عما يجب أن يقوله لزملائهما وما إذا كان يتعين عليهما التعامل مع الآخرين كشائبي، كزوج. فوجئ وتضايق بعض الشيء؛ شعر أنها تدفع الأمور بقوة وسرعة أكثر مما يتناسب والظروف التي بدأت فيها علاقتهما. طلب منها التريث، لكنها كانت منطلقة في طريقها. ضايقته أشياء أخرى أيضاً، أشياء بسيطة لكنها مع بعضها كانت توحى بأنها لا ترى إلا نفسها ومشاعرها واحتياجاتها ورغباتها ولا تعيره هو اهتماماً إلا بقدر دوره في تلبية كل هذا. كأنه موظف عندها. كانت بشكل عام تتعامل على أنها أميرة تنتظر ممن حولها أن يخدموها، ليس لأنهم لطاف بل كنوع من أدائهم لواجبهم إزاءها. كأن العالم مدين لها وكل دورها هو تشریف هذا العالم بوجودها السامي. عملياً كان هذا يعني احتياجها إلى اهتمام وتركيز وخدمة دائمين، ما يُسمى «مستوى عالٍ من الصيانة»، نوعاً من التمحور حول الذات - ليس شراً بل مجرد تركيز للاهتمام كله حول الذات. كذلك كانت لديها ميول للمخاطرة لم تستسغها شخصيته المحافظة نسبياً. مثلاً كانت مصممة على أن يدخنا الحشيش معاً في الفراش، وهو يرفض لأنه لا يتعاطى أي مخدرات وهي تضغط. كانت مصممة على ممارسة الجنس معه في مكتبها أو مكتبه، وهو يتهرب وهي تضغط. في كل ذلك يتهمها ضاحكاً بأن

لديها ميولاً انتحارية - أو على الأقل ميولاً لفقدان وظيفتها، وينتهي الأمر بحل وسط، أن يتبادلا القبل في المكتب. لكنها لا تكف عن الدفع نحو المزيد وهو لا يكف عن الشعور بالضغط.

ظل شعوره بالضغط يتزايد حتى اليوم الذي قرر فيه إنهاء علاقتهما الخاصة. أخبرها برغبته في العودة للربع صفر، أي المربع الذي كانا فيه قبل رحلة الإسكندرية - زملاء وأصدقاء. جن جنونها، وألقت بما كان في يدها في وجهه وسبته هو وأهله وقالت له ألا يريها وجهه ثانية. لكنها في المساء أغرقته في طوفان من الرسائل العاشقة وأكدت له أنه يقع في حبها ولهذا يخاف منها، لأن لديه مشكلة مع الارتباط مصدرها علاقته المرتبكة بأمه وتخلي أبيه عنه وغير ذلك من تفسيرات الخوف من الارتباط. حاول بكل ما استطاع من لباقة إفهامها أنه لا يريد الارتباط بها هي، لا يريد هذه العلاقة، دون جرحها ودون فتح الباب لمناقشات لا معنى لها حول شخصيتيها لكنه لم يفلح. الأسابيع التالية كانت جحيمًا: أيام تغرقه بالإهانات باعتباره ضعيفًا غير قادر على مواجهة أشباحه وأعمى لا يتبين مشاعره الحقيقية، وأيام تبكي وتشرح له عمق الألم الذي تشعر به لغيابه عنها، وأيام تهدده فيها بفضحه في الجامعة في مصر وفي جامعته الأصلية بأمريكا باعتباره شخصًا ذكوريًا ومفترسًا جنسيًا، وأيام تهدده بالانتحار أو العودة للمخدرات، وهكذا. قال مروان إنه ظل خلال ذلك كله متمسكًا بما قاله لها في البداية: إنه لا يريد استمرار العلاقة بينهما لأسبابه الخاصة، وأنه مع خالص محبته

واحترامه لا يرى محلاً للابتزاز النفسي لأن علاقتهما قامت على الرضا المتبادل وثوقف إن توقف أحد الطرفين عن الشعور بهذا الرضا. مثل الأسطوانة المشروخة يردد هذه الكلمات، وأحياناً يزيد عليها تنبيهاً لها بأن ما تفعله يدخل في باب التحرش، سائلاً إياها عما سيكون شعورها لو كان الوضع معكوساً، لو كانت هي التي تريد إنهاء العلاقة وهو الذي يطاردها بهذا الشكل. عندها تنتقل إلى السباب والإهانات، ومنها إلى الاستعطاف وهكذا.

هدأت الأمور نسبياً بعد عدة أسابيع، وأصبحت نوبات الإهانة والبكاء والتهديد أقل تواتراً. وبعد عدة أسابيع أخرى اختفت لكنها تركت محلها شعوراً عميقاً - لديه - بالقلق منها. كأنها تبنت له أمراً، لا يعرف ما هو لكنه موقن أنه سيكون مدمراً. حتى حين كانت تبسم له أو تقول له شيئاً لطيفاً - في اجتماع أو حين يلتقيان بالصدفة في قاعة القسم، كان يظل متجمداً في انتظار نزول الضربة. هذا الشعور لم يتبدد لديه حتى يوم موتها.

قال مروان إن علاقتهما انقطعت فعلياً حين عادت لتعاطي الهيروين. علم بذلك منها وحاول مجدداً إثناءها عن العودة للإدمان أو إقناعها بالعودة لمركز إعادة التأهيل قبل استفحال المشكلة لكنها لم تلق له بالاً. كانت هذه هي الأسابيع الأخيرة من حياتها، وبدأ أنها كانت فعلاً في منحدر يزداد عمقه يوماً بعد يوم. حاول معها كثيراً خلال هذه الفترة، شفهاً وفي رسائل مكتوبة، لكن رد فعلها كان يتراوح بين السخرية منه ومما يقوله وبين العودة

للإهانات والانتهاكات. حتى كان يوم الخميس الأخير.

- اتصلت بيها بعد اجتماع القسم لأنه كان واضح أنها في حالة مش طبيعية.

- إزاي؟

- شتمت كل الناس في الاجتماع وقالت حاجات محدش ممكن يقولها في مكان عمله. عشان كده اتصلت بيها. مش عشان أعاتبها، عشان قلقت عليها. قعدت تهزر في التليفون شوية وتسخر مني شوية وتشتمني شوية، المعتاد يعني. وبعدين قالت لي إنها مشغولة مع تميم. ما فهمتش قصدها إيه فسألته. قالت لي إنها هتشرحلي بعدين، لما نتقابل في الاجتماع، وإنها محضرة مفاجأة مذهلة للجميع. قلقت أكثر طبعاً وسألته بس ما طلعتش منها بعقاد نافع وقفنا على كده.

- وبعدين.

- وبعدين اتصلت بي وهي منهارة الساعة أربعة وربع بالضبط. بتعيط وتصرخ وتشتم مع بعض. قفلت ورحلتها المكتب فوراً. لقيتها في حالة سيئة، وشكلها متخانقة وفي وشها جرح وعينها زرقا وشعرها منكوش. قالت لي إنها واجهت تميم بكل جرائمه اللي دمرت حياتها - ده كان موضوع حساس بالنسبة لها وقديم وبتكلم عنه في أوقات المصارحة والصفاء. المهم قالت إنها واجهته وإنه طلع أقدر

مما كانت فاكرة؛ وإنه ضربها وخنقها وكانت هتموت في إيده لولا إنها أغمي عليها فسابها! ذهلت. حاولت أهدئها وأخذها لمكتب البروفوست نبلغ عن اللي حصل بس ما رضيتش، ما كانتش سامعاني أصلاً. كل اللي كان على لسانها إنها هتقتل تيم. وورتي سكيئة قالتلي إنها «سكيئة قتل» اشترتها من أمازون وإنها هتقتله بيها في الاجتماع!

- نفس السكيئة اللي.

- أيوه، نفسها. أخذت منها السكيئة فوراً وقلت لها تبطل جنان بس هي كانت في حالة لا تصدق. عمري ما شفها كده ولا في أسوأ أحوالها. زقتني، وقعتني على الأرض، وهبشت السكيئة من إيدي وحطتها قدام وشي وقالتلي إني لو حاولت أمنعها هتقتلني أنا كمان. أنا عارف إن ده تهديد فارغ، بس برضه ذهلت من مستوى العنف. فضلت أحاول معاها نروح للعميد أو رئيسة الجامعة أو حتى مدير الأمن وهي مش بس رافضة، دي بدأت تشتمني أنا وتهمني إني بأنسق مع تيم عشان ندمرها مقابل إنه يديني وظيفة دائمة وإني مفترس زيه بالضبط وحاجات كده. فقدت أعصابي في الآخر وشتمتها - قتلها إن المخدرات جنتها أو أفقدتها التمييز وإنها بتصرف زي الحيوانات أو حاجة كده، وخرجت من المكتب. ودي كانت آخر مرة أشوفها. المؤسف إن دي كانت أول مرة أشتمها، رغم كل اللي عملته وقالته. بس تشاء الظروف إن دي تكون آخر حاجة تسمعها مني.

ياسر أقر أخيراً بأنه دخل مكتب يارا في الخامسة والنصف ولم يرجع من عند الباب كما ذكر من قبل. قال إنه دخل ووجدها نصف ملقاة على المكتب وظنها نائمة أو تحت تأثير المخدر فهزها ليقظها وعندها أدرك أنها مطعونة. أمسك بالسكين في حركة تلقائية ثم فزع عندما فهم أن هذا قد ينسب طعنها له، فألقى بالسكين وخرج من المكتب بسرعة.

لم يعرف عصام ما يفعله بكلام ياسر أو مروان، فالقارئ واضحة: سلاح الجريمة عليه بصماتهما، واعترفاً بحدوث شجار بينهما وبين يارا وصل للاشتباك بالأيدي، وهناك تاريخ بينهما وبين القتيلة ومراسلات تحمل اتهاماتها لهما. كذلك أخفيا كل هذه المعلومات حتى ووجهها بها ولم يعد من الممكن لهما الإنكار. من منهما الذي طعنها هو السؤال: وفقاً لرواية ياسر يكون مروان هو الذي طعنها ثم وجدها ياسر غارقة في دمائها. في هذه الحالة يكون مروان مذنباً بالشروع في القتل، وياسر مذنباً بعدم تقديم المساعدة لشخص في خطر. إن صدقت رواية مروان، يكون ياسر المذنب بالشروع في القتل ومروان بريئاً. هناك أيضاً دور لبنى في كل هذا وكيف انتهى سلاح الجريمة في مكتبها ملفوفاً في وشاحها، وخاصة أن السكين كان موجوداً على أرض مكتب القتيلة عندما غادره ياسر، وفقاً لروايته.

شهادات الطلبة وزملاء مروان تدينه وتبرئ ياسر. معاذ عاكف ضحك بمرارة وقال لعصام إن هذا ما حذره منه، بل وما حذر يارا نفسها منه. وذكره برأيه في مروان وادعائه النبل والبراءة للتغطية على انحطاطه. أحلام قالت إن هذا لا يفاجئها إطلاقاً، فيارا فرطت في نفسها للرائح والغادي حتى صارت مرتعاً لكل المرضى النفسين بالجامعة، وآخرهم مروان الذي يعرف الجميع زيف ادعائه النبل والفضيلة. واستبعدت بشدة اتهام ياسر. تهاني التلالي كانت أكثرهم إدانة لمروان، قائلة إن ذلك لا يفاجئها إطلاقاً، فلما استوضح معنى كلامها سألتها إن كان يعتقد أن مجيء مروان للجامعة كان صدفة أم أن جهات ما هي التي أرسلته. سألتها عما تقصد تحديداً، فقالت إن دعوة مروان للمجيء للجامعة كانت تهدف إلى تدمير القسم من الداخل، ولما فشل بسبب يقظتها هي وتميم أساساً، وربما د. صديقي، قرر في لحظة يأس أخيرة الإقدام على جريمة القتل هذه لتشويه صورة القسم. سألتها عصام إن كان لديها معلومات ما تستند إليها في تقييمها هذا، فهزت كتفها وقالت له إن الكل يعلم إصرار روبرتا على دعوة مروان للمجيء للجامعة وفي هذا التوقيت بالذات، وكيف حاولت هي وتميم منع مجيئه لكنها أصرت. سألتها لم ستصر رئيسة الجامعة على استقدامه إن كان هدفه تدمير القسم فضحكت وقالت له أن يدع السذاجة جانباً وينظر إلى الأمر في صورته المتكاملة: هل يعتقد حقاً أن روبرتا آتية للحفاظ على الجامعة!

حتى نائلة أبو ذكري أدانته، ليس بمثل قوة تهاني ولكنها قالت - بعد أن أكدت عدم معرفتها بأي شيء - إنها تعرف الصعوبات التي مرت بها يارا وكيف كانت في وضع هش يسهل على أي شخص استغلالها، وأن القسم لم يشهد أيًا من هذه المشاكل قبل قدوم د. مروان. ثم أضافت أنها لم تكن ترتاح له منذ البداية وواضح أنه «لم يقدر على الحمار فقدر على البردعة». ولما سألتها عصام عما تقصد بذلك هزت كتفها وقالت إن هذا ما يقوله الجميع. حاول عصام أن يفهم ما تقصده لكنها ظلت تردد كلمات غير مترابطة. أما تميم فقد مط شفتيه وهز كتفيه وقال ألا شيء يمكن إضافته للقرائن نفسها، ولكنه يثق في ياسر الذي يعرفه منذ سنوات ولا يتصور إقدامه على ذلك. حتى د. عبد الرحمن صديقي قال إن ياسر أستاذ بالجامعة منذ سنوات وسجله ناصع، في حين أن مروان مجرد أستاذ زائر لا يعرف أحد عن شخصيته وسلوكه شيئًا، ولا حتى روبرتا التي دعتة للمجيء..

رغم كل ذلك لم يكن عصام مرتاحًا لاتهام مروان. لا يبدو أنه من النوع الذي يستطيع طعن أحد بسكين؛ هو أضعف أو أرق من ذلك. لا يستطيع أن يحدد بالضبط لم، ولكنه غير مقتنع بأن هذا الشاب المنظم الحريص المهذب قادر على فعل ذلك. لكن في نهاية المطاف فإن المسألة لا تتعلق بإحساسه بقدر ما تتعلق بالأدلة والقرائن. وبصمة مروان - أو جزء منها - موجود على السكين، وهذا في حد ذاته كافٍ لتوجيه الاتهام له. الباقي أمور تستوفيها النيابة والمحكمة. لكن كل هذا لا ينفي ضرورة اتهام ياسر أيضًا.

ولا ينفي الشجار العنيف الذي وقع بين تميم ويارا في مكتبها قبيل موتها، بما في ذلك بصماته على رقبتها ومحاولته خنقها وجرحها له بأظافرها. ولا ينفي السم المدسوس في النبذ الذي أهدتها إياه تهاني التلاي. ولا ينفي جرعة الهيروين الكبيرة والطلبة الثلاثة المتورطين فيها. يبدو لعصام أنهم جميعاً مذنبون بالشروع في قتل يارا. لكن يبقى الطلق الناري، السبب الحقيقي للوفاة وفقاً للطبيب الشرعي.

استدعى لبنى من غرفتها التي ألزمها البقاء بها. يحتاج لفهم دورها في الموضوع بشكل أوضح. وجدها هادئة ومتماسكة مثلما كانت حين تركها. جلست في ثبات ونظرت إليه مستفهمة فسألها عن تفسيرها لوجود السكين في مكتبها وعلاقة ذلك بمروان. أجابت إن الموضوع بسيط ولا علاقة له بمروان، على الأقل ليس بشكل مباشر. ستحكي له ما حدث بشرط أن يتذكر أن كلامها هذا غير رسمي؛ للعلم فقط. أما لو سألها رسمياً في محضر، فهي لا تعرف عن أي سكين يتحدث. وافق.

قالت إنها عندما وصلت إلى مكتب يارا مع بقية أعضاء القسم بعد السادسة والنصف بقليل، رأت الدم ولم تنتبه للطلق الناري أو المسدس. كان السكين أمامها على الأرض، أمام الباب مباشرة. كانت تعلم بالمشاجرة التي وقعت بين مروان ويارا - ياسر كان قد أخبرها بالتليفون. وخافت أن يكون ما حدث نتيجة هذه المشاجرة، أن يكونا قد اشتبكا بالأيدي أو استفزت مروان إلى درجة فقد معها أعصابه أو شيئاً كهذا، فأسقطت الوشاح

الذي كانت ترتديه على الأرض، فوق السكين، وانحنت بسرعة والتقطته مع السكين وغادرت المكتب ثم الطابق كله بحجة إحضار روبرتا التي لا تعرف أماكن مكاتب الأساتذة. في وسط الهرج والمرج السائدين كانت متأكدة ألا أحد سيلاحظ غيابها وعودتها أو أنها التقطت السكين تحت الوشاح. كان عليها العودة بسرعة مع روبرتا، وبالتالي لم يكن هناك مكان تخفي فيه السكين سوى مكتبها. وضعت وسط الملفات وبعد ذلك لم نصح لها فرصة آمنة للتخلص منه. كانت تنوي إخراجه من الجامعة والتخلص منه في أي مكان بعيد عنها حين تتمكن من الخروج، لكن لم تلحق.

سألها لم فعلت كل هذا؟ فقالت لنفس السبب الذي دفعها لمسح إيميلات مروان مع يارا ومعها، كي تحميها. هي متأكدة من براءته، موقنة من ذلك، ومتأكدة أيضاً أنهم سيتفقدون عليه في النهاية، لأن إدانته تبرئهم جميعاً. في حين أنه هو البريء الوحيد؛ هو الوحيد من بينهم الذي لا يقدر على القتل. مروان غير قادر على إيذاء أي شيء، ولهذا أرادت حمايته.

- صحيح الحب أعمى!

- لا يا حضرة الضابط، العمى إن الواحد ما يبقاش قادر يميز. أياً كانت مشاعري ناحية مروان فسببها براءته دي، براءة تبلغ حد العبط. وده نفس السبب اللي يخليني مش ممكن أرتبط به. الحكاية مش بنت مغرمة بالأستاذ

وشايفاه ملاك وعاززة تنقذه؛ الحكاية إني عارفة كويس إن الجامعة دي كلها مذنبين من أولها لآخرها، بس مروان ده اللي جه هنا بالغلط. جاموسة تايهه يا حرام! وأنا بس باحاول أنقذ الجاموسة قبل ما يدبحوها وياكلوا لحمها. فهمت؟

قال عصام إن هذه قصة مؤثرة، لكنها لا تنفي ضلوعها هي شخصياً في الجريمة، على الأقل من خلال إعاقتها لسير التحقيق. هزت لبني كتفها وقالت إنها ليست ضالعة في أي شيء، ولديها شاهد على وجودها بمكان آخر قبل الجريمة وأثناءها وبعدها. بل ولا دليل على قيامها بأخذ السكين من مسرح الجريمة:

- اللي قلته لحضرتك ده كله كلام ودي، في المحضر مش هاقول ولا كلمة منه. ما أعرفش مين اللي حط السكينة عندي، أكيد القاتل حب يلبسني التهمة!

ثم أضافت بعد تفكير أنه لا يوجد دليل أصلاً على كون هذه السكين هي سلاح الجريمة:

- أي حد ممكن يكون عنده سكينة زيها. دي بتتباع على أمازون! وبالتالي أي محامي هيقول دي سكينة مروان نفسه وعليها بصمته عشان بتاعته وضاعت منه وماهاش علاقة بالجريمة. أو أقول إنها سكينتي شايلها معايا للدفاع عن النفس. حتى لو أثبت أن مواصفات القطع اللي في بطن القتيلة مشابهة لنوع القطع اللي السكينة دي بتعمله،

برضه مفيش دليل مادي إن السكينة دي بالذات هي
اللي تم استخدامها. لا عليها دم القتيلة ولا بصماتها ولا أي
حاجة تربطها بيها! وزى ما باقولك، بتتباع على أمازون!

سكتت لبني مرة أخرى ثم أضافت:

- بص يا حضرة الضابط، أنا رأيي إنك ترجع لفرضية
الانتحار اللي قالت عليها روبرتا من الأول. ترجح نفسك
وترجح الكل معاك!

* * *

حدث كل شيء بسرعة مذهلة. نظرت أحلام إلى
سقف الغرفة وهي تشعر كأن عاصفة هبت فجأة وانتزعتها
من مكانها ملقية بها في البحر. غير أنها ليست في البحر، بل
على أرض الغرفة الموكيت، نصف عارية، والدكتور ياسر
العرباوي مستلقٍ بجوارها يلتقط أنفاسه. سحبت جسمها
قليلاً كي تفك تلامسهما ووضعت يدها على عينيها. لا
تعرف حتى كيف تفكر فيما حدث. ما هذا؟ كيف
تصفه؟ وبم تشعر؟

- أنا آسف، ما كنت باعرف!

....

- كان حقك قلب شي.

هي قالت، أو هكذا تظن. قالت كلمات، أنصاف جمل، بهذا المعنى. قالت إنها لم تفعل هذا من قبل، قالت «ما يصير»، قالت «مش هون»، «مش هيك»، وقالت أيضاً «ييكفي»، «استنى»، أو هكذا تظن. لم تقل «لا»، لم تقل «وقف»، ليس صراحة، لكن جسمها كله كان يقول ذلك، وهي تنسحب وتنداخل في نفسها وتتملص، لكنه لم يكن يسمعها، لم يكن يستمع إليها، لم يرها. أين رأت هذا المشهد من قبل؟ نعم، في مسلسل بريطاني عن قضية اغتصاب، ماذا كان اسمه؟ «تشریح فضيحة» أو شيئاً مثل هذا. لا بد أن آلاف النساء شاهدته، فلماذا يحدث لها هي نفس الشيء؟ ولماذا تفكر الآن في مسلسل شاهدهته بدلاً من كونها ملقاة على موكيت غرفة أستاذها نصف عارية والدم يسيل بين فخذيها. أفاقت من أفكارها على يده الممتدة لها بالمناديل الورقية فتناولتها بسرعة دون أن تنظر إليه وحاولت مسح الدم وتغطية نفسها. وقف ياسر وسألها إن كانت تريد شيئاً؛ شيئاً تأكله أو تشربه أو ربما حبات أسبرين؟ ولما هزت رأسها بالنفي، قال إنه سيعود بعد قليل وفتح باب الغرفة بحرص وأطل منه برأسه أولاً ثم اختفى. كيف حدث لها كل هذا بهذه السرعة؟

جاءت إلى غرفته لتشكو له معاذ، الذي يفترض أنه يبادلها الحب. كانت غاضبة بسبب علاقته بيارا التي تبين أثناء التحقيق أنها كانت أعمق بكثير مما قال لها. غاضبة

لأنه أخفى عليها كل هذا، وغاضبة لأنها تشعر أنه استغلها، وغاضبة لأنه فيما يبدو لم يكن يحبها مثلما أحبه بل ظل متعلقاً بأستاذه القديمة، وغاضبة من نفسها لأنها لم تر كل هذا من قبل. وماذا يقول ذلك العمى أو التعامي عنها وعن عقلها وبصيرتها؟ لم تكن أول مرة تشتكي لياسر؛ بدأت ذلك منذ فترة، وهو دائماً يستمع لها ويحتويها وتخرج من لقاءه أفضل مما أتت. كانت تتراح له لأنه يفهمها دون شرح. وبالإضافة لاحترامها له فكرياً وسياسياً أصبحت مع الوقت مرتبطة به نفسياً أيضاً. ليس عاطفياً، لا تظن ذلك، لم تكن تتصور أن ينتهي الأمر بها هنا، لكنها ولا شك كانت تحب صحبته وتشعر بأن قيمتها أكبر وهي معه. هل كانت تجده جذاباً؟ نعم. هل فكرت أحياناً فيه كرجل؟ نعم. هل جال بخاطرها خيالات جنسية تجمعهما؟ نعم. لكن لا شيء من هذا يعني أنها كانت تخطط لهذا، أو حتى تريده. تلوم نفسها الآن، أنها أعجبت به، أنها اطمأنت له، أنها لجأت إليه، أنها جاءت لغرفته.

لكن أحلام جاءت إلى غرفته لأنه استدعاها. كتبت له رسالة تطلب لقاءه لمناقشة مشكلة معاذ وتسأله إن كان بالمكتب. فقال إنه متعب ويستريح بالغرفة ويمكنها المرور عليه. اقترحت أن يلتقيا في مكان آخر في الجامعة، لكنه قال إن حرم الجامعة كله شمس وحر ولا يوجد تكييف إلا في المكاتب والقاعات ومساكن الجامعة، ولا معنى للخروج من غرفته للذهاب إلى غرفته الأخرى المسماة مكتباً. ترددت قليلاً فقال لها ألا نتصرف كأنها فريسة محتملة، فاعتذرت وقالت كذباً إن هذا لم يخطر على بالها

وانها ستكون عند غرفته بعد دقائق. عندما وصلت حكت له عن مشاكلها مع معاذ - وهو استكمال لأحداث سابقة - فقال لها إن الحل الأمثل هو سفر معاذ بأسرع ما يمكن لبدء دراسة الدكتوراه في نيويورك. هذا ما يريده معاذ، هذه خطته لمستقبله. يعرف أن خطتها مختلفة، إنها تريد العودة إلى لبنان والعمل مع منظمات الدفاع عن أبناء المخيمات وحقوقهم. لكن هذه خطتها هي لا خطة معاذ. يعرف أنها تتوسم فيه مستقبلاً آخر، لكن معاذ لا يريد هذا المستقبل الآخر، ربما فيما بعد. وحان الوقت كي تدرك ذلك وتكف عن محاولة تغيير وجهته. كرر ما قاله لها من قبل، إن علاقتها بمعاذ قد أصبحت سامة للطرفين: معاذ يحتاج إلى بعض الوقت وحده كي يتعافى من مشاعره إزاء يارا وينضج، وهي تحتاج إلى وقت بدونه كي تتعافى هي الأخرى من أثر تبنيها له كأنه طفلها وتبدأ في التصرف كامرأة ناضجة.

ظلت صامته دقائق ثم سأله كيف يمكن لمعاذ بدء الدكتوراه وهو لم ينه رسالة الماجستير بعد ولم يقدم في أي برنامج للدكتوراه. قال يأسر ألا تقلق من هذا، فليده أصدقاء في الجامعة بنيويورك وأحدهم هو المسئول عن قبول الطلبة الجدد ويمكنه تدير ذلك بالنظر للظروف ولنشاط معاذ السياسي. أما فيما يتعلق برسالة الماجستير فيمكنه تقديمها الآن بسرعة. فهو المشرف على رسالته منذ انسحاب يارا. ويمكنه أن يطلب من صديق له في قسم الأنثروبولوجيا أن يكون المراجع ومعا يمكنهما الاجتماع بسرعة ومناقشة الرسالة وقبولها في وضعها الحالي بحيث

يستكمل معاذ الأجزاء الناقصة فيما بعد على أساس أنها ملاحظات لجنة المناقشة. سألته في اندهاش إن كان ذلك ممكناً، فقال في بساطة لا تخلو من التيه إن كل شيء ممكن إن وجدت الإرادة. المهم ألا تقلق هي. سيعتني هو بمعاذ، وعليها هي الاعتناء بنفسها والتصرف كامرأة ناضجة. دمعت عيناها وحاولت كتم الدموع لكنها أفلتت منها، وعندما انفجرت في البكاء احتضنها، ثم قبلها، ثم وجدت نفسها على الأرض والدماء تسيل بين نخذيها.

أين ذهب الآن؟ لا، خير ما فعل. ستسلم أشياءها وتحتفي هي الأخرى. لكن الوقت لم يسعفها. تمكنت من الوقوف وإعادة ارتداء ملابسها وهندمة نفسها وشعرها وإلقاء المناديل في سلة المهملات وهمت بالرحيل حين عاد ياسر ثانية. كان يبدو عادياً جداً، بابتسامته المعهودة ونظراته الحانية. وضع كوب القهوة وزجاجة العصير على المنضدة الكائنة في وسط الغرفة وقال لها أن تختار. ترددت قليلاً ثم غمغمت بشيء عن ضرورة ذهابها. عرض أن يوصلها لكنها هزت رأسها نافية. أمسك بها ونظر في عينيها وقال لها ألا تقلق. كما وعدها، سيقوم بالاعتناء بمشكلة معاذ كما وعدها، ليس عليها أن تقلق من ذلك بعد اليوم.

* * *

الفصل السابع

الأرض الخراب

كان مشهد الدفن حزيناً. كل دفن حزين ولا شك، لكن دفن يارا بدا حزيناً بشكل خاص. لم يحضره أحد من القسم، ولا من الجامعة كلها باستثناء بدران مدير الأمن. يبدو أنه يعرف والد يارا - اللواء السابق - أو على الأقل هكذا ظن عصام حين رآه يحتضن السيد رفقي بشدة. السيد رفقي كان صامتاً طيلة الوقت، بل وبدا عليه الضجر أحياناً كأنه يود الانتهاء من كل هذا والرحيل. زوجته، أم يارا، كانت صامته أيضاً وترتدي نظارة شمس كبيرة غطت معظم وجهها، وبالإضافة إلى الطرحة التي تغطي شعرها لم يتبق الكثير من ملامحها ليعطي عصام أي فكرة عن مشاعرها، لكنها بدت متماسكة إلى حد كبير. لا انفجارات في البكاء ولا عويل بالطبع، حتى في اللحظة القائمة حين وضعوا الجثمان في الأرض وأهالوا فوقها التراب. وقف السيد رفقي وزوجته فوق القبر مباشرة ينظران إلى التراب يغطي جسم ابنتهما شيئاً فشيئاً وهما متماسكان هادئان وصامتان. ثم توافد الحاضرون ليشدوا على أيديهما، بعضهم احتضنهما بسرعة؛ ينسحبون بمجرد ملامسة أكافهما. ثم توافدت جوقة المدافن: سلسلة من المقرئين والوعاظ المرتزة والأطفال الحفاة معمصي العيون الذين يتسولون من أهل الميت والحاضرين. والتراب،

الكثير من التراب الذي يملأ المكان كله. لحق عصام بصف المعزين وشد بدوره على يد السيد رفقي وزوجته وتوجه متمهلاً نحو سيارته. في الطريق قابل أحد قياداته الذي لا بد أنه كان زميلاً للسيد رفقي أيام خدمته. أوقفه وسأله عن سير التحقيق، فقال عصام بعض الأشياء المتناثرة والقائد يستمع ويهز رأسه وعيناه مثبتتين على والد يارا. حين توقف عصام عن الشرح نظر إليه مباشرة في عينيه وقال:

- ده كلام جميل، برافو عليك إنك أثبت نفسك في قضية صعبة زي دي. برافو. دلوقت لازم تخلص وتسلم محضر تحقيقاتك للنيابة. الكل مستعجل على إنهاء الموضوع. فيا ريت تخلص النهارده.

- حاضر يا افندم، على وشك والله.

- فاضل إيه تاني؟ احنا حطينا كل الإمكانيات في خدمتك. لازم تنجز بأه وتوري الكل إنك قدها. النهارده تقدم محضر التحريات، ولا انت لسه محتاج حاجة؟

- لأ بس محتاج أربط شوية خيوط في بعض.

- خيوط إيه يا سيادة الرائد ما تعقدش الدنيا على نفسك وعلى غيرك. الوزارة كلها تحت الميكروسكوب. والنيابة بتستعجل. زي ما قلتك من الأول دي قضية رأي عام، وفيها هيئة أجنبية، ومش ناقصين وجع دماغ. عايزين

ننتهي، وننتهي بشكل مشرف. تسلم محضر تحريات منضبط يساعد النيابة مش يرمي عليها المشكلة. مفهوم؟ لو محتاج مساعدة قول من غير كسوف.

- لا يا افندم، تمام، النهارده إن شاء الله.

ربت القائد على يد الرائد ومضى نحو سيارته. التفت عصام ناحية والدي يارا فوجد أباهما يحدق ناحيته وبدران ينظر إليه ويحييه بإيماءة من رأسه. اليوم إذن، عليه إنهاء تحقيقاته وتحرياته وتقريره اليوم.

* * *

لبنى هي التي أخبرت عصام باقتراح روبرتا. كان عصام جالساً في القاعة المخصصة للتحقيق يحاول إعداد محضر التحريات. مشكلته ليست فقط تحديد المتهم بإطلاق النار، أو الاختيار بين اتهام الجميع بالشروع في القتل أو اتهام مروان وحده أو التغاضي عن الشروع في القتل والتركيز على من أطلق النار. مشكلته الحالية هي الطبيب الشرعي الذي يصّر على تقدير ساعة الوفاة بالتاسعة مساءً، وهو مستحيل عملياً بالنظر لتوقيت الإبلاغ ووصول النجدة وكل هذا. الطبيب الشرعي قال إن التقرير سليم لا خطأ مطبعياً به، فالشواهد التي لديه تشير إلى حدوث الوفاة حوالي التاسعة، ربما قبلها أو بعدها بقليل لكن ليس في السادسة كما يقول. هذا ما تقوله الشواهد الطبية في الجثة، أما الباقي فليس من شأنه. دخلت لبنى عليه وهو غارق

في تقرير الطبيب الشرعي وصور مسرح الجريمة وتوقيتاتها،
وأيضاً الصور التي التقطها صديقه بالأدلة الجنائية والذي
عائنه مسرح الجريمة مع وكيل النيابة. رفع رأسه ناحية لبني
حين دخلت ثم عاد بنظره للصور.

- الدار أمان ولا أروح أوضتي باعتباري متهمة وكده؟

نظر لها عصام دون تعبير محدد على وجهه وأشار لها
برأسه إشارة لم تفهم إن كانت تعني سماحه لها بالبقاء أم
لا. ترددت لحظة ثم سحبت كرسيها التقليدي وجلست فيه
وهي صامتة. لم يقل شيئاً هو الآخر وظل يقلب في الصور
والتقرير. سأله:

- إيه المشكلة؟

- توقيت الوفاة.

- مش قلت غلطة؟

هز رأسه نافياً. قطبت جبينها ثم طلبت منه أن يركز معها
عدة دقائق لأن لديها أشياء مهمة تريد إخباره بها. ترك
عصام التقارير والصور ونظر لها في نفاذ صبر وأشار لها
بيده:

- خير؟

قالت لبنى إن روبرتا لديها اقتراح لكيفية التعامل مع
تقريره قد يكون فيه فائدة للجميع، وأن هذا الاقتراح
سيحمله إليه بدران مدير الأمن باعتباره فكرته هو، لكنها
أرادت إخباره بالحقيقة من باب المودة وبكادرة حسن
نية.

- وحياة النبي؟

- آه والله. انت فاكرني باشتغلك طبعاً. بس الحقيقة إني
شايفة فيك فكرة وقلبي عليك.

- كلك إنسانية والله.

- وكان عشان عايزة أزود حاجة على الاقتراح بتاع
روبرتتا.

- أيوه كده خيلنا في المصلحة بلاش جو قلبي عليك ده.

- والله أنا باعزك بجد. انت ليه مش مصدقني؟

- خيلنا في المهم. هي مش غريبة شوية إن رئيسة
الجامعة عندها اقتراح بخصوص تحريات المباحث؟

- يعني هي دي اللي وقفت معاك؟

- ماشي يا أختي، اتفضللي، اشييني.

قالت لبنى إن هم الجامعة الرئيسي هو احتواء الموضوع
 وتقليل الشوشرة والنتائج السلبية للحدث بأكبر درجة
 ممكنة. هذا هو السبب في دفعهم المستمر لفرضية الانتحار؛
 فانتحار أستاذة شيء مأساوي، لكنها كان لديها مشاكل
 مثبتة في الورق، ومن ثم فهي مأساة شخصية لا تنعكس
 سلباً على الجامعة. أما قتل أحد الأساتذة لزميلة - أو
 الشروع في قتلها - فهو أكبر من مجرد مأساة شخصية لإنسانة
 مضطربة. وبالطبع فإن شروع عدد من الأساتذة في قتل
 زميلتهم كارثة أكبر بكثير وتشير لوجود مشكلة ضخمة في
 الجامعة نفسها. وهذا موضوع له تداعيات على سمعتها ليس
 في مصر وحدها، بل في المنطقة العربية وأمريكا أيضاً. من
 الذي سيرسل أولاده إلى الجامعة إن كانت أمورها بهذا
 السوء؟ ليس فقط من مصر، بل من بقية الدول العربية.
 كل هؤلاء الآباء المحافظين الذين يخافون إرسال أولادهم
 للدراسة في أمريكا يجدون في الجامعة حلاً وسطاً معقولاً:
 تعليم أمريكي، شهادة معتمدة في أمريكا وكندا، وفي نفس
 الوقت يعيشون في مجتمع عربي أغليته مسلمة ويفترض
 أنه مجتمع محافظ وكل هذا الكلام. لا أحد من هؤلاء
 سيأمن على أبنائه في جامعة يدمن فيها الأساتذة المخدرات،
 ويبيعها الطلبة على المكشوف، ويستغل فيها الأساتذة
 بعضهم والطلبة جنسياً، ثم يقتلون بعضهم بعضاً في نهاية
 المطاف بينما إدارة الجامعة جالسة كالأطرش في الزفة!
 ولا يتوقف الأمر عند سمعة الجامعة لدى أولياء الأمور،
 بل أيضاً عند المانحين؛ من الذي سيتبرع بالمال لمثل هذه
 المؤسسة، سواء هنا أو في الخليج وأمريكا؟ من المجنون
 الذي سيلقي بماله الخاص في هذه الحفرة؟ وإن توقفت

التبرعات، فكيف ستصرف هذه الجامعة على نفسها في حين تعتمد ميزانيتها على التبرعات أضعاف ما تعتمد على المصاريف؟

سكنت لبني قليلاً لتترك عصام يستوعب كل هذا. ثم استكلت محاضرتها عن ظروف الجامعة وحساسيتها لسمعتها. شرحت له دور الجامعة السياسي والاجتماعي، وهو أمر لا يعرف عنه عصام ولا شك سوى بعض انحرافات الشعبية. فالجامعة ليست مقراً للمخابرات الأمريكية أو واجهة لمطار سري تحت الأرض كما تروج الشائعات، لكنها واجهة للقيم والمثل الأمريكية، أو على الأقل القيم والمثل التي يحب بعض الأمريكيين الاعتقاد بأنهم يجسدونها، مثل التفكير العلمي والعقلاني، المساواة وتكافؤ الفرص، العدالة، الإدارة الرشيدة، إلخ. هذه الجامعة، ومثيلاتها في المنطقة، أنشأها مبشرون أمريكيون منذ أكثر من مائة عام لا لنشر المسيحية البروتستانتية لكن لنشر هذه القيم والمثل. والمفترض أن هذه هي رسالتها، فكيف سيكون موقف الجامعة أمام الجهات التي تدعمها في أمريكا إن اتضح عكس ذلك؟ كيف سيكون موقف مجلس إدارة الجامعة؟ وحتى الحكومة هنا يمكن أن يضعها ذلك في موقف محرج أمام منتقديها. باختصار، سيتضرر الجميع، الجميع، من الشوشرة.

- حلوقوي، فطلوب بأه إني أطبخ التحريات عشان الريحة ما تضايقش البهوات دول كلهم؟

نفت لبنى ذلك. قالت إن ما تطلبه روبرتا هو اقتصار
محضر التحريات على الحقائق المرتبطة بتفسير الوفاة دون
تخرصات:

- تخرصات؟

- أيوه، يعني بالعربي تركز على الحاجات اللي عندك عليها
دليل. في أداة جريمة؟

- في أداة يمكن أن تكون...

- يبقى دي تخرصات. إن كان في أداة جريمة بشكل
قاطع تذكرها. في مشتبه به؟

- في بتاع سبعة لغاية دلوقت.

- برضه تخرصات. البقال اللي في شارع يارا لو رحت
تدور وراه هتلاقه بيكرها واتخاقت معاها قبل ما تموت
بيومين. يارا دي شخصية بنت قبة كل اللي عرفها اتخاقت
معاها، هتتهم البلد كلها؟

.....

- وبعدين فيه فرضية الانتحار.

- ثاني؟

- أيوه، وعندك مسئولين في الجامعة يشهدوا إنها قالتهم
إنها عايزة تنتحر. يبقى على الأقل ده جزء مهم من
التفسيرات المحتملة.

- عظيم. وإيه المقابل بأه؟

تمهلت لبني عدة ثوانٍ ثم قالت إن روبرتا تريد تنظيف
الجامعة من هذه الأمراض التي كشف عنها التحقيق؛
هي لا تريد شوشرة، لكنها في نفس الوقت لا تريد دفن
المشاكل. أخذت لبني نفساً عميقاً وأبطأت سرعة كلامها
كي تحاول تخفيف وقعه. قالت إن روبرتا تريد الاستعانة
به في إدارة الأمن بالجامعة من أجل مساعدتها في تنظيف
الجامعة من هذه الممارسات التي كشف عنها التحقيق.
وبدران أبو سرّة سيغادر الجامعة في سبتمبر وذلك يفتح
الباب أمامه لتولي مكانه. يمكنه الحصول على إجازة بدون
مرتب من الداخلية وتولي هذه الوظيفة ثم العودة للوزارة
حين يريد، أو الاستمرار في الجامعة لأجل غير مسمى،
فالعقد لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد.

صمت لبني وجلست تنتظر رد فعله. لكن عصام ظل
جامد الملامح لم تختلج في وجهه عضلة واحدة. بعد دقيقة
طويلة من الصمت قال:

- وانتِ إيه مصلحتك في الصفقة دي يا ترى؟

- أتكلم بصراحة ولا هتقفش؟

- صراحة أكثر من كده: ده انت لسه عارضة رشوة على موظف عام!

- لا لا يا حضرة الضابط ما تكبرش الموضوع، رشوة إيه لا سمح الله؛ دي سيناريوهات للمستقبل. في سيناريو «أ»: تكتب اللي انت عاوزه انشالله تتهم الجامعة كلها، وترجع دورية النجدة ثاني يوم زي الفل - أو ما ترجعش بأه انت والي الوزارة تعمله معاك. السيناريو الثاني، سيناريو «ب» تراعي فيه ظروف الجامعة في تقريرك وبعدين تبجي تساهم في بناء الجامعة الجديدة مع الأخت روبرتا. ده ممكن وده ممكن، أو كما قال؛ كده ينفع وكده ينفع. وده اللي بدران هيشرحه لحضرتك.

- وانت بتقوليلي ليه لما هو هيشرحه.

- أولاً عشان أضيف الزاوية اللي تخصني، بس والله كان عشان قلبي عليك ومش عايزاهم يضحكوا عليك، وكان بدران إيده ثقيلة وخفت يبوظ الموضوع.

- طيب قوليلي الزاوية اللي تخصك خلي الصورة تكمل.

أخذت لبني نفساً عميقاً ثم قالت إن الجامعة تفضل ترجيح تقريره لفرضية الانتحار، هذا هو الحل الأمثل. أما لو تعذر ذلك، وأصر على توجيه الاتهام لشخص بعينه، فإن الجامعة لن تمنع في توجيه الاتهام لمروان باعتبار ذلك الشر الأقل. فهو أستاذ زائر في نهاية المطاف وليس من

ضمن العاملين بالجامعة. وهذا بالضبط ما تريد لبنى تجنبه.

- دي بأه الزاوية بتاعتي. أنا شايلة الفيشة وموصلة أرضي، ومش فارق معايا مين يطبخ إيه. لكن يلبسوا الحكاية للشخص البريء الوحيد في الجامعة، ده يتخطى قدرتي على الطناش. وبالتالي حيت أقولك، كلبنى مش كندوبة عن روبرتا، إني مستعدة أساعدك في أي سيناريو انت تختاره، «أ» أو «ب»، بأي طريقة انت تختارها. لكن لو هتلبسوا مروان الليلة هاضرب الكرسي في الكلوب وأفشخ أي حاجة تعملوها. من الآخر كده!

- يعني مش بس جايبالي عرض رشوة، كان تهديد. ما شاء الله، دنا ممكن أحبسك بالكمتين دول.

- بس ما تكبرش الحكاية يا سيادة الرائد، أنا بنت تافهة باشتغل في وظيفة إدارية بسيطة في الجامعة وكلامي غير ملزم. أنا مجرد باشاركك أفكارى عن الاختيارات المتاحة، بما إنك بتستعين بي في التحقيق والترجمة، فحيت أترجمك الواقع اللي حوالينا. اعتبرني عرافة يا سيدي، باقرا الطالع، وباقولك قدامك ثلاث سكك: سكتين ندامة بأشكال مختلفة وسكة سلامة، وربنا يوفق حضرتك لما فيه المصلحة.

- ماشي يا أختي. من فضلك روجي هاتيلي نايلة أبو ذكرى.

- نائلة أبو ذكري؟ هتعمل بيها إيه دي؟ هتسألها عن الحمار والبردعة؟

- روجي بس وبلاش غلبة!

* * *

بدران أبو سرّة كان أذكى من روبرتا وأصيع مما ظنت لبنى. بدلاً من أن يحمل العرض الذي اقترحه روبرتا قسمه إلى نصفين: تولى هو نصفه المشرق وترك النصف الآخر لعبد الرحمن صديقي دون أي رابط بين الأمرين بحيث لا يمكن لأحد الزعم بأن هناك رشوة أو صفقة. اتصل بعصام وطلب منه المرور عليه في مكتبه. عندما وصل قدم له شايًا وجلسا في شرفة المكتب المطلة على ساحة الجامعة. تحدث بدران عن أمور عامة لعدة دقائق قبل الانتقال للمهم. قال له إنه رآه يتحدث مع القيادة الأمنية بعد دفن يارا، وخمن أن الأخير يضغط عليه لإنهاء التحقيق بسرعة، ومن ثم أراد أن يقول لعصام ألا يهتم بهذا الضغط ولا يعيره أي اهتمام:

- ساعة الجد مش هينفعك غير شغلك. أي حد قالك أي حاجة هيعمل نفسه من بنها ويقول إنك فسرت كلامه غلط. فنصيحتي إنك تعمل شغلك زي ما الكتاب يقول ولا كأن أي حد قالك أي حاجة وبغض النظر عن أي حاجة. المهم تبقى انت في السليم.

شكره عصام على المؤازرة وتحديثاً قليلاً عن التحقيق لكن بدران نأى بنفسه عن التفاصيل، وكلما شعر أن عصام يتطرق للتحقيق غير الموضوع وعاد إلى العموميات بحيث جعل من الواضح تماماً أنه لم يستدعه لمعرفة مضمون محضر التحريات ولا استكشاف نوايا عصام. بدلاً من ذلك، بدأ مونولوجاً طويلاً حول سوء أحوال الجامعة.

أشار إلى ساحة الجامعة وقال إنه من المؤسف أن تصل أحوالها إلى هذا المستوى. يعلم الكثير من خباياها ويعلم إلى أي حد تفشى فيها الفساد وقلة المهنية والمشكلات الاجتماعية والسلوكية الأخرى، لكنه فوجئ بحجم تلك الأخيرة خلال التحقيق. لم يكن يتصور أن الأمور وصلت إلى هذا المستوى، وشعر بتأنيب ضمير لعدم معرفته. كيف جرت كل تلك الأشياء تحت أنفه دون أن يلاحظ شيئاً؟ أي مدير أمن هذا الذي لا يدري ما يجري من حوله إلى هذه الدرجة. الموضوع بالنسبة له ليس مجرد تقصير مهني، بل يمس رجولته. يشعر كأنه كان طرطوراً في هذه الجامعة. هو يلوم رئيس الجامعة السابق على كل هذا. هو الذي قلل ميزانية الأمن وحجم نشاطه وكف يده عن نشاط الطلبة والأساتذة باسم الحرية الأكاديمية. وهذه هي النتيجة؛ هذه هي الحرية الأكاديمية عندما يمارسها الدهايم. لكن روبرتا مختلفة؛ صحيح ألا خبرة لها في المنطقة لكنها فهمت بسرعة أنها في وسط ناس حوش يحتاجون إلى معاملة خاصة، ومن ثم أطلقت يده واستجابت لكل ما كان يطلبه من رئيس الجامعة السابق. وهو الآن يريد استخدام هذا الجو الجديد لتطهير الجامعة من الموبقات التي

تسللت إليها في السنوات السابقة. المسألة شخصية بالنسبة له، فإن كان قد قصر في معرفة مجريات الأمور في الماضي فلن يقصر الآن في التعامل معها. لكنه سيغادر منصبه في سبتمبر ولن نتاح له الفرصة لتنظيف المكان بحيث يتركه لمن يأتي بعده على أتم وجه. سأله عصام إلى أين سيذهب؟ فقال إن ولديه الاثنين حصلا على منحتين للدراسة في جامعة بنويورك، وسينتقل هو أيضاً إلى هناك ليكون قريباً منهما:

- هاشتغل في وظيفة بسيطة في مكتب الجامعة في نيويورك، ما تتناسبش طبعاً وخبرتي لكن أحسن من مفيش، والمهم أكون جنب الولاد.

وبالتالي سيخلو منصبه، وهذا هو بيت القصيد، قال بدران إنه يتوسم فيه القدرة على تولي منصبه، ويمكنه إقناع إدارة الجامعة بتعيينه بعد نهاية التحقيق والقضية بحيث لا يكون هناك أي غبار عليه في الالتحاق بالعمل بالجامعة. وهما معاً يستطيعان القيام بما يلزم لعلاج المشكلات التي كشف عنها التحقيق، بحيث يتمان أكبر قدر ممكن من التغييرات قبل سفره، وحتى بعد ذلك يسعده المساعدة من نيويورك إن احتاج عصام شيئاً.

أسهب بدران في بيان مزايا العمل في الجامعة: المرتب سخّي، وبال دولار وبالتالي لا يتأثر صاحب الوظيفة بعوم الجنيه أو غرقه. والوسط محترم نسبياً - على الأقل أفضل من الحثالة التي يتعامل معها ضباط المباحث في الأقسام،

وبيئة العمل فيها احترام للموظف أفضل بكثير من الوضع بالوزارة، ولا يوجد أي من القيود ولا الضغوط المفروضة على حياته كضابط. في نفس الوقت، يعمل في مجاله، والفرص لتطوير نفسه وقدراته كثيرة، سواء بتعلم اللغة أو استكمال دراسته الأمنية أو الحصول على تدريب عملي هنا أو في أمريكا. وفي نهاية الأمر يصبح جزءاً من عائلة الجامعة، ومثلها يرى في حالته فإن ذلك يساعد حتى مع تعليم الأولاد - سواء في الجامعة نفسها حيث يدخل الأولاد مجاناً أو مساعدتهم لو احتاجوا السفر. ختم بدران حديثه بالتأكيد على أن هذه فرصة ذهبية لا تعوض، ودعا عصام لاغتنامها لكن بعد نهاية التحقيق تماماً وإتمام مهمته بالكامل بحيث لا تكون هناك شبهة أي ضغط أو شيء كهذا لا سمح الله.

* * *

اتصل البروفوست عبد الرحمن صدقي بعصام بمجرد خروجه من مكتب بدران وطلب منه المرور عليه. لم يشر من قريب أو بعيد لفكرة عمل عصام في إدارة الأمن. كل ما قاله هو تكرار ما سبق وقاله من ضرورة الاهتمام بفرضية الانتحار وإعطائها الأهمية التي تستحقها. ففي نهاية المطاف القتيلة ماتت بفعل الطلق الناري لا الجرح القطعي في بطنها أو التبيذ المسموم أو أي من هذه المصادفات التعيسة، والمسدس عليه بصماتها هي دون غيرها. الطعنة غير مفهومة ولا دليل قاطعاً على من أقدم عليها. الحقيقة أنه لا يوجد أي شيء لا يمكن تفسيره في ضوء فرضية

كان عصام يستمع ولا يعلق. انتقل البروفوست من الحديث عن الانتحار إلى الاحتمال الآخر وهو القتل. في هذه الحالة، قال، فإن رجاءه ورجاء إدارة الجامعة هو التمسك بالقرائن الملموسة وعدم الانجراف خلف التخرصات. لا يدري عصام من أين جاءت كلمة التخرصات هذه التي يرددها الجميع. القرائن الملموسة لا تشير لقيام أحد بقتل يارا. أقرب شيء إلى ذلك هو بصمات مروان وياسر على ما يمكن أن يكون أداة لطعنها. لكن هذا أيضاً ليس سبب وفاتها. ربما يكون أحدهما قد طعنها نتيجة شجار معها، دون نية في قتلها. وحتى هذا الاقتراض المركب به قدر كبير من التخرص، فقد يكون كل من مروان وياسر على حق، وتكون يارا قد طعنت نفسها ولما فشلت في الانتحار استخدمت المسدس. ومن ثم فهو وإدارة الجامعة لا يرون منطقاً في تعقيد الأمور بهذا الشكل. لكن إن كان لا بد من توجيه النظر لاحتمال وجود شبهة عمل جنائي، فإن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه بشكل يتمتع بالمصداقية. بقية الأشياء، بقية المشاكل التي اكتشفها عصام، هي مشكلات أخلاقية أو سلوكية أو مهنية. كلها بلا شك مشكلات خطيرة تستدعي الاهتمام والتدخل الفوري والحاسم، لكن لا علاقة لها بموت يارا. وهو هنا كي يتحرى عن خلفيات موت يارا وما إذا كان هناك شبهة جنائية في هذا الموت، لا للتحقيق في المخالفات السلوكية والمهنية. ولا بد أن يحصر تقريره في مهمته الأصلية. هذا

هو المتوقع من ضابط يتمتع بحس مهني عالٍ وتاريخه يشهد له بذلك، وفي نفس الوقت ما يحقق المصلحة العامة للجامعة وطلابها وأولياء أمورهم وكل المهتمين بنجاح هذه المؤسسة وسلامتها وسمعتها.

سكت البروفوست صدقي ليعطي عصام فرصة للرد لكن عصام ظل صامتاً، يومئ برأسه دون أن يتكلم. نفثم البروفوست حديثه بالتأكيد على احترامه هو وإدارة الجامعة لنزاهة التحقيق واستقلاله، وحرصهم على عدم التدخل في مجرياته، وتسخيرهم لكل إمكانيات الجامعة لإنجاحه وتعاونهم الكامل مع الشرطة في هذا المجال. لكنه يريد فقط تذكير عصام بتوقعات الجامعة إزاء التحقيق ودرجة التزامه بمعايير المهنية، وأيضاً بتبعاته على سمعة الجامعة ومستقبلها ومستقبل الجماعة المرتبطة بها. قال هذا ثم وقف وشد على يد عصام بحرارة وشكره على اهتمامه واستماعه لما قال وعلى تعاونه وعمله الذي قدمه خلال هذه الأيام العصيبة التي مرت بها الجامعة.

* * *

مالت عليه وهو جالس أمام الصور تنظر لها من فوقه. رفع رأسه ناحية وجهها الذي يكاد يلامس وجهه:

- نعم؛ خير؟

- ممكن أبص؟

- على إيه؟

- الصور.

أشار لها أن تفضل. سحبت لبني عددًا من الصور ثم قالت بسرعة وبساطة:

- طيب ما المسألة محلولة أهي.

- إزاي يا فالحة؟

- يارا لابسة التراكر بتاعها.

- إيه التراكر ده؟

- الساعة الرياضية، اللي بتعد مشيت كام خطوة وطلعت كام دور ومعدل النبض وكده.

انقض على الصور:

- فعلاً؟ هو التراكر بيسجل كل البيانات دي؟

نظرت له لبني في استفهام ساخر وأوشكت على الرد بشيء يتعلق بالقفزات الطبية والكاميرا والذكاء، لكنها أمسكت لسانها في آخر لحظة:

- أيوه، يسجل كل الحاجات دي. هو التراكر فين؟

- أكيد هيبقى عند الطبيب الشرعي أو في الأدلة الجنائية.

- خلاص، خليه يشحنه لو مظفي، وهيلاقوا البيانات
متسجلة بالدقيقة، أو يبعثوه لو ماحدش من العبارة
زملائك عرف يشغله.

لم تضيف هذا الجزء الأخير إلا بعد إدراكها أنه يتصل
بالتليفون ولن يرد عليها. رماها بنظرة تأنيب وهو يتحدث
مع صديقه على التليفون وتظاهرت بأنها لم تلاحظ. ظل
على التليفون بينما ذهب صديقه للبحث عن الساعة في
أحراز القضية وتظاهرت هي بالانشغال بالنظر لصور مسرح
الجريمة. استوقفتها صورة ليارا وهي ملقبة رأسها وصدرها
وذراعها على سطح المكتب. ظلت تنظر لها لثوانٍ ثم
بحثت بسرعة في الصور الأخرى. لم تجد ما يبدو أنها تبحث
عنه فقامت وبدأت تبحث بشكل محموم في الملف الآخر
الذي يحتوي على مزيد من الصور. ثم بدا أنها وجدت
ما تبحث عنه. أمسكت بصورة أخرى ليارا على مكتبها ثم
قارنتها بالصورة الأولى ثم شهقت وسقطت في مقعدها
في ذهول. نظرت إلى عصام فوجدته لا يزال منهمكاً في
الحديث على التليفون. هزت رأسها غير مصدقة وظلت
ساكنة تنتظره.

أنهى عصام المكالمة بعد أن طلب من صديقه التأكد
وإعادة التأكد، ثم طلب منه إرسال صورة شاشات الساعة

الرياضية ليرى بنفسه. عاد وهو شبه تائه، ساهماً وفاقدًا للتركيز. قال دون أن ينظر إلى لبني:

- حاجة مش مفهومة؛ التراكر يقول إن نبضها توقف الساعة ثمانية وخمس وأربعين دقيقة مساءً.

أومأت لبني برأسها مؤمنة دون أن ترد.

- مستحيل. أنا خلصت المعاينة الساعة ٨ بالضبط. ووكيل النيابة بدأ الساعة ثمانية وربع تقريباً.

أومأت لبني برأسها مرة أخرى، ودون كلمة واحدة مدت يدها ناحية عصام بالصورتين اللتين كانت تقارنهما.

- إيه ده؟

سأل عصام.

- دي صورة انت أخذتها أول ما دخلت مكتب يارا، ودي الصورة اللي خدها صاحبك بتاع الأدلة الجنائية أو وكيل النيابة مش عارفة بالضبط.

نظر عصام للصورتين ثم هوى جالساً في مقعده وهو يتم:

- يا نهار أسود ومنيل بتلاتين نيلة!

نظرت لبني إلى عصام وقالت ببرود:

- عصام بيه، يو آر أوفيشيالي فاكد!

* * *

جلست تهاني مع روبرتا والبروفوست صديقي ليضعوا
اللمسات الأخيرة على اتفاقهم الخاص برئاسة القسم.
قالت روبرتا كلاماً كثيراً يبدأ بشكر تهاني ثم يتطرق إلى
المسئوليات الجسيمة التي تنتظرها، وينتهي بأنها ومجلس
الإدارة من خلفها ينتظرون منها النجاح في مهامها الجديدة،
والبروفوست صديقي يومئ ويضيف كلمة أو أخرى من
باب إثبات الحضور. ابتسمت تهاني وأكدت استعدادها
التام لتولي هذه المسئوليات وتصميمها على النجاح، ثم
استفاضت في شرح اتفاقها في الرؤية مع روبرتا حول دور
الجامعة وأهمية احترام الخصوصية الثقافية وبقية النقاط
التي كانت روبرتا قد جعلت منها العلامة التجارية لرئاستها
للجامعة. ثم طرحت بعض الأفكار العملية التي تنوي السعي
لتحقيقها، ومن هنا تطرقت للسألة الأصعب والتي يدور
حولها هذا الاجتماع في حقيقة الأمر.

تهاني تعرف دورها جيداً، وتعرف أهميتها اللحظية لروبرتتا
ومجلس الإدارة وللجامعة كلها. لقد اضطرت الأحداث
روبرتتا إلى التراجع عن الإطاحة بتيم وعن استقدام أستاذ
أمريكي نثق به للحلول محله. كان هذا هو السيناريو المفضل
لها لكن حادثة يارا واحتياجها لمساعدة الجميع بمن فيهم
تيم جعلها تراجع. الحادثة تهز صورة الجامعة

بما يكفي، ولا تحتاج الآن إلى الإطاحة برئيس أحد أهم الأقسام وحل القسم برمته كما كانت تفضل. بل على العكس، تحتاج إلى احتواء مظاهر الفشل ومعالجتها بهدوء وبالتدرج. سقوط سيناريو المواجهة الشاملة يحصر اختيارات روبرتا في شخصين؛ تيم أو تهاني. الإبقاء على تيم رئيساً للقسم سيشكل هزيمة لروبرتة تؤثر على مصداقيتها في الجامعة؛ كل رئيس قسم آخر سترأوده أحلام الانتصار على رئيسة الجامعة، وبالتالي لن تستطيع تغيير أي شيء مما تريد تغييره. تهاني هي الحل الأخف وقعاً بالنسبة لها. بل أكثر من ذلك، يمكنها تسويق تعيين تهاني رئيسة للقسم باعتباره تنفيذاً لأجندتها التي أعلنتها حين تولت منصبها؛ فهي أول امرأة ترأس القسم، وهي مصرية حتى النخاع وبنّت التعليم المصري الحكومي، وتعمل في مجال التنمية وهو المجال الأهم لمصر والمنطقة. باختصار، روبرتا تحتاج إلى تهاني. لكن إلى متى؟ هذا السؤال هو ما يشغل بال الدكتورة تهاني التلاي.

تهاني تفهم رغبة تيم في إدارة القسم من خلالها، وتفهم أيضاً أن فكرة إنشاء لجان لإدارة كل شيء يتم التصويت فيها بإجماع الأساتذة المثبتين - أي هي وتيم - كانت ضرورية لإقناع تيم بقبول التنحي. هذا ما قاله لها عبد الرحمن وهذا ما قررت هي تصديقه - فبعد الرحمن صديقها منذ كانا يعملان معاً بجامعة حلوان. قبولها وتصديقها لا يعني أنها تريد أن تكون طرطوراً يدير تيم القسم من خلاله، أو بالأدق لا تريد أن تكون طرطوراً إلى الأبد. لا بد من ترك تيم يدير الأشياء بنفسه لفترة، لا

بد من إشعاره بالنجاح في إنقاذ نفوذه. لكن ليس هناك ما يدعوها للقبول بذلك إلى الأبد. كيف تفعلها؟ كيف تقنع روبرتا وعبد الرحمن بمساندتها؟ والأهم من ذلك كيف تضمن التزامهما في المستقبل بما يتعهدان به الآن حين تتغير الظروف؟ هذا هو السؤال.

فكرت تهاني في الأمر ملياً، ووجدت الإجابة. هي تعرف مصادر قوتها، سواء تلك المرتبطة بما تمثله - أستاذة، امرأة، مصرية أصيلة - أو بصلاتها وشبكة علاقاتها الواسعة التي توفر لها الحماية وتساعدتها عند اللزوم على اجتياز العقبات الصعبة. لكن لا هذا ولا ذاك يضمن التزام روبرتا في المستقبل. تحتاج إلى ترسيخ نفوذها في القسم نفسه بشكل لا يمكن زحزحته. الاتفاق مع تميم يقضي بإنشاء لجان لتولي تقرير كل شيء بأغلبية أصوات الأساتذة المعيّنين. حالياً لا يوجد سواها هي وتميم وهو ما يعطيه حق فيتو على كل قرار. لكن هذا لن يكون الحال إن تم تثبيت أستاذ أو اثنين آخرين بالقسم، ممن تستطيع الاعتماد عليهم. ساعتها سيكون تميم في الأقلية، ويتحول نفوذه إلى جزء من الماضي. وهذا هو ما تريده من روبرتا اليوم: تعيين اثنين من الأساتذة الذين تضمن ولاءهم وثبيتهم. لكن هذا الحل تعترضه مشكلات. فأولاً تميم عضو في اللجنة التي تعين الأساتذة وثبتهم ومن ثم له فيتو فعلي على القرار. كذلك التعيين والتثبيت قرارات لها تداعيات مالية وإدارية كبيرة وتحتاج إلى تصديق مجلس الإدارة. ثالثاً فإن هذا لن ينطلي على تميم وسيفهم فوراً أنها التفاف حول اتفاقهم. لكن هناك دوماً حلول.

فكرت في كل هذا وجاءت للاجتماع جاهزة. عندما انتهى البروفوست صديقي من كلامه شكرته تهاني بلطف شديد، ثم قالت إن هناك عدة أمور عملية يجب تقريرها الآن إن أرادت الجامعة مساعدتها على النجاح. فهم الاثنان الآخران فوراً أن تهاني بصدد وضع شروط فانتبها. قالت تهاني إنهم يحتاجون إلى تعيين شخص يحل محل يارا، ويكون إضافة للقسم وفاتحة للتغيير الذي ينشدونه جميعاً، كما يحسن بالقسم أيضاً النظر في وضع د. ياسر العرابوي، فقد مضى على وجوده بالقسم عدة سنوات ومن ثم يجب إما تثبيته أو تركه يرحل واستخدام مكانه لتعيين وثبيت أستاذ يواكب التغيير أيضاً:

- فكيف نفعل ذلك بشكل يوائم القواعد المتفق عليها وفي نفس الوقت يفتح الباب أمام تحقيق التغيير البناء الذي نريده؟

لم يرد أي من روبرتا أو عبد الرحمن، ولم تنتظرهما تهاني بل أردفت الحل الذي فكرت فيه. يقوم القسم بالإعلان عن الوظيفتين، ويبحث كل منهم عن مرشحين يتمتعون بالمؤهلات المطلوبة للقيام بالدور البناء المنتظر منهم وشجعونهم على التقدم للوظيفتين. في الأثناء ستحدث تهاني مع ياسر لتقرر ما إذا كان يستطيع - خلف مظاهر الاحتجاج المستمر الذي يبدو أنه مغرم به - أن يتعاون بصدق وإخلاص معها في إعادة بناء القسم أم أنه يفضل التمسك بهذه المظاهر والبحث عن وظيفة في مكان آخر.

قالت إن حدسها وخبرتها يقولان إنه سيتعاون وبشدة، فهو معارضة لفظية لا أكثر، ومستعد لبيع أمه مقابل أي مكسب. سيساومها دون شك على بعض الأمور: تثبيتته، تعديل راتبه ليتساوى مع أقرانه، القضاء على الضوضاء التي أثارها يارا بخصوص علاقته بالطالبات وبخصوص السرقة الفكرية، ربما رئاسة لجنة الدراسات العليا. لكن لا شيء من هذا مستحيل، كما أن إبقاءه في القسم سيكون أفضل من تعيين شخص جديد لأن لديها بالفعل ما تسيطر به عليه إن وسوست له نفسه تحدي سلطتها. في أي حال، سواء اتفق معها ياسر أو رحل وجاء بديل له، ستحاول دفع اختيار تميم ليوائم اختياراتها الخاصة بالتعيين والتثبيت، وإن فشلت لن تصل اللجنة إلى قرار وساعتها سترفع توصيات متعارضة للعميد ورئيسة الجامعة لاختيار مرشحين، بما يوصلنا لنفس النتيجة. نظرت تهاني إليهما مباشرة وسألت بوضوح يبلغ درجة الحدة:

- هل يوافق هذا توقعاتكما؟

- نعم، تمامًا.

ردت روبرتا بسرعة قبل أن يتكلم عبد الرحمن، فأومأ موافقًا.

- هل يعني هذا أنني أستطيع الاعتماد على دعمكما في هذا الأمر بالكامل؟

- نعم، تستطيعين.

ردت روبرتا ثانية، وعبد الرحمن صدقي يومئذ. هزت
تهاني رأسها بدورها وقالت وهي تبسم لكليهما:

- عظيم، شكراً. والآن، سأذهب لأداء عملي.

* * *

لم تكن المفارقة غائبة عن ذهن مروان: هذا أول عشاء
حقيقي له مع لبنى خارج أسوار الجامعة، وهو أيضاً
الأخير. خلال اليومين الماضيين أقنعت لبنى مروان بالسفر.
حتى الآن ليس هناك مانع قانوني من سفره. أما إن قرر
عصام توجيه الاتهام له في المحضر الذي يقدمه للنيابة،
ساعتها تقوم النيابة بإصدار أمر ضبط وإحضار يتم بموجبه
القبض عليه وعرضه على النيابة لتقرر إما استمرار حبسه أو
الإفراج عنه بكفالة. لكننا لم نصل إلى هذه النقطة بعد،
وحتى يحدث هذا يمكنه فعل ما يريد. لم يكن مروان في
حاجة لإقناع؛ فالحقيقة أنه قد خلص إلى نفس النتيجة.
صحيح أنه بريء، ولا يريد الرحيل بهذه الطريقة، لا يريد
أن يكون مطاردًا، لكنه لأول مرة يشعر حقيقةً بالألم
مكان له هنا. لا أحد يريده هنا، لا أحد يحتاجه، وهو غير
قادر على مساعدة أحد بوجوده. بل على العكس، يبدو أن
وجوده هنا في حد ذاته يجتذب المشاكل، ربما كما قالت
لبنى، لأنه «ماشي عكس السير».

كان قد وصل إلى نتيجة عامة بضرورة الرحيل، لكن لبنى هي التي أقنعت بالرحيل الفوري. قالت إنه من غير الواضح ما إذا كان عصام سيوجه له الاتهام، فليس هناك دليل كافٍ. وحتى لو فعل فليس من الضروري موافقة النيابة على ذلك. وحتى لو استدعته النيابة فإن أي محكمة ستبرئه. لكن الأفضل أن يكون آمناً في سان فرانسيسكو خلال هذه الفترة. فلو وقع الأسوأ ووجه له الاتهام وحول لمحاكمة وأدانتته المحكمة لأي سبب، فليس هناك اتفاقية لتسليم المجرمين بين مصر والولايات المتحدة: الموضوع يتم بشكل ودي وحسب الحالة، بما يفتح الباب أمامه لإثبات براءته وهو جالس على الشاطئ في الشمس. أما لو ظل في مصر فسيقضي كل هذا الوقت يحاول الحصول على ساعة تريض في الشمس في ساحة السجن حتى تنظر محكمة النقض في القضية. بالتالي، في كل الأحوال، سواء تم اتهامه أم لا فمن مصلحته أن يسافر فوراً.

سألها كيف يسافر وقد طلب عصام منهم عدم مغادرة حرم الجامعة. فقالت له إن روبرتا نفسها قالت لها إن سفره قد يكون أفضل ما يفعله الآن. تشكك في كلامها فاتصلت ببدران وأعطته التليفون. حياه بدران وبعد المقدمات المعتادة قال له ألا مانع رسمياً يحول بينه وبين مغادرة الجامعة. صحيح أن الرائد عصام طلب من بدران إبقاء الجميع في حرم الجامعة، لكن لا يوجد اتهام رسمي لأحد. كل ما هناك هو سلسلة من الحوارات التي أجراها المحقق مع الحاضرين والأقوال التي أدلوا بها في المحضر. ومن ثم إن خرج مروان الآن من بوابة الجامعة الرئيسية

فلن يعترض أحد طريقه. في نهاية المطاف اقتنع مروان، ورتبت لبنى الموضوع مع بدران. ذهب مروان معها في سيارتها إلى الباب الرئيسي، وهناك لم يجد سوى بدران الذي تظاهر بأنه لا يراها. قادت لبنى السيارة من الباب المفتوح إلى شارع التسعين، ومنه باتجاه كوبري أكتوبر.

سياسف الليلة، على الطائرة المغادرة إلى باريس في الرابعة صباحاً، ومنها إلى سان فرانسيسكو. وجاءت لبنى لتساعده على حزم حقائبه وجمع أشياءه من المنزل الذي يعيش فيه. لم يكن يخطط لهذا الرحيل المفاجئ، وبالتالي يجد صعوبة بالغة في التصرف في الأشياء التي راكمها خلال عام والمبعثرة في كل مكان. هناك ملابس لدى محل التنظيف، وكتب تعود إلى المكتبة، وأشياء طلبها في الطريق، وأثاث البيت الذي اشتراه، وأدوات المطبخ، وماكينه القهوة، وعشرات الكتب والأحذية والصور والأوراق والمقتنيات التي لا اسم لها. كل هذه الأشياء لا يعرف الآن كيف يتعامل معها. سألته لبنى كيف راكم كل هذا خلال أقل من عام؟ لماذا اشترى أثاثاً بدلاً من تأجير بيت مفروش؟ لم يرد، لم يقل لها إنه كان يأمل في البقاء بالقاهرة، لم يقل لها إن يارا كانت على حق، وإنه كان يريد فعلاً تحويل زيارته للجامعة إلى إقامة دائمة. هل كان هذا خطأ منه؟ جريمة؟

فات أوان هذه الأسئلة، قال للبنى وهو يحاول حشر أحذيته داخل حقيبة السفر. أمسكت بيده وأخذت الحذاء منه ووضعت على الأرض. الحذاء متسخ قليلاً،

وترك أثراً على السجادة حين لمسها، بين الأحمر والبني.

- أوبس! إيه ده يا دوك، انت كنت ماشي فين بالضبط؟

ارتبك مروان وغمغم بشيء غير مفهوم. نظرت له وهزت رأسها وقالت ألا فائدة مما يحاول فعله. من المستحيل جمع كل أشياء الليلة. حتى لو وضع الحذاء اللعين في الحقيبة، فهناك عشرات الأشياء الأخرى، والأثاث. كل هذا لن يدخل في الحقيقتين المتاحتين له، ولا في عشرين حقيبة.

- والحل؟

سأل مروان وصوته يشي بالتوتر الذي يعتريه. قالت لبنى إن عليه حزم أهم الأشياء فقط، تلك التي لا يستطيع تركها، في حقيبة أو اثنتين: أوراقه الرسمية وما سيحتاجه خلال الأسابيع القادمة، وإن تبقى بعد ذلك مكان يضع فيه الملابس والأحذية التي سيعاني نفسياً إن فقدوها. أما الباقي فسيدخل في صناديق، ستشرف هي على هذه العملية بعد سفره، وتظل الصناديق في الشقة لحين انتهاء عقد الإيجار، وخلال ذلك يقرر ما تفعله بها: تشحنها إليه في سان فرانسيسكو أم تبيع بها لمؤسسة خيرية. نفس الشيء بالنسبة للأثاث والمطبخ وكل هذا.

شكرها، وسرعة جمع الأشياء الأساسية - بما فيها الحذاء المتسخ بعد أن غسله بعناية فائقة - وملاً بها الحقيقتين المتاحتين. بعد أقل من ساعة كان قد حزمها ووضعها

بجوار الباب. طلب طعاماً لهما من المطعم المجاور وجلسا
 يستريحان في انتظار وصوله. سأله عما سيفعل عند وصوله
 سان فرانسيسكو، فقال إنه لا يعرف بعد، ربما سيستريح
 لبضعة أيام، يأخذ وقتاً ليستوعب ما حدث ويفكر في
 معناه، ربما سيرى معالجاً نفسياً ليتحدث معه ويساعده في
 فهم ما حدث وكيف يتعامل مع نتائجه، فهو لا يحب
 دفن الأشياء على أمل اختفائها. سيبحث أيضاً عن محام
 له خبرة بالنظام القضائي المصري، ثم يبحث عن وظيفة.
 سأله ماذا ستفعل هي فقالت إنها ستواكب هذا التحقيق
 حتى نهايته وتفعل ما في وسعها لحماية نفسها ومن تهتم
 بأمرهم من دوامة الخراء هذه. كاد أن يسألهما عن تقصد
 بذلك لكنه تراجع. لا داعي. فات أوان ذلك. أو لعله
 لم يفهم؟ لعل هناك فرصة؟ لكن كيف؟ سيقول لها الآن
 أن تأتي معه، ويذهبا لبيتها ليحزما حقيبتين أخريين لها،
 ويتوجها للمطار بعد ذلك ويسافرا معاً؟ ثم ماذا؟ ماذا
 لو كان كل هذا انجذاباً لا مستقبل له؟ الحب ينمو مع
 الوقت، العلاقات تنمو مع الوقت، وقد تواصل النمو أو
 تتوقف. لهذا يحتاج الناس إلى وقت، كي يعرفوا فرصهم
 في النجاح، وحتى مع الوقت قد يخطئون. أما أن يقفز
 اثنان هكذا لمجرد انجذاب بينهما فلا معنى له. حتى لو كان
 هذا الانجذاب قوياً إلى هذه الدرجة، حتى لو كانت فكرة
 الانفصال تصيبه بألم فعلي في صدره وتظلم الدنيا أكثر قليلاً
 مما هي مظلمة. ثم هل هي قادرة فعلاً على الدخول في
 علاقة سوية أم أن الأذى الذي تعرضت له طول حياتها
 قد أفقدها القدرة على ذلك. وماذا لو ارتبطا ثم شعرت
 فجأة لأي سبب أنه يستغلها، أو يؤذيها. لا يريد إضافة اسمه

لقائمة رجالها المؤذين، لا يريد جرحها، ولا جرح نفسه.
هي تحتاج إلى التعافي أولاً قبل أن تستطيع الدخول في
علاقة صحية، وهو ليس طبيياً. يعرف ذلك، لكنه وجد
نفسه رغم ذلك يقول:

- مش عايزه تيجي معايا؟

هزت لبنى كتفها وهي تضحك ربع ضحكة، كأنها تنهد
لا تضحك حقيقة:

- دي فكرة لطيفة.

- باتكلم بجد.

- لا ما بتتكلمش بجد ولا حاجة. بعدين لازم حد يفضل
عشان يلم الكراتين.

صمت لحظة وظل يرمقها في صمت وهو يجتهد ألا تقول
عيناه شيئاً لا يريد البوح به. أخذت لبنى نفساً عميقاً
وقالت بهدوء وحيادية هشين، تشبث بهما كيلا تغلبها
مشاعرها:

- كده الصبح، كده كل واحد يروح مكانه الصبح، انت
تروح سان فرانسيسكو وأنا أروح القاهرة الجديدة.

- لكن.

- مالكنش. أنا مكاني هنا، وسط الحاجات الجميلة دي.
أنا متعودة عليها، متفرمة عليها. توقعاتي من العالم مبنية
عليها، استراتيجيتي في التعامل مع العالم مبنية عليها. لو رحت
مكان ثاني هابقى مش عارفة، مش راكبة صح، مش
هاعرف أتعامل.

- انت عندك حاجة وعشرين سنة، وذكىة، وواعية،
أكيد تقدري تعيدي برجة النظام اللي ماشية عليه.

- كنت نفعت نفسك يا دوك. ما انت راكب غلط
هنا. عرفت تعيد برجة نفسك؟ عشان تعمل كده لازم
تعيد برجة نفسك وتبقى زي الناس اللي انت طول الوقت
مستغربها ومستغرب نفسك وسطها. ده معنى إنك تكون
راكب غلط.

- وانت مش راكبة غلط!

- جايز جيت غلط هنا، بس اتفرمت على كده خلاص.
البروسيوسور بتاعي بيشتغل على السيستم ده. لو رحت
مكان ثاني هاحتاج بروسيسور جديد مش إعادة برجة.

- أي كلام.

- كله أي كلام.

- في حاجات مش أي كلام، في حاجات حلوة.

نظرت له برقة لم يرها في عينيها منذ زيارتها الليلية لغرفته
وقالت:

- فعلاً، ودي كانت هتبقى حاجة حلوة، بس معلش.
النصيب كده.

ثم أردفت بلهجتها المعتادة:

- أضبط نفسي مع الرائد عصام بأه.

- فكرة برضه؛ عريس من جهة أمنية.

- صح؟ ما حدش يقدر يكلمني بعد كده.

صمتا هما الاثنان لحظات ثم سأله لبنى بصوت محايد:

- انت مش هتنام معايا؟

رد مروان بصدمة:

- إيه؟

- مش هتنام معايا؟ يعني أنا في بيتك، وبنوضب شنطتك
وهتسافر، لحظة درامية وكده، والمفروض في بينا مشاعر
ما. مش مهم اسمها إيه بس أهو في حاجة. فرصتك. تسبل
عينيك شوية وتميل راسك على كتفي وبعدين تحط ايدك

على صدري أو على البنطلون وتقلعني وكده.

- ليه بتقولي كده؟

- أنا قلت حاجة غلط؟ مش انت راجل برضه؟ فرصة جتلك لحد بيتك، ومفيش أي عواقب، هتنط على المزة وتخلع. واهو تبقى ضفت واحدة للقائمة بتاعتك! تعمل أبجريد من أم أربعة وأربعين اللي نمت معاها آخر مرة!

ظل مروان صامتاً لا يعرف كيف يرد. لا يعرف أصلاً كيف يفسر ما تقوله. تضاربت ردود فعل مختلفة في ذهنه ولم يعرف ماذا يقول أو يفعل، فاختر أبسط الردود:

- لا، اطمني مش هيحصل.

- أنا مش قلقانة!

رمقها بنظرة مستفسرة وهم بالرد مجدداً، لكن جرس الباب دق معلناً وصول الطعام. قام لإحضاره ودفع الحساب وعاد بالطعام. كانت لبنى قد أعدت الأطباق وأدوات المائدة وجلسا يأكلان في صمت. سأله بعد قليل عما يريد فعله بهذه الأشياء التي يتركها، وبدأ في استعراض الأشياء ومناقشة مصيرها الواحد تلو الآخر: الستائر، المكتبة التي صممها، اللوحات، السجاد، الأثاث، وهكذا. أنهيا الطعام ونظفا مكانهما وطافا معاً بحجرات المنزل حيث تسأله لبنى عن مصير كل قطعة وهو يجيب،

حتى وصلا إلى باب الشقة من جديد. سأله إن كان يريد توصيلة للمطار فhez رأسه نافيًا. قالت إنها في هذه الحالة ستعود للجامعة ووقفًا عند الباب. أعطاه نسخة من المفاتيح كي تأتي بعد سفره وتعامل مع هذه الأشياء. تبادلًا نظرة طويلة ثم احتضنا بعضهما مودعين. كان الحزن وديًا أكثر مما هو عاطفيًا؛ لا يشكل فيه تلامسهما سوى تجاوز لا معنى خاصًا له، مثل تجاوز كرسيين. بدأ في التبعاد لفك اشتباكهما، لكنها في هذه اللحظة فكت؛ بدلًا من أن تتماسك عضلاتها وتسحب جسمها بعيدًا عنه فكت، فتداعت في حضنه أكثر. احتضنها بشدة، وجأة وجدا نفسيهما متعانقين ملتصقين ممسكين بعضهما ببعض كأنما يحميان نفسيهما من الغرق أو من الريح، وكل منهما يدير وجهه بعيدًا كيلا يرى الآخر دموعه.

* * *

حاصر عصام نائلة أبو ذكري بالأسئلة عن الدقائق الأولى لوصولها مسرح الجريمة. يريد منها أن تعصر مخها وتذكر جيدًا ما إن كانت قد وجدت باب المكتب مغلقًا أو مفتوحًا، ما إن كانت قد شاهدت أحدًا في الممر عند وصولها، ما إن كانت قد دخلت المكتب وتأكدت من وفاة يارا بنفسها أم اكتفت بالاتصال بتيم أو بدران للإبلاغ عن الجريمة. ونائلة لا تتذكر الكثير. كل ما قالته أنها متأكدة من عدم دخولها المكتب، ومن أنها لم تتصل بأحد. عندما رأت المشهد غامت الدنيا أمامها وسقطت مغشية عليها قبل أن تتمكن من الاتصال. وعندما أفاقت

كان كل من تميم وبدران بجانبها وباب المكتب مفتوحاً وأعضاء القسم داخليين خارجين حتى أغلقه بدران ووضع حراس الأمن أمامه لمنع دخول أحد.

- ما اتصلتيش بجد؟

- أبداً. حاولت بس مالحقتش. ما كنتش شايفة قدامي وبعدين أغمى عليّ.

- أمال تميم وبدران عرفوا إزاي؟

- مش عارفة. جاز حد منهم جه بالصدفة وشافني مرمية في المرفج يشوف إيه الحكاية؟

* * *

جلس عصام وحده في قاعة التحقيق، وأمامه على المنضدة الكبيرة عدة أوراق بيضاء وأقلام، وبجوارها تتناثر صور مسرح الجريمة وتقارير الطبيب الشرعي والمعمل الجنائي. لا يكتب شيئاً، ولا ينظر حقيقة في الصور أو التقارير، لا يفعل شيئاً سوى الجلوس في صمت. القاعة نصف معتمة؛ فهو جالس هنا منذ فترة، وحين مالت الشمس نحو المغرب لم يعبأ بالقيام وإضاءة مصابيح القاعة. شاشة تليفونه هي مصدر الضوء الرئيسي؛ كل دقيقة تقريباً تضيء الشاشة باسم الشخص الذي يحاول الاتصال به، لكن لا صوت يخرج من التليفون وعصام لا يلتفت

للتليفون أصلاً. يعرف جيداً المطلوب منه، ويعرف جيداً الخيارات المتاحة أمامه، وهي كلها خيارات سيئة.

قضى حياته كلها يحاول العثور على سلم يطلعه من البهدة إلى وجه الدنيا، إلى النظافة. قضى حياته كلها يعمل كما يقول الكتاب على أمل أن يكون عمله هو السلم الذي سيحمله إلى هذا العالم الذي يرى صورته ولا يستطيع إمساكه. وأخيراً جاءت الفرصة، أو ظن كذلك. لكن فجأة تبدلت الأوراق، وأصبح السلم الذي يمكن أن يحمله إلى وجه الدنيا هو كسر القواعد وتجاهل الكتاب، في حين أن اتباع ما يقوله الكتاب سيؤدي به إلى التهلكة. ولا حل ثالث.

كانت هناك دقائق خفيفة على باب القاعة من وقت لآخر لكنه لم يقم لفتحه ومع الوقت تباعدت هذه الزيارات حتى توقفت. سمع عصام صوت دقائق جديدة فانتبه لكنه لم يقم. بعد ثوانٍ سمع صوتاً آخر ثم انفتح الباب؛ لبنى، بالطبع، فهي الوحيدة غيره التي تستطيع فتح القفل الإلكتروني للباب ببطاقتها الوظيفية. أطلت برأسها داخل القاعة وتمتعت:

- إيه الجو الغامض ده؟

لم يرد. دخلت وأضاءت مصابيح القاعة وتوجهت للجلوس في مقعدها المعتاد. كان لا يزال ينظر أمامه كأنها لم تدخل، وكأن الضوء لم يغمر القاعة المظلمة فجأة. جلست

في صمت وظلت دقيقة لا تتحدث.

- انت ناوي تعمل إيه دلوقت؟

هز كتفه ولم يرد.

- أنا بس عايزه أسأل سؤال بس خايفة تفهمني غلط.

...

- هو انت لما وصلت ما قستش نبضها؟

هز رأسه نافياً.

- اقترضت إنها ميتة؟ اقترضت إنهم قاسوا نبضها
واتأكدوا من وفاتها قبل ما توصل؟

هز رأسه إيجاباً.

- بس المفروض إنك تتأكد بنفسك، صح؟

هز رأسه إيجاباً. أو مأت لبني هي الأخرى وصمت. هذا
إذن ما حدث، وصل الرائد عصام وفي وسط الارتباك
العام اقترض أن الضحية فارقت الحياة ولم يتحقق من
ذلك، في حين كانت لا تزال على قيد الحياة ولكن غائبة
عن الوعي، ربما بفعل المخدر وربما بفعل النزيف وربما
بفعل كليهما. كل هذا الوقت الذي ضاع وهو ينتظر

القفاذات، وهو يتحدث مع القيادات، كانت فيه يارا على قيد الحياة. كل هذا الوقت الذي قضاه في مسرح الجريمة، وهو يفحص جروحها وشكل الدماء ومصدرها ومحتويات حقيبتها والنبذ والكأس وكل هذا، كانت على قيد الحياة. حتى حين غادر المكتب كانت لا تزال حية. ثم يبدو أنها أفاقت، ربما لحظات، في العشرين دقيقة الفاصلة بين معاينته ومعاينة النيابة، وتحركت. لهذا فإن رأسها يستند إلى ذراعها اليسرى في الصور التي أخذها هو وإلى ذراعها اليمنى في الصور التي أخذها خبير المعمل الجنائي. لهذا يقول الطبيب الشرعي، والساعة الرياضية، إنها فارقت الحياة بعد الثامنة والنصف. كل هذا الوقت كانت حية، وغالباً كان يمكن إنقاذها.

- انت قلت لحد ثاني؟ حد غيرنا احنا الاتنين يعرف؟

هز رأسه نافياً.

- يبقى بسيطة. صورة التراكر، الساعة الرياضية، مش موجودة في تقرير المعمل الجنائي الرسمي. ما تعملش حاجة، خلي الموضوع عايم كده. وما تضغطش على الطبيب الشرعي. في كل الأحوال تحديد ساعة الوفاة دي مسألة تقديرية وغالباً وكيل النيابة مش هياخذ باله. وخلاص، اكتب تقريرك وسلمه للنيابة الصبح واكفي على الخبر ماجور.

نظر لها عصام ساهماً ثم تكلم ببطء:

- إزاي يعني؟ انت عارفة الكلام ده معناه إيه؟

- معناه إنك تتفادى مشكلة مالهش ثلاثين لازمة. يارا ماتت، وده أفضل للإنسانية. جازر كان يمكن إنقاذها وجازر لأ، اللي حصل، مش مقصودة. هارد لك.

- ده تقصير جسم وممكن يتحسب قتل خطأ لو النيابة تشددت.

- ما هو وكيل النيابة معاك في نفس المشكلة. يبقى يتهم نفسه بأه.

- آه بس ده تزوير. إزاي أعمل كده وأكل عادي؟ أبقي ضابط إزاي يعني؟

- هوانت ما بتشوفش أفلام أمريكاني؟ ده تقريباً البوليس الأمريكي كله كده. واحنا في الجامعة الأمريكية فما جراش حاجة؛ اعتبر نفسك بوليس أمريكي. وبعدين في حل لكل المشاكل دي.

- العرض بتاع روبرتا.

- الله ينور عليك. دي علامة يا مارد. من السماء. ربنا يقولك السيناريو «ب» هو الطريق.

- ربنا برضه يقول كده؟

- يا حضرة الضابط انت والله محيرني معاك. أحياناً بتقول حاجات كأنك مش ضابط مباحث وبتقضي أيامك كلها في الأقسام.

- انت فكرتك عن الضباط...

- يا عم ما تدخلناش في متاهات، بلا فكري بلا فكرتك. انت حر. قدامك اختيار: عايز تخلص الموضوع على خير والناس تشكرك بمن فيهم انت شخصياً في المستقبل، السكة واضحة. عايز تعمل فيها بطل لمدة خمس دقائق اتفضل؛ اتهم الناس كلها وورط نفسك وورط صاحبك بتاع الأدلة الجنائية ووكيل النيابة ونخش كلنا السجن بعون الله. زي ما تحب.

- يعني إيه بطل لمدة خمس دقائق؟

- هو انت فاكر إنك لو اتهمت الناس دي كلها النيابة هتمشي وراك؟ أو المحكمة؟ هو اللي يحاول يحمي الجامعة دلوقت مش هيحاول يحميها ساعتها؟ كل اللي هتعمله إنك تصعب عليهم المشكلة شوية، تزود التكلفة شوية، وتروح انت في الرجلين عادي.

قالت هذا وقامت واقفة.

- انت رايحة فين؟

- هاروح أشوف شغلي. انت عايز مني حاجة تانية؟ في ايميلات تانية أترجمها؟

نظر لها مطولاً وشعرت أن شيئاً ما في نظرتها مختلف هذه المرة؛ راحت السخرية والملامة والتحدي وبقيت مجرد نظرة حائرة مترددة، تكاد تكون نجولة.

- أنا لو عملت اللي بتقولي عليه ده مش هتحتقريني؟

- انت لو عملت أي حاجة تانية هاحتقرك! انت هتعمل فيها عبيط انت كمان؟ هي ناقصة جواميس تايهة؟ انت مش شايف احنا عايشين فين؟ مفيش قدامك غير حاجة من اثنين: يا تعوم على وش الفتة مع اللي بيعوموا يا تغرق في طاجن الفتة وبتاكل. اختار حاجة من الاثنين وانجز. تعيش وتقب على وش الدنيا ولا تغرق وتداس؟

- هو ده وش الدنيا؟ أبقى زي تيم أو ياسر أو تهاني أو بقية الفرقة دي؟

- مش باقولك هتعمل عبيط انت كمان. أنا عملت إيه بس يا ربي عشان تحدف عليّ الأشكال دي. ده أنا افكرت إني أخيراً هاضبط نفسي!

نظر لها مطولاً، محاولاً التحقق من معنى ما قالته، محاولاً التأكد إن كان قد فهم ما قالته بشكل صحيح. هزت لبني رأسها في سخرية وقالت وهي تسير نحو باب القاعة:

- بس فالح يقولك مش عشان ماعنديش لغة أبقي غبي! يا
أخي اتلهي!

خرجت وأغلقت باب القاعة خلفها بهدوء.

* * *

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً حين التأم شمل
أعضاء قسم دراسات الشرق الأوسط في انتجاعهم الجديد.
افتتح د. تميم نسيبة الجلسة ثم طلب من الحاضرين الوقوف
لمدة دقيقة حداداً على روح الفقيده، الدكتورة يارا رفيقي.
بعد ذلك بدأت أعمال الانتجاع بإقرار جدول الأعمال.
سأل الحاضرين إن كانوا قد تلقوا نسخة من جدول
الأعمال فأجابوا بالإيجاب، ثم سألهم إن كانت لديهم أي
ملاحظات عليه، فقال د. ياسر إنه يريد مناقشة مسألة
تمثيل الطلبة في الاجتماعات حيث يشعر بعدم الراحة
لاستبعاد ممثلي الطلبة القدامى قبل انتخاب من يحل محلهم.
فقال تميم إن ذلك يمكن مناقشته في البند رابعاً المخصص
لما يستجد من مسائل. وقبل أن يرد ياسر نادى تميم بتبني
جدول الأعمال كما هو وسأل إن كان هناك من يساند
ذلك، فقالت د. تهاني التلاي إنها تساند المناداة، فعرض
تميم الأمر على التصويت حيث رفع هو وتهاني يديهما
بالموافقة وبالتالي تم إقرار جدول الأعمال وفقاً للإجراءات
المعمول بها. وهكذا انتقلوا من بند إلى آخر.

طلب مروان قهوة بلبن الصويا فقالت له النادلة ألا لبن صويا لديهم. سألها إن كانت بقية المقاهي لديها لبن صويا أم أن الاختراع لم يصل إلى باريس كلها، فنظرت له شزراً وسألته إن كان يريد لبناً طبيعياً أم سيأخذ قهوته سوداء. نظر لها شزراً هو الآخر وخرج من الطابور دون أن يرد عليها وذهب يبحث عن مقهى آخر. مطار شارل ديغول به إصلاحات تسببت في إغلاق مناطق بأكلها، وبعد اللف والدوران وجد مقهى آخر أصغر من الأول، وبلا لبن صويا أيضاً. طلب قهوة بحليب خالي الدسم وجلس يرشفها وهو يحاول ألا يضايق نفسه بسبب هذه التفاصيل الصغيرة. ما زالت أمامه رحلة طويلة إلى سان فرانسيسكو، ورحلة أطول بعد ذلك.

جلست لبنى خلف شاشة الكمبيوتر تقرأ الرسالة الواردة من نائلة أبو ذكري والمنسوخة لكل أعضاء القسم. تقول نائلة إن القسم قرر في انتجاعه السنوي انتخاب الدكتورة تهاني التلاي رئيسة جديدة للقسم خلفاً للدكتور تميم نسيبة مع توجيه الشكر للأخير على إسهاماته القيمة خلال السنوات الماضية. كما قرر تشكيل عدد من اللجان للبت في موضوعات التعيينات والترقية والتثبيت وما إلى ذلك، بعضوية كافة أعضاء القسم على أن تكون قراراتها كلها بأغلبية أصوات الأساتذة المثبتين. كما قرر القسم دعوة

الطلبة لاختيار ممثلين جدد يكون لهم حق المشاركة في الاجتماعات دون التصويت. وفي النهاية أصدر قرارين منفصلين، أحدهما بالإعلان عن الوظيفة التي أصبحت شاغرة بوفاة الدكتورة يارا رفقي، والثاني بالإعلان عن مكان أستاذ زائر لمدة عام، ومرفق بكل قرار شروط التقدم. طبعت لبني الرسالة ووضعتهما في حافظة ورقية وأضافتها إلى بريد روبرتا الوارد، فهي تحب أن ترى هذه الأشياء مطبوعة.

* * *

فوجئ بدران أبو سرّة بالرائد عصام واقفاً أمامه في مكتبه. نظر إليه مستفهماً ومرتبكاً قليلاً، ثم لاحظ تعبير وجه عصام المختلف. لم يكن هناك أثر لتلك النظرة المجاملة التي تكسوه عادة وبدلاً من ذلك سيطر تعبير جامد على ملامحه. سحب عصام كرسيّاً وجلس أمامه دون دعوة منه، وفهم بدران أن هناك أمراً.

- هو حضرتك عرفت إزاي إن يارا اتقتلت؟

- يعني إيه عرفت إزاي؟ نايلة أبو ذكري كلمتني.

- لا، ماحدثك كلم حضرتك. هي أي نعم تليفونها ضاع في ظروف غامضة، بس سجلات شركة التليفونات بتقول إن مفيش اتصال حصل بينكم.

- آه صحيح، لا مؤاخذه. لخبطه الأحداث لخبطتني. أنا كنت بامر على المباني ووصلت هناك بالصدفة.

- انت بتمر على كل مباني الجامعة في الوقت ده؟

- آه قدر الممكن.

- ووصلت مكتب يارا قبل نايلة ولا بعدها؟

- لا بعدها، لقيت نايلة مرمية على الأرض في الممر فجريت ناحيتها.

- وبعدين؟

- وبعدين شفت منظر المكتب فاتصلت بتميم واستدعيته وفضلت جنب نايلة أحاول أفوقها.

- يعني ما دخلتش المكتب؟

- لا.

- وما قستش نبض يارا؟

- لا! الموقف كان واضح!

- متأكد إنك ما دخلتش المكتب؟

- إيه يا عصام بيه؟ متأكد طبعا.

- طيب بعد إذنك هنفتش المكتب.

- إيه؟ مكتب مين لا مؤاخذه؟

- مكتب سعادتك.

- إنت اتجننت؟

- إيه يا أستاذ بدران؟ انت نسيت إني ضابط المباحث
اللي باعمل التحريات؟

- لا ما نسيتش بس ده جنان. انت عارف انت بتعمل
إيه؟

- عارف، عشان كده سبتك للآخر. ومعايا إذن من
النيابة لو تحب تطلع عليه.

قال هذا ونادى على معاونيه الواقفين خارج الباب.
دخلوا وبدأوا التفتيش تحت إشرافه وبعد عدة دقائق وجد
عصام ما كان يبحث عنه:

- مش ده كاتم صوت برضه يا أستاذ بدران؟

- أيوه.

- بتاع مسدس حلوان؟

لم يرد بدران. أشار عصام إلى طاقم المعاوين بأن يغادروا المكتب فخرجوا الواحد تلو الآخر. جلس مرة أخرى في المقعد المقابل لبدران وسأله:

- حضرتك برضه استغيتني زيادة.

- بالعكس، انت طلعت أغبي مما توقعت! وإن كنت فاكر إن اللي بتعمله ده هيوصلك حاجة تبقى أغبي كان.

- الله يحفظك.

- أنا عايز أعرف حاجة واحدة.

- كويس؛ أنا كان عايز أعرف حاجة واحدة.

- اتفضل.

- ليه؟

- مانا قتلتك ليه. انت اللي ما بتفهمش! أنا مش قاعد طرطور هنا. والوضع خرج عن السيطرة ومعايش له غير حل واحد. مين اللي هيحله؟ الأراجوزات دول؟ مفيش غيري يقدر يحله!

- جدع يا باشا. وفي المقابل هم يظبطوك.

- أيوه أمال إيه؟ شيلني وأشيلك، حل مشكلتي وأنا أحل مشكلتك. انت فاكر إيه أمال؟ الدور بأه على اللي مش فاهم أو عامل نفسه مش فاهم.

- تمام. وإيه سؤال حضرتك؟

- إيه اللي وجه تفكيرك لي؟

- الجزمة.

- أفندم؟

- الكوتشي. في مدير أمن يمشي في الجامعة ببدلة وكرافتة ولابس عليها كوتشي! وبعدين أول ما دخلت المكتب لقيت آثار الجزمة بالدم على السجادة. باينة قوي إنك غيرت الجزمة بسرعة في مكتبك وما كانش عندك بدالها غير الكوتشي! ابقى خلي في جزمة احتياطي في مكتبك بعد كده!

- هو انت اللي سرقت الجزمة من المكتب؟

- ما سرقتهاش، دي متحرزة رسمي وبمعرفة خبير الأدلة. بعته مكتبك من أول ليلة - لما طلبت منك تفضل معايا شوية - ومعاها اتنين معاونين، وصور الجزمة في مكانها اللي انت كنت سايبها فيه، بآثار الدم اللي عليها، وحطها في

كيس وخدها معاه المعمل الجنائي. وطبعاً طلعت مطابقة
لآثار الجزمة اللي في الدم على أرض المكتب.

- ممكن أقول إني دخلت مكتب يارا لما اكتشفنا الجثة
وبالصدفة دست في الدم.

- بس انت قلت إنك ما دخلتش، وإنك متأكد! وبعدين
في كمان النضارة.

- نضارة إيه؟

- الريبان بتاعة سعادتك، وعليها البصمات برضه. غالباً
وقعت وانت بتخط المسدس على الأرض. أنا راجعت
صور لحضرتك ولقيتك في كتير منها واقف في ساحة
الجامعة بنضارتك الريبان، هي نفسها، وأحياناً - متيألي
في الشتا - بتبقى رافعها فوق راسك. غالباً هي كانت على
راسك ووقعت من غير ما تحس.

.... -

- وبعدين حكاية بيانات باب مكتبها اللي اتمسحت دي
برضه مفقوسة قوي!

- لا والله دي اتمسحت بجدة. في إيروور.

- ماشي. كله بأه كوم وكاتم الصوت كوم. أولاً مفيش

أستاذة جامعية إكسترا سمول هتشتري مسدس حلوان؛
دي محتاجة حد يشيله قصاها! وكان ماحدث سمع
صوت الطلقة. طيب فين الكاتم؟ انت خدته معاك ليه
صحيح؟ استخسرت ترميه؟

....

- بعد إذنك أنا هاخلي المخبرين دول على الباب لغاية ما
أطلع أمر ضبط وإحضار. يا ريت ما تحاولش تعمل أي
حركات صغيرة.

- لا ما تقلقش، احنا مش عيال صغيرة. أنا مش
هاتحرك من هنا. بس أحب أقولك للهرة الأخيرة تراجع
نفسك قبل فوات الأوان وترجع عن الطريق اللي انت
ماشي فيه ده. مش هيؤدي لأي شيء غير أذيتك انت.
خد العرض اللي قدامك قبل فوات الأوان. اللهم قد
بلغت!

* * *

أعاد وكيل النيابة قراءة محضر التحريات وهو يدقق النظر
فيه غير مصدق. المحضر يتهم مدير الأمن بدران أبو سره
بالقتل مع سبق الإصرار والترصد، ويرفق صور الأدلة التي
ثبتت تورطه. ثم يضيف أسماء سبعة من زملاء ومعارف
الضحية توجد قرائن قاطعة على شروعاتهم في قتلها: الدكتور
تميم نسيبة الذي خنقها وتركها فاقدة الوعي، والأستاذان

مروان المفتي وياسر العرابوي اللذان يشتبه في طعنهما للضحية وبصماتهما على السكين المرحج استخدامها في ذلك، والدكتورة تهاني التلاي التي أعطتها نبذاً مضافاً إليه سميات، وثلاثة من الطلبة شاركوا في مدها بالهيريون أو حقنوها به: معاذ عاكف وأحلام سيف وإبراهيم ناجي. ثم يضيف التقرير ألا أحد من العاملين بالجامعة ممن اكتشفوا الحادث قام أو حاول القيام بالإسعافات الأولية ولم يخطر الشرطة أو النيابة بذلك بما أدى لعدم قيام الآخرين بفحص الضحية والتأكد من وفاتها، وهو ما ترتب عليه القضاء على فرص إنقاذ حياتها التي كانت لا تزال قائمة. ثم ينتهي التقرير بطلب إصدار أوامر ضبط وإحضار بحق الثمانية متهمين الواردة أسماؤهم، إضافة إلى التحقيق مع رئيسة الجامعة وعميد الجامعة ومدير أمنها بتهمة محاولة رشوة ضابط المباحث، وأرفق مع ذلك التسجيلات الصوتية التي ثبت تفاصيل عرض الرشوة.

وضع ويكل النيابة رأسه بين يديه محاولاً استجماع أفكاره، ثم أمسك بالهاتفون وبدأ اتصالاته.

* * *

جلست لبنى في ساحة الجامعة تتناول غداءها، وحدها. اليوم الاثنين والطلبة قد عادوا لملء قاعات الجامعة ومبانيها وأفنيتها. الأساتذة يروحون ويحيثون مسرعين من وإلى قاعات الدرس. نائب مدير الأمن يقف في الساحة الرئيسية مرتدياً نظارته الشمس الريان. ابتسمت لنفسها

وهي تتساءل إن كان مروان قد وصل سان فرانسيسكو
أم لا يزال في الطريق. رن تليفونها بصوت وصول رسالة
فأمسكت به ونظرت إلى الشاشة:

تحبي تشري لمون مع جاموسة

تايه مش عارفة تعوم

على وش الفتة؟

هزت رأسها متبرمة ثم كتبت:

لمون!! انت قديم قوي!

على قد مرتبي يا آنسة

وليه تكلف نفسك،

ما تعزمي ناكل ترمس

على كورنيس شبرا!

ينحرب بيت اللماضة!

عايزة تخرجي معايا

ولا مش قد المقام؟

بالراحة يا عم! الرفق بالقوارير!

قوارير؟ احنا باين علينا

هنتسلي فشخ!

* * *

جريمة في الجامعة

«بعد خمس وأربعين دقيقة من الحوار العقيم، استأذن عصام خارجاً وعاد إلى مقره. واضح أن هذا التحقيق سيستغرق وقتاً أطول مما اعتقد في البداية. ربما كانت هذه الأنسة الجميلة المشاكسة على حق، والجامعة لا تختلف كثيراً عن بقية الأماكن التي يعرفها. كلها عبارة عن طبقات من الأوضاع الخاطئة يغطيها بريق ما. وكلما نبشت السطح وجدت جثثاً مدفونة. تضايقه هذه الفكرة، كان يتعشم أن تكون الجامعة كما ظنّها، مختلفة عن بقية الأماكن التي تعرّيبها مهنته. هذه هي مشكلته؛ يعمل في مهنة تقضي على الأحلام».

تدور أحداث هذه الرواية حول التحقيق في جريمة قتل الدكتورة يارا رفقي؛ أستاذة الدراسات الثقافية بالجامعة الدولية. تبدأ الأحداث قبل وقوع الجريمة؛ حيث نتعرف على الشخصيات الرئيسية – أستاذة القسم، وإدارة الجامعة والطلبة – وتفاصيل حياتهم وصراعاتهم الجامعية التي يفترض أن يحسموها خلال اجتماعهم السنوي المرتقب. لكن هذا الاجتماع لا يلتئم؛ حيث تقع الدكتورة يارا ضحية لجريمة غامضة.

بقية فصول الرواية تسير التحقيق الذي يجريه الرائد عصام مع زملاء ومعارف يارا، وما يكشفه هذا التحقيق من خفايا الشخصيات وعلاقاتهم التي يغطي عليها بريق الجامعة الدولية الكبيرة. مع قرب وصول التحقيق لنهايته، تواجه إدارة الجامعة، والضابط الذي يقود التحقيق، اختيارات إنسانية صعبة يتوقف عليها مستقبلهم جميعاً؛ المهني والشخصي.

عزالدين شكري فشير؛ عمل أستاذاً بقسم العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بين ٢٠٠٨ و٢٠١٦، ثم انتقل للتدريس بدارتموث كوليدج بالولايات المتحدة، وله عدد من الروايات المنشورة باللغة العربية والمترجمة.



9 789770 938317

ضاب
t.me/twinkling4

دار الشروق
www.shorouk.com